جمال الغيطاني

المجالس المحفوظية

جمال الغيطاني

المجالس المحفوظية

تمّ إنتاج الكتاب الإلكتروني من قبل Hekayh
نشر الكتاب الإلكتروني 2017 ب Booqla
نشرت بواسطة دار نهضة مصر للنشر
حقوق التأليف والنشر © بواسطة دار نهضة مصر للنشر

إذا لم يتم عرض النص في الكتاب بشكل مقروء، الرجاء
الضغط على الرابط التالي لتحميل قارئ كتب إلكترونية مناسب للكتاب.

حق النشر

ج.م.ال الغ.ي.ط.ان.ي
المجالس المحفوظية
إش.راف عام: داليا محمد إبراهيم
جمي.ع الحق.وق محف.وظ.ة © لدار نهضة مصر للنش.ر
يحظ.ر ط.ب.ع أو ن.ش.ر أو تص.وي.ر أو تخ.زي.ن
أي ج.زء م.ن ه.ذا الكت.اب بأي.ة وسيل.ة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوي.ر أو خ.لاف ذلك إلا بإذن كتابي صري.ح من الناش.ر.
الترقيم الدولي: 978-977-14-5365-9
رق.م الإي.داع: 2015/23707
ط.ب.ع.ة ي.ن.اي.ر 2016

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
تليف.ون: 33466434 - 33472864 02
فاك.س: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

مقدمة

يمكن اعتبار عام أربعة وتسعين من القرن الماضي علامة فارقة في حياة نجيب محفوظ، وفي علاقتنا به، ليس في مضمونها، ولكن في شكلها والظروف المحيطة بها. لا أعتبر عام ثمانية وثمانين مماثلًا. أعني السنة التي حصل فيها على نوبل. عندما أعلنت الجائزة يوم الخميس، ذهبت إلى البيت، كان عدد كبير من الصحفيين المصريين والعرب والأجانب أمام البيت الذي يقع في الطابق الأول من بيت يطل على النيل الصغير، الفرع الأضيق ناحية الجيزة. بعد لقائي بالسيدة زوجته التي كانت تواجه وضعًا لم تعتده في حياتها التي كانت تمضي في هدوء، بعيدًا عن الأضواء، وكان تردد المقربين جداً على البيت الصغير الذي تقيم فيه الأسرة منذ الخمسينيات. شقة صغيرة، اختير أثاثها بذوق رفيع، لم يتح لي دخولها قبل يوم نوبل إلا مرة واحدة عدت فيها الأستاذ أثناء مرض عابر منذ سنوات. كانت المقاهي أماكن لقائنا منذ أن بدأت علاقتنا عام تسعة وخمسين، في ذلك اليوم، بعد ظهر الخميس الأكتوبري، كان الجميع يتساءلون عن المكان الذي قصده الأستاذ. لم أكلف نفسي عناء السؤال، خرجت من البيت قاصدًا كازينو قصر النيل، وهناك رأيته. أقبلت عليه مهنئًا، مرحبًا، كان يجلس مع صحبه من الحرافيش القدامى، عادل كامل صديق عمره، والذي بدأ مسيرته الروائية معه في نفس المرحلة، وقدم إلى المكتبة العربية عملًا جميلًا «مليم الأكبر» ، مسرحية «جلفدان هانم»، ثم توقف عن الكتابة واتجه إلى عالم التجارة، أيضًا الفنان أحمد مظهر –رحمه الله– والمخرج توفيق صالح، الثلاثة من أعضاء جماعة الحرافيش القدامى.

يوم الخميس كان مخصصًا في الأصل للقاءين، الأول في مقهى عرابي بالعباسية مع أصدقاء الطفولة والشباب، في نهاية السبعينيات أغلق المقهى وتم تقسيمه إلى متاجر، وفي نفس الوقت كان معظم أفراد شلة العباسية قد توالى رحيلهم، ومن امتد به الأجل حتى الآن لم يعد يخرج من بيته لمرض أو شيخوخة. مع بداية الثمانينيات توقف الأستاذ عن الذهاب إلى مقهى عرابي بعد اختفاء المقهى نفسه. منذ أن سمح لي بالتردد على المقهى في منتصف الستينيات، كان يمضي فيه ساعتين بالضبط، من السادسة إلى الثامنة. وعندما يحين وقت انصرافه، يمضي سيرًا على الأقدام إلى كبابجي شهير قريب من ميدان الجيش، يكون الكيلو في انتظاره ملفوفًا، ومن حلواني قريب يأخذ كيلو البسبوسة، يستقل عربة أجرة إلى الهرم حيث منزل الكاتب الساخر محمد عفيفي –رحمه الله– ومقر لقاء الحرافيش لأكثر من ثلاثة عقود. الطريف أن الأستاذ توقف عن إحضار الحلوى بعد اكتشافه إصابته بالسكر في بداية الستينيات.

يوم الجمعة تنقل اللقاء بين أكثر من مكان، واستقر حتى السبعينيات في مقهى ريش، ثم انتقل إلى كازينو قصر النيل، السبت للأسرة، والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء للكتابة. في شهور الصيف كان الثلاثاء موعدًا خاصًّا للقائه في مقهى الفيشاوي، موعدًا لا يحضره إلا يوسف القعيد وكاتب هذه السطور. خلال الصيف يتوقف عن الكتابة، والسبب المعلن حساسية في العينين تبدأ مع الربيع. من الصيف

كان يقضي شهرًا في الإسكندرية، وهناك كان له ندوته، هو أيضًا المركز، يتحلق حوله أدباء الثغر، والمصطافون، يأتي من يأتي ، ويجيء من يجيء، لكن يظل هو فى الصدارة، في صدارة المقهى. توقف عن الذهاب إلى الإسكندرية منذ بداية التسعينيات، عندما ضمر البصر، وبعد إجراء العملية الجراحية في لندن.

حتى عام أربعة وتسعين، حتى يوم الجمعة هذا، كان الأستاذ يمضي طبقًا لنظامه المحفوظي الصارم الذي التزمه، لم يتغير، وإذا تغير موقع، أو مكان لقاء، فإنما يحدث ذلك لتغير في الظروف والواقع.

إلى أن حل ذلك اليوم الخطير، الذي وضع حدًّا لكل ما اعتاده الأستاذ، لسعيه بين الناس، لخروجه اليومي في الصباح الباكر، وسيره حتى مقهى في ميدان التحرير، مشيه الجميل الذي أتاح لي فرصة مصاحبته اليومية في الستينيات، عندما كنت أعمل في مؤسسة مقرها الدقي، وكنت ألتقيه فوق كوبري الجلاء وأمشي بصحبته حتى كوبري قصر النيل. عاش الأستاذ بين الناس، يسعى بينهم، ويبادلهم الحب ويبادلونه، وعندما شنت ضده الحملات الصحفية التي مهدت المناخ ليوم الجمعة هذا، وظهرت ضده كتب ألفها فقهاء الظلام ضد «أولاد حارتنا»، رفض الحراسة. وقتها قال لي إنه لا يتخيل نفسه ماشيًا في الشارع ومعه حارس، كان لديه إيمان عميق ويقين داخلي أن أذى لن يلحقه. مرة أومأ برأسه، قال لي: الأعمار بيد الله.

غير أنني كنت أتوجس خيفة، نتيجة تجاربي السابقة خلال الستينيات، والمطاردة، وتوقع الاعتقال، إذ إنني أنتمي إلى جيل فتح عينيه على الرعب، وانخرط في العمل السري ضد الأوضاع التي رآها كثيرون منا خاطئة، نتج عن ذلك إحساس أمني حاد. استقرت لقاءاتنا منذ بداية التسعينيات على الثلاثاء، وعندما أصبحت رئيسًا لتحرير أخبار الأدب، وأصبح لي سيارة خاصة من دار أخبار اليوم يقودها زميل من السائقين، توليت مهمة صحبته من البيت.

في السادسة إلا خمس دقائق أنتظر، في السادسة تمامًا يخرج من باب العمارة، أتقدم إليه، أصحبه حتى يصل إلى العربة، أفتح الباب، يفضل الجلوس في المقعد الأمامي إلى جوار السائق. ثم ننطلق إلى المكان الذي اعتدنا اللقاء فيه، والذي استقر خلال التسعينيات في مركب راسٍ على شاطئ النيل، اسمه «فرح بوت» وما زال.

رغم أنني غير مسلح، ولو أنني مسلح فلا أجيد استخدام السلاح، فقد كنت عند وصولي أمام البيت أمسح المكان ببصري، أتصور هجومًا ما، إن انتظامه الشديد يسهّل على من يرصده توقيت الهجوم. كنت أتوقع ذلك، أستشعره مع تصاعد أعمال العنف في المجتمع من الجماعات المتطرفة، والتي كانت في جوهرها حركات احتجاج على الفساد والخلل، لكنها ضلت طريقها عن أهدافها الحقيقية لأسباب يطول شرحها.

بعد نشر صورة الشاب الذي غرس السكين في عنق الأستاذ عصر يوم الجمعة هذا، تذكرته. في مرة كنت أنتظر الأستاذ، كان الجو حارًّا. لفت نظري شاب يرتدي الجينز، يجلس تحت الشرفة المغطاة حيث يعيش الأستاذ في الطابق الأرضي، شرفة بعرض الشقة، زجاجها سميك، مسور بقضبان مزخرفة، وأضافت السيدة عطية الله رفيقة عمر الأستاذ نباتات شكلت حديقة صغيرة مبهجة تغطي الطابق كله.

تطلعت إلى الشاب الذي بادلني النظر الحاد، ثم تشاغل بتقطيع ورق كان يحمله إلى قطع صغيرة، لم يُبْد رد فعل، بل استمر قابعًا مكانه، فكَّرت.. ربما يستظل من الحر، لكن صورته قفزت إلى ذهني بعد أسابيع عندما نُشرت، إنه نفس الشاب الذي تقدم من الأستاذ عصر تلك الجمعة ليصافحه بيد وليغرس بيده الأخرى سكينًا قديمًا، مقبضه مخلوع ومربوط بخيط دوبارة متين، طعنة وضعت حدًّا لحقبتين متمايزتين، مختلفتين تمامًا، الثانية منهما مستمرة حتى الآن.

* * *

أعود إلى أوراقي الخاصة التي دونت فيها وقائع تلك الأيام من سنة أربعة وتسعين، بالتحديد الجمعة، الخامس عشر من أكتوبر. في هذا اليوم كنت ألتمس الراحة عقب عودتي أمس الخميس من رحلة إلى المغرب، كنت أرتب مكتبي الذي تغيبت عنه وأستمع إلى بعض التسجيلات الموسيقية الأندلسية التي اقتنيتها من مدينة فاس العتيقة. رن جرس الهاتف، جاءني صوت الزميل والصديق مصطفى بكري: «هل علمت أنهم ضربوا نجيب محفوظ؟ أرجوك تأكد من هذه الأخبار...».

أجبت بالنفي. طلبت منه أن يتصل بي بعد قليل، فوجئت، جمدت للحظة، لحظة كنت أتوقعها وأتمنى ألا تحل، يبدو أنني في مواجهتها الآن، ثمة ثوان قبل أن تبلغ الضربة مراكز الألم في المخ. سيطر عليَّ هذا الحال بينما مثل أمامي الرجل الطيب، حضوره الأبوي، وصحبتي له، اتصلت بمنزله. أجابتني ابنته الصغرى، قلت بصوت محايد وكأنني لا أقصد أمرًا محددًا:

«خير.. ما الأخبار؟».

أجابتني بألم وخشية من المجهول:

«لا أعرف ما يجري الآن، بابا في غرفة العمليات، والنبي ادع له

يا عمو...».

ثم قالت:

«ماما وأختي عنده... هنا في مستشفى الشرطة جنبنا...».

نطقت جملًا قصيرة استهدفت منها بث الطمأنينة، دعوت له بالنجاة. بدأت أتصرف، اتصلت بزملائي في مركز تحرير جريدة أخبار اليوم، كنت أول من ينبئهم بالخبر، اتصلت بصديقي يوسف القعيد، كان في منزله، قال إن أحد أصدقائه اتصل به مستفسرًا، اتصلت بالصديق عماد العبودي المهندس ورجل الأعمال، كانت جلسة الثلاثاء محدودة وقتئذ، وكان عماد أحد أركانها، قال إنه سيمر على يوسف ويمران عليَّ ثم نتجه إلى المستشفى. نزلت إلى الطريق، كنت في مواجهة الليل والخوف مما يجري، ونشطت الذاكرة لتمطرني بدفق من اللحظات المولية، هذا حال أعرفه عندما يهددنا الواقع بفقد صديق، تبرق لحظات أعرفها، لحظات سمعت عنها..

انتظاري كل ثلاثاء أمام البيت، ما حدث اليوم والدكتور فتحي إلى جواره كان ممكنًا حدوثه معي. إصغائي إليه، اقترابي من أذنه اليسرى التي ما زالت حاسة السمع فيها ممكنة بمساعدة السماعة، رفعي الصوت، لحظات صمته، شرود نظراته،

سعيه في الطريق السادسة صباحًا بجوار النيل الذي أحبه، وأقام في عوامة بعد زواجه لمدة سنة، ثم سكن على مقربة منه، محفوظ النيل ونيل محفوظ، شراؤه الصحف، استقراره في مقهى ريش، مقهى جروبي، مقهى علي بابا، في هذه المقاهي قرأ الصحف، كتب برقيات العزاء أو التهاني، دوَّن بعض الملاحظات، أمسيات مقهى عرابي، رائحة التنباك المنبعثة من النرجيلة التي تعلمت تدخينها منه ثم توقفت عنها، ضحكاته المجلجلة مع صحبه أصدقاء الطفولة من شلة العباسية، سعينا في حواري الجمالية، احترامي لحظات صحبته بمقاهيها العتيقة عندما يستعيد زمنه الخاص. لا أتكلم إلا إذا تحدث هو، محبة الناس له، مشيه بينهم، يرد التحية لهذا، يصافح ذاك، لا يرد أي إنسان، صبر عجيب، تواضع جم، سماحة لم أعرف مثيلًا لها. لحظة تناوله الطعام كل ثلاثاء بصحبتنا، طعام الزهاد، قطعة جبن أبيض، شريحة طماطم، قرص طعمية، فقط لا غير.

ما لم أعرفه معه صباه في بيت القاضي، شجر ذقن الباشا، خناقات الفتوات، حب الحسين، لعبه في قبو قرمز، الثورة عام 1919، الثلاثينيات، العصر الذهبي للقاهرة، الحرب العالمية الثانية، المخابئ، انتهاء عصر الفتوات، الغداء في العجاتي، الدهان، الكباب والكفتة، السهر في توفابيان، مقهى زقاق المدق، وزارة الأوقاف، فترة العمل في قبة الغوري، الثورة.

نجيب محفوظ، إنه عصر بأكمله مختزل في إنسان، عاش المجتمع المصري وعبَّر عنه طيلة سبعين عامًا من الكتابة المتصلة، وهذه حالة فريدة في تاريخ الأدب والأدباء، كدت في ذلك اليوم القصي البعيد الآن وقد أدركت هول ما جرى وبدأت أستوعب، أن أولول وأصرخ باكيًا:

«يا أستاذي... يا حبيبي».

عندما وصلنا إلى المستشفى الذي يقع بجوار البيت، على بعد ثلاثين مترًا تقريبًا، وهذا من لطف التدبير الإلهي وعنايته، كان قد مضى على تسديد الطعنة حوالي ساعتين، دخلنا إلى قاعة الانتظار القريبة من غرفة العمليات. كان المرحوم ثروت أباظة ينهنه كطفل. راح يردد:

«نجيب.. نجيب.. معقول أن يؤذيه أحد.. أن يمسه أحد..»!

نرجوه الهدوء ونحن في حاجة إلى من يهدئنا، هناك في الطابق الثاني يرقد الأستاذ ممددًا فوق طاولة العمليات، فريق من الجراحين المهرة يقودهم أهم جراح أوعية دموية في مصر، الدكتور أحمد سامح همام. مرة أخرى أوقن بتدخل العناية الإلهية.

المرة الأولى، لأن المسئول عن صحبة الأستاذ اليوم هو الدكتورفتحي هاشم، وهو طبيب بيطري، لكنه طبيب أولًا وأخيرًا. عندما ركب الأستاذ السيارة واستقر إلى جواره، تقدم ذلك الشاب منه، صافحه، ثم دفع بمطواة قرن غزال في رقبة الأستاذ وبدأ محاولة الذبح، كان يستهدف قطع الشريان السباتي الرئيسي موصل الدم إلى الدماغ والمخ، كما قال لنا فيما بعد.

«بعد أن صافحني شعرت بوحش من نار يطبق على رقبتي..».

ما أنقذ نجيب محفوظ شيخوخته، انحناؤه إلى الأمام بسبب السن، مرت المطواة

بسبب ذلك قرب الشريان الرئيسي، في هذه اللحظة عندما بدأ اهتزاز العربة انتبه الدكتور فتحي هاشم إلى ما يجري. صرخ:

«بتعمل إيه يا مجنون؟!».

قفز من السيارة، هنا ألقى الشاب بالمطواة، وبدأ الجري، تعقبه فتحي، لكنه آثر العودة إلى الأستاذ المصاب، كان الدم يتدفق كنافورة بسرعة جلس مكانه، ضغط الجرح بيد، وبيد واحدة قاد العربة الصغيرة إلى الخلف قاصدًا المستشفى، قطع الأمتار القليلة الفاصلة، وعندما وصل إلى البوابة الرئيسية هرع إلى الباب صارخًا:

«افتحوا... الأستاذ نجيب محفوظ حاولوا...»

بسرعة فتح الباب، حتى هذه اللحظة كان الأستاذ واعيًا، أنزلوه إلى نقالة متحركة، قبل أن يغيب وعيه قال:

«خدوا بالكم أنا عندي سكر...»

الحق أن التصرف جرى على أرفع مستوى، بعد تقدير سريع للموقف، اتصلت إدارة المستشفى بالدكتور أحمد سامح همام، وهنا يتدخل القدر.. لم يكن المحمول معروفًا في مصر وقتئذ، جرى الاتصال في وقت كان فيه الجراح الشهير يقف أمام المصعد في الطابق الذي يسكنه متأهبًا للمغادرة إلى دعوة عشاء. لحقوا به قبل ركوب المصعد، لبى على الفور، لم يستغرق وصوله إلا مسافة الطريق، ودخل إلى غرفة العمليات على الفور، وصل اللواء حسن الألفي وزير الداخلية وقتئذ، والدكتور علي عبد الفتاح وزير الصحة وقتئذ، والدكتور ممدوح البلتاجي وزير السياحة وعدد من كبار المسئولين بمباحث أمن الدولة. ما زلت أذكر الأنباء التي كانت تصلنا من غرفة العمليات.

«تم إيقاف النزيف.. كان الدم يتدفق مثل النافورة...»

«تم نقل ثمانية لترات من الدم... أربعة عشر كيسًا»

أمام المستشفى جرى تجمع من مثقفين وناس عاديين توافدوا إليه بعد سريان الخبر، وتطوع كثيرون بدمهم لإنقاذ الأستاذ. بعد أربع ساعات جاءنا النبأ:

«نجحت العملية.. ويجري نقل الأستاذ إلى غرفة الرعاية المركزة..»

بعد منتصف الليل، مشينا في طرقات المستشفى الذي عرف الهدوء بعد الساعات العصيبة. كنا أربعة، يوسف القعيد وعماد العبودي وممدوح الليثي. قطعنا الممرات الطويلة، لم نكن نعرف وجهتها على وجه الدقة، أخيرًا وصلنا إلى غرفة الرعاية المركزة التي يرقد فيها أكثر من مريض. كان نائمًا على ظهره، لأول مرة في حياتي أراه بدون نظارة طبية، بدا منفعلًا، صوته به رعشة وحشرجة، كان يصافح باليسرى، استعدت ما قاله الدكتور سامح همام عن تأثر العصب الواصل إلى اليد اليمنى، قال إنه اطمأن عندما رأى الأستاذ يحرك أطرافه، لكن الأمر سيحتاج وقتًا.

أعود إلى أوراقي التي كتبتها في الأسبوع التالي فأجد ما نصه:

«اليوم صباح الأربعاء..

أفكر في يده اليمنى، في بطء حركتها. تلك اليد التي حفرت نهرًا للإبداع العربي، اليد

التي كتبت الثلاثية والحرافيش وأولاد حارتنا، أتأمل لون الجلد الغامق الذي لم أعرفه في اليد التي قبّلتها مرارًا، أفكر في رقاده، في أيامه بعد الشفاء، أثق أنه سيتكيف مع الظروف الجديدة، تمامًا كما تكيف مع ظروفه بعد أن ثقل السمع وكَلَّ البصر، مع علمي أنه لا يغير عاداته إلا بصعوبة شديدة.. أحلم الآن بتلك اللحظات التي أتعجلها، عندما أصحبه كعادتنا ونجوس خلال حواري القاهرة القديمة، نسعى خلال الزمن العتيق...».

لحظات عودته إلى الكتابة حلت بعد أربع سنوات من العلاج الطبيعي اليومي، عندما مال عليّ ليُسِرّ إليّ قائلًا:

«اليوم تمكنت من الكتابة بدون أن أنزل عن السطر..»

خلال تلك السنوات الأربع التالية للحادث، رتب أوضاعه، ونتيجة إرادة داخلية قوية تكيف مع الظروف الجديدة. ليس نتيجة الحادث فقط، ولكن نتيجة التقدم في العمر والوهن. لقد نالت الشيخوخة من بصره فلم يعد يستطيع القراءة، عرضنا عليه المساعدة، لكنه لم يحمّلنا من أمرنا نصبًا. رتب مع رجل طيب مجيئه اليومي إليه في الصباح ليقرأ له لمدة ساعة أهم الأخبار في صحف الصباح، القومية والمعارضة، أما المقالات والنصوص الأدبية المهمة فيقرؤها عليه الأصدقاء في جلساتنا الليلية والتي أصبح لها ترتيب خاص. بالنسبة لي اعتدت أن أقرأ له الشعر القديم والذي يحبه واعتاد أن يفتتح به القعدة «عشان تحلوّ»، أي قبل أن يكتب أو يقرأ. أقرأ له بصوت مرتفع ما أعجبني من شعر القدماء، وأفاجأ أحيانًا به يكمل الأبيات من ذاكرته، وقد دونت كافة القصائد التي اتضح لي أنه يحفظها واعتبرتها بمثابة مختاراته.

أحيانًا أقرأ عليه مقطوعات من النثر، ويلفت نظري ملامحه أثناء تركيزه للإصغاء، وقد يعلق في نهاية النص برأي ثاقب. إذا كان الزمن قد نال من حاستي السمع والبصر فإنه لم ينل من الذهن الذي ما زال حادًّا، نافذًا، أما الذاكرة فمدهشة.

أحيانًا يثير أحدنا موضوعًا ما، ويطلب رأيه، فيجيب بكلمة أو كلمتين عابرتين، على سبيل المثال، سألته عن رأيه في أحداث سبتمبر بعد عام تقريبًا من وقوعها، فقال لي في البداية:

«وهل يحتاج الأمر إلى رأي؟»؟

ولما كررت عليه السؤال، قال:

«إنت شايف...».

سكتّ. انتقلنا إلى موضوعات أخرى، وإذا به بعد حوالي نصف ساعة يميل إلى الأمام. يشير بأصبعه، هنا نصغي كلنا، ندرك أنه سينطق ما يهمنا، ما يعبر عن رأيه، يقول:

«شوف، بالنسبة لسبتمبر، أظن أنه لم يقع حادث أضرَّ بعلاقات الشرق والغرب مثل هذا الحادث، الذين ارتكبوه أساءوا إلى الإسلام أبلغ إساءة، وسبقه سلوكيات الطالبان التي أساءت أيضًا للإسلام وصورته، إننا بحاجة إلى جهد كبير لنعود إلى الوضع السابق على سبتمبر..».

يصمت قليلًا ثم يقول:

«لا أظن أن الوضع سيعود كما كان.. ما زلنا في بداية مرحلة لم تتحدد معالمها ولا ندري نهاياتها..»

أحيانًا تثار مناقشات حول موضوعات أدبية، أو سياسات داخلية أو خارجية. يكفي أن يصغي ويستوعب لينطق بالحكمة، ما زالت قدرته على توليد النكتة في ذروتها، وأسبوعيًّا يجعلنا نضحك من الأعماق بعد قفشة مفاجئة، مباغتة لا نتوقعها، والقفشة فن مصري دقيق ينتمي إلى زمن جميل عندما كانت المشاكل العامة أخف وطأة، وكانت الأوقات الجميلة تمضي مع الصحبة المقربة والدنيا صافية. نجيب محفوظ من أمهر ملوك القافية والقفشة، وكلا الفنين يعتمد على سرعة البديهة والقدرة الحادة على السخرية.

بعد أن تسلم الشيك المليوني من إبراهيم المعلم، سكت قليلًا ثم قال:

«تعرف أنا بافكر في إيه دلوقتي؟»

تطلعنا صامتين، قال:

«بافكر أهرب..»

وانفجرنا بالطبع ضاحكين. كانت أخبار الذين اقترضوا الملايين – وبعضهم المليارات– تنشر يوميًّا في الصحف، هربوا بأموال المودعين، أموال الغير، ودعابة محفوظ كم بدت نافذة، موحية، موجعة!

في مرة أخرى كنا نتحدث عن راقصة شهيرة بمناسبة تصريحها أنها تنوي التقاعد، بعد لحظة صمت قال:

«ابقى طلعها في الذخائر..»

الذخائر سلسلة أشرفتُ عليها وكانت تصدر عن هيئة قصور الثقافة، قدمت فيها نصوصًا هامة من التراث العربي.

تتميز النكتة المحفوظية بالذكاء، والثقابة، الدقة وشحنة السخرية العالية، مجرد استعادة هيئته لحظة إلقائه النكتة أو توليدها أو نطقه القفشة يجعلني أبتسم، إن متابعة ملامحه أثناء الجلوس معه تمنحنا خريطة دقيقة واضحة للعواطف الإنسانية، دائمًا كنت أحترم صمته، قبل الحادث والتقدم في السن، كان يجلس مفرود القامة، متطلعًا إلى فوق، على وجهه ذلك التعبير الذي يستدعي الوصف المصري المتلخص في كلمة واحدة بالغة الدلالة، عندما نقول عن إنسان إنه «طيب» يبدو سمحًا، رقراقًا، ذاهبًا إلى بعيد وهو قريب، الآن مع التقدم في العمر، ضمر الجسد، انحنى قليلًا، يطول صمته مستغرقًا في ذاته. خلال جلستنا معه أحرص على ألا ندخل في أحاديث جانبية. عندما يشعر أن الذين معه انصرفوا عنه، ولا يستطيع الإصغاء إليهم، يتداخل في نفسه، يمضي إلى أزمنته الخاصة، عندئذ أبادر بسؤال، برواية خبر أو نادرة. الآن، يصغى الأستاذ معظم الأوقات، إما أنه يصغى إلى محدثه، أو إلى داخله. ذروة تدفقه عندما يروي ذكرياته عن المدينة، عن الحياة الأدبية، عن الأزمنة المنقضية.

أحاول أن أتذكر ملامحه غاضبة فلا أستطيع، ينفعل عندما يعرب عن رأي يعلنه

أول مرة أو يتصور أنه مفاجئ لنا، خلافي، لعل تلك اللحظة من صيف عام سبعة وستين تجسد ما أقول، عندما بدأنا نلتقي في الفيشاوي، وكان المقهى القديم قائمًا في تلك الأيام، وكانت هزيمة يونيو المروعة ساخنة ما تزال. مال قليلًا إلى الأمام وقال معربًا عن رأيه: إذا كان ليس في استطاعتنا مواجهة إسرائيل عسكريًّا، فالصلح ضروري.

بالطبع تجادلنا. وظل ذلك موضع حواراتنا لسنوات تالية، وعندما أيد الصلح مع إسرائيل في السبعينيات، كان يعبّر عن موقفه الحقيقي. في العدد الخاص الذي أصدره عنه الأستاذ رجاء النقاش عام سبعين من القرن الماضي، قال الأستاذ إنه عندما يجلس للكتابة فإنه لا يعبأ بشيء، وفيما يتعلق بآرائه المبدئية فإنه لم يظهر خلاف ما يبطن وليس لديه حسابات صغيرة، كثيرًا ما اختلفت معه وأثبتت لي الأيام أنه كان أبعد نظرًا، ربما لا يجنح إلى الإثارة في تصريحاته الصحفية، متزن في مواقفه التي تتعلق بصلته بالسلطة، سياسية كانت أو حكومية، ربما يتحفظ، لكنه لا يعلن خلاف ما يبطن، وإذا جلس للإبداع فإنه لا يلبي إلا صوته ونداء ضميره.

* * *

بعد الحادث عرضت عليه وعرض عليه المحبون تخصيص ساعة أو ساعتين يوميًّا لكي يملي علينا ما يرغب في كتابته، لكنه شكرنا معتذرًا برقة، فالكتابة بالنسبة له أداء خاص جدًّا، يبقيه سرًّا باستمرار، فكيف يمكن لإنسان مهما كانت درجة القرب منه أن يشاركه أشد لحظات حياته خصوصية؟! أربع سنوات استغرقها العلاج الطبيعي حتى لحظة إفضائه لي بقدرته على الالتزام بالسطر دون أن ينزل عنه. أي أن نجيب محفوظ تعلم الكتابة في حياته مرتين: الأولى في طفولته، والثانية في العقد التاسع.. وتلك الأشق والأصعب، لكم نظرت إلى يده، إلى ما تخطه من حروف كبيرة مضطربة لحظة توقيعه على نسخة من مؤلفاته.. هذه اليد التي كتبت رواياته وقصصه القصيرة وأضافت إلى الأدب العربي والإنساني، تلك اليد التي أصابتها الكراهية والتعصب والجهل. بعد محاولة اغتياله رأيت الشاب الذي لمحته يومًا تحت النافذة. سألوه عبر التليفزيون عما إذا كان نادمًا على محاولته قتل نجيب محفوظ، فقال إنه غير نادم، وإنه لو سنحت له الفرصة سيقوم بذلك، وعندما سأله المذيع عما إذا كان قرأ شيئًا له، قال إنه لم يقرأ له حرفًا، لكن أميره أصدر فتوى بتكفير محفوظ، الحقيقة أن التكفير بدأ منذ ذلك التقرير الذي كتبه ثلاثة من المشايخ الكبار إلى الرئاسة في مستهل الستينيات، ومنذ ذلك الحين صارت «أولاد حارتنا» ممنوعة في مصر، محرمة.. حتى وصل الأمر إلى ما وصل إليه يوم الجمعة الخامس عشر من أكتوبر عام أربعة وتسعين.

عندما بدأ يتقن الالتزام بالسطور، الكتابة، كانت أعصاب البصر قد وهنت، إذن.. كيف يستجيب الأستاذ للظروف الجديدة؟

بدأت سلسلة الأحلام في الظهور على صفحات «نصف الدنيا»،نصوص شديدة التركيز، تمسك بناحيتي النثر والشعر، إنه يكتبها أولًا بدون مداد، في ذهنه، ثم يكتبها على الورق مغمض العينين، لا يمكنه القراءة، لكنه بإرادة قوية وصرامة يجسد ما في

ذهنه على الورق كتابة محفوظية، أعُدُّها الأجمل، الخلاصة، مرحلة بدأت منذ أصداء السيرة الذاتية، وبلغت الذرى في أحلام فترة النقاهة، إنها نصوص من الشعر الذي يرتقي إلى مستوى الحكمة. تتداعى عندي أصداء من الإبداع الإنساني الشبيه بأشعار حافظ وحكايات سعدي الشيرازي، ونصوص الأمثال والحكمة، إنه القدرة على النفاذ إلى جوهر التجربة الإنسانية وجوهر الوجود.

* * *

منذ خروجنا أول مرة بعد تماثله للشفاء من الحادث في ديسمبر، كان الشتاء مكتملًا. قصدنا هضبة الأهرام: يوسف القعيد، زكي سالم، والدكتور يحيى الرخاوي الذي أشرف على تنظيم أيام الأسبوع والمرحلة الأخيرة من علاجه، ثم أصبح حرفوشًا أساسيًّا في حلقات الحرافيش. تناولنا الغداء يومئذ في فندق مينا هاوس، وكان الأستاذ تحت حراسة الشرطة، وضع جديد سوف نعتاده، بل سيصبح أفراد قوة الحراسة أصدقاء لنا، وكأنهم أسرة جديدة للأستاذ ولنا. وضع لم يَسْعَ إليه. وضع أنهى أيام السعي في شوارع المدينة التي عاشها ومنح بعض مناطقها الخلود. طوال عمره كان ضد المظاهر، البساطة بينها، لكن للضرورة أحكامها. انتهى زمن التجوال في دروب القاهرة القديمة وحواريها. كثيرًا ما رأيته خلال الستينيات والسبعينيات يجول في موطنه الأول، حواري وشوارع الجمالية، كنت أحرص ألا أزعجه حتى لا أقطع تأملاته واستعادته المكان.

استأنفنا لقاءاتنا الثلاثية في مركب راس على النيل، النيل الذي عشقه وأحبه وحرص على أن يكون قريبًا منه، حتى وإن لم يره بالبصر، فإنما يراه بالبصيرة.

* * *

خلال لقاءاتنا عبر السنوات الأخيرة، بدأت أنتبه إلى نفاسة ما يبديه الأستاذ من آراء. حرصت بعد عودتي إلى البيت أن أدوّن ما قيل، إما بنصه كما أتذكره، أو خلاصته، وأقدم لقراء العرب نصوص ما أطلقت عليه «المجالس المحفوظية». كما يضم القسم الثاني من الكتاب نص المجالس التي جرت في عام ثمانية وسبعين من القرن الماضي كل يوم اثنين على امتداد أربعة شهور صيفية، وقد صدرت من قبل في كتاب «نجيب محفوظ يتذكر». أما القسم الثالث فيضم نصوصًا تابعت خلالها محفوظًا في القاهرة القديمة، ومجالس خاصة بأحداث معينة. والأقسام الثلاثة ترصد وتسجل معالم هذه الرفقة الممتدة على مدى أكثر من أربعة وأربعين عامًا مع أديبنا الكبير، لعلها تلقي أضواء على عالمه وآرائه وأفكاره.

ولا يسعني إلا أن أذكر بالامتنان أصدقاء الثلاثاء وأركان المجلس الثابتين، وكلٌّ منهم له تعلق بالأستاذ ومحبة خالصة: أخي يوسف القعيد، والمهندس عماد العبودي، والدكتور زكي سالم، والروائي نعيم صبري، والمهندس حسن ناصر، والمحامي مجدي سعد، والأستاذ ياسين التهامي، يحيط كلٌّ منهم الأستاذ بمحبته، فلهم الشكر والمنة. ومن قلوبنا ندعو لنجيب محفوظ بطول العمر وموفور الصحة والسعادة بقدر ما أسعدنا جميعًا.

نوفمبر 2004

الجـزء الأول

خلال المجالس التي امتدت من مقهى الأوبرا عام ستين من القرن الماضي حتى مثول هذا الكتاب للطبع (2004)، جرت هذه المحاورات التي اعتدت تدوين خلاصتها.. خاصة في السنوات الأخيرة.

مقهى الأوبرا- 1960

المقهى من ثلاثة طوابق، الأول يطل مباشرة على الميدان الجميل، يتصدره مبنى الأوبرا الخشبي القديم، الأنيق، كان مركزًا للمكان. أحد مصادر الخصوصية في وسط المدينة، أوروبيّ التخطيط والعمارة. كان الطابق الأول مقهى متميزًا بأناقته، يجلس فيه الرجال والنساء، ويقدم النرجيلة، التنباك العجمي الأصيل، ولدهشتي كنت أتطلع إلى نساء تجاوزن منتصف العمر يدخنّ النرجيلة، لم يكن تدخين النساء مألوفًا في الأماكن العامة.

الطابق الثاني يتم الصعود إليه من مدخل جانبي، سلم ضيق حلزوني، يفضي إلى صالة مستطيلة، مقهى أوروبيّ الطابع، لا نرجيلة فيه، فقط مشاريب ساخنة وباردة. هنا كانت تعقد الندوة الأسبوعية التي بدأها نجيب محفوظ عام خمسة وأربعين، أي السنة التي ولدتُ بها، وعبر الندوة مرت أجيال كاملة، وفيها اهتدى أدباء الستينيات بعضهم إلى بعض.. أي أن هذا اللقاء الأسبوعي اختصر أزمنة طويلة كان من الممكن أن تنقضي بدون أن ألتقي فيها بمحمد البساطي، يوسف القعيد، إبراهيم أصلان، صبري حافظ، جلال السيد «رحمه الله» وغيرهم.

في الطابق الثالث ملهى ليلي، كانت تديره الفنانة صفية حلمي. كان الطابق الثالث يعمل بعد العاشرة مساء، وكان المبنى كله ينسب إلى صفية حلمي، إحدى الفنانات المشهورات من اللواتي عملن في فرقة بديعة مصابني.

في هذا المقهى أصغيت إلى حوارات الحاضرين الذين كانوا ينتظمون حول نجيب محفوظ، ولو قدر لهذه الحوارات أن تدون لحفظ التاريخ سجلًا رفيع المستوى لمناقشات المثقفين، كانت الندوة تبدأ في العاشرة، وتنتهي في الواحدة والنصف، أتاح الأستاذ بانضباطه المعروف عنه استمرارية للندوة في مواعيد محددة. دائمًا هو المركز والكل منتظم حوله، حتى حين يتجه الحديث بعيداً عنه ويتحاور الجالسون مباشرة بعضهم مع بعض، يظل هو المركز والجميع في المدار.

ذات صباح وصلنا مبكرين، فوجئت أنني بمفردي في مواجهة الأستاذ وجهًا لوجه، جلست صامتًا، وكان يتطلع إليّ بملامح مترقرقة. إن وجهه يتطابق تمامًا مع هذه الكلمة المصرية ذات المستويات المتعددة «طيب».

فجأة سألني: «جمال.. لماذا تكتب؟».

بوغتُّ بالسؤال، غير أنني أجبت مباشرة:

«أكتب لأنني أريد أن أكتب...».

هز رأسه. وعندما أستعيد هذا الحوار القصير، يفتتح حواراتنا التي ستتصل طوال السنوات التالية. عندما أستعيد نبرات صوته أكاد أوقن أنه كان يسأل نفسه عن سبب الكتابة، لماذ يكتب الكاتب؟ فيما تلا ذلك من سنوات قال لي مرة إن الكتابة مثل الغريزة، مثل الجنس، الرغبة في الحياة، الأكل، الجوع، الامتلاء.

لعل ما قاله إجابة عن سؤاله لي ذلك الصباح البعيد من ستينيات القرن الماضي.

أغسطس- 1967

مقهى الفيشاوي

وقائع يونيو تخيم علينا، وعلى نفوسنا، وأحوالنا. كان على غير عادته قد أبدى رغبة في لقائنا بمقهى الفيشاوي، وهكذا سنحت فرصة إضافية للقاء خاص به، يقصده عدد محدود جدًّا من الأصدقاء.

كنا ثلاثة، يوسف القعيد والمرحوم إسماعيل العادلي.

تحدثنا فيما جرى، وفيما يمكن أن يجري، فجأة قال:

«شوفوا يا جماعة».

تطلعنا إليه..

«حاقول لكم رأيي وأنا عارف إنه ممكن يزعجكم».

ازداد إصغاؤنا. قال:

«إذا كنا مش قادرين نهزم إسرائيل عسكريًّا، يبقى نحاول ندوّر على وسيلة للصلح...».

وتطلعنا إليه ذاهلين.

كان ذلك في أغسطس عام سبعة وستين.

مقهى ريش- نوفمبر 1980

كنت حزينًا، كمدًا، الجرح ما زال طريًّا ساخنًا ينزف، بدأ بعد رحيل والدي بغتة وأنا بعيد. قلت له إنني لم أستوعب بعدُ رحيل أبي المباغت، إنني لن أراه مرة أخرى أبدًا، لن ألقاه مرة أخرى.

قال: من يدرينا يا جمال؟ كما أن المادة تتحول إلى أشكال أخرى ربما يتبقى الوعي بشكل ما.. من أين لنا أن نقطع باستحالة اللقاء؟

مقهى الفيشاوي

ذات صباح من شتاء 1988

أصغي إليه يتحدث عن ذكرياته القاهرية ومنها أدرك معالمها القديمة كيف كانت، وأعرف كيف أصبحت.

قال: كانت توجد سينما اسمها «جوسيه» مكان بنزايون القائم الآن في شارع عماد الدين، سمعت فيها أم كلثوم، كانت تقيم حفلاتها في قاعة السينما، وكانت قادرة على إسماع قاعة بها ثلاثة آلاف بدون ميكروفون.

قال بعد لحيظات صمت: كنت أسمع أم كلثوم على الطبيعة،وأسمع نفس الأغنية على الأسطوانة، فأجد فارقًا كبيرًا، طبعًا الواقع أروع بكثير.

مقهى الفيشاوي

الأربعاء- ذات صباح شتوي- 1989

قال: كان علي الغاربي من الفتوات المشهورين، وكان قوادًا مشهورًا، ومن أشهر شواذ القاهرة في نفس الوقت. وعندما أمسك به البوليس وقعت فضائح كثيرة، وكان ذلك من الحوادث الجليلة في القاهرة.

مقهى علي بابا

ذات صباح ربيعي- 1989

سألته: أيهما أفضل إلى قلبك، الحرافيش أم حديث الصباح والمساء؟

قال: أظن الحرافيش، أحيانًا يتأثر الإنسان برأي الآخرين..

سألته: ماذا عن الروايات التي لم تنشر.

قال: ثلاثة، رواية بطلها لاعب كرة قدم، كتبتها في الأربعينيات، مزقتها. رواية عن الريف، لم أنشرها ولا أدري مقرها الآن لأنني لا أحتفظ بمسودات. رواية أخرى اجتماعية، ربما تكون مسودتها عند المخرج خيري بشارة..

فرح بوت-

أحد أيام صيف 1991

قال: كانت المرأة إذا ضاق بها الحال وبدأت طريق الانحراف، تذهب إلى البوليس لتسجل اسمها، وتقول للضابط: أنا عاوزه أمشي في الوعد!

هكذا تحصل على تصريح بممارسة الدعارة. مرة مال القاضي الإنجليزي على عضو الميمنة، سأله: فين الوعد ده يا حبيبي؟

فرح بوت-

الثلاثاء- 27 أكتوبر 1992

اليوم عيد ميلاد الفنان توفيق صالح الحرفوش القديم. محفوظ يستدعي ذكرياته عن السينما:

قال: أول سينما عرفتها كانت في فندق الكلوب المصري القريب من مسجد سيدنا الحسين، كانت فتحًا بالنسبة لنا، نطل منه على عالم خيالي عجيب. الأفلام كلها أجنبية، كانت الترجمة على شاشة مستطيلة مجاورة، إذا لم تضبط مع المنظر نصيح: اعدل.. اعدل. فيقوم الرجل المسئول عن تشغيل السينما بضبط الترجمة مع المنظر. أما الموسيقى فكانت حية، حيث يعزف لاعب ماهر على البيانو مجاور للشاشة. أحيانًا كنا نذهب مجموعة فنوقظ صاحب السينما ليشغّل لنا الفيلم.

قال: عرفت سينما أوليمبيا بشارع عبد العزيز، كان فيه أيضًا سينما إيديال وسينما رويال، في نفس الشارع. كانت سينما أوليمبيا تطبع مجلة «أخبار النجوم»، وكانت ماري بيكفورد هي نجمتي المفضلة، قرأت أنها تزوجت دوجلاس فيربانكس. في

شارع الجيش كانت هناك سينما رمسيس، وسينما مصر، وسينما هوليود، وسينما سهير قرب العباسية، وسينما البلفدير، وسينما بلازا في الظاهر، وسينما الفتح في الجمالية، وسينما مدسيه للأفلام الفرنساوي في عماد الدين..

يسأل: كم بقي من هذه الدور الآن؟

أقول: فقط سينما أوليمبيا، وسينما هوليود..

[بمناسبة عيد ميلاد توفيق صالح خرقنا العادة، لم نتناول العشاء في «فرح بوت»، وهذه مرة نادرة، بل.. وحيدة، مضينا إلى مطعم خريستو في نهاية شارع الهرم، متخصص في السمك، وكان محفوظ يصحب الأسرة كل يوم جمعة..].

قال: لم أحب السمك إلا في سن متقدمة. ذهبت إلى رأس البر، دعاني أحد أصدقائي إلى أكلة سمك، سألني عما أحب، قلت: البلطي، القراميط، الثعابين. ضحكوا جميعًا، قال صاحبي: السمك اللي أنت بتحبه ده، بنأكِّله للسمك بتاعنا..

سألته ضاحكًا: وماذا عن الأرانب؟

قال: كنت أخاف من أكلها لأنني رأيت والدتي يومًا تسلخها بعد ذبحها!!

فرح بوت– أكتوبر 1992

نكت الزلزال

رُويت هذه النكت في أمسية الثلاثاء:

مسكوا اللي عمل الزلزال واعترف بالفعل.

عندما يزفون العروس الآن يقولون: اتمختري يا حلوة يا زينة..

قالوا البلد بترقص. قلنا نلم النقوط..

كافيتريا الشيراتون

صيف 1995

لأول مرة نجيء إلى المكان. المكان معد للقاء العشاق ورجال الأعمال، كلهم يتحدثون بصوت هادئ، أما نحن فلابد أن نتحدث بصوت مرتفع، وهذا مستحيل هنا. جلسنا متململين. أمامنا يجلس رجل عربي، يرتدي حُلَّة، له لحية مدببة، بدأ يتداخل معنا في الحديث، وكان يشرب البيرة المثلجة.. بدأ بالانتخابات الأمريكية.

«مليح واللهِ بوش..»

ثم بدأ يتباكى على الإسلام وهوانه على أهله، قال إن الإسلام بدأ غريبًا وسوف يعود غريبًا..

«أي والله..».

كان ينطق جملة، يتبعها بحسوة من البيرة. لم تَطُلْ جلستنا، قمنا..

فرح بوت

خريف 1992

قال: قرأت الرواية الضد، كنت أخرج من بعضها كما دخلت، الأمر مختلف بالنسبة

لمارجريت دورا، عندها وجدت القصة والحكاية والإنسان.

تحدث يوسف القعيد عن ترتيب الكُتاب في فرنسا طبقًا لاستطلاعات الرأي، وكانت دورا الأولى، وبن جلون الثامن والعشرين.

قال: إنه الإعلام، يمكن أن يساعد في انتشار كاتب إلى وقت معين إذا لم تكن له قيمة حقيقية. الإعلام لا يضيف أي قيمة حقيقية، خذ مثلًا رواية يوليسيس، كيف يهز كل مؤلف أو قارئ رأسه تقديرًا، لكن يظل من قرءوها بالفعل عددًا محدودًا..

11نوفمبر 1992

فرح بوت

سيطر الزلزال الذي وقع في الواحدة ظهرًا على الجلسة. بالنسبة لي كان الشعور المسيطر عليّ كئيبًا، هكذا أواجه الأحداث الكونية. لم تنجح نكتة أو أثنتان في تبديد حزني الغامض الدفين.

لا أدري لماذا سألته عن البدايات، ربما لأنني طالعت أمس الأول قصة نشرت له في مجلة الرسالة عام 1937.

قال: تعاملي مع الرسالة كان قليلًا. كنت أذهب إلى مقرها في عابدين، كنت أرى كبار الأدباء المتعاملين مع أحمد حسن الزيات، لكنني لم أقم أي علاقة معهم، رأيت الشيخ محمود شاكر، كان عصبيًّا جدًّا، وكان صوته مرتفعًا، حتى هيئ لي أن الملك سوف يسمعه فى قصر عابدين المجاور، غير أنني أقمت علاقات مع أبناء جيلي، السباعي الذي كان ينشر في مجلة «مسامرات الجيب»، وإحسان عبد القدوس وعلي أدهم. أول جنيه أخذته من مجلة الثقافة سهر به أصحابي فى العباسية، أكلنا كبابًا وكفتة، المعلم كرشو راح يصفق فرحًا ويقول: «والله الأدب بيجيب فلوس يا ولاد..». ذهبت إلى الثقافة بقصة أخرى عنوانها «في أثناء الغارة» عن أم عادت إلى البيت فوجدت جثة ابنها بدون رأس، الرقابة انتبهت، أنذروا المجلة: كيف تسمحون بنشر قصص بهذا الشكل، قصص تثير رعب الناس!

عندما ذهبت لأقبض الجنيه الثاني، فوجئت بسكرتير تحرير المجلة يقابلني بجفاء شديد، يسألني مستنكرًا:

«إيه اللي انت عملته ده؟».

بدا لي واضحًا مدى ما تعرض له، سِبت الجنيه ولم أعد إلى الثقافة مرة أخرى.

قال: نشرت كثيرًا في «الرواية»، لم أتقاضَ أجرًا، كانت الرسالة تنشر بلا مقابل للأدباء الجدد، كان الزيات يقول إن مجلة الرسالة جابت له مطبعة وعزبة، كان يقول ذلك ببساطة بعكس الناشرين الآخرين الذين يدعون الفقر.

قال: عندما شكل عبد الحميد السحار دار النشر «لجنة النشر للجامعيين» اختار ثلاثين قصة فقط في مجموعة «همس الجنون»، أما قصصي الأخرى فلم تصدر في كتب، لا تزال في مجلات. طلب السحار مني أن أدعو جميع الأدباء الذين كانوا يتقدمون معي إلى الجوائز، هكذا نشر باكثير وغيره. بالنسبة لمذكرات سعيد جودة السحار فغير دقيقة، لقد نسي حتى دور شقيقه عبد الحميد السحار، أما روايته عن

نشر الثلاثية فغير صحيحة..

يبدو أن الحديث عن قصة «في الغارة» أدى بنا إلى الحديث عن غارات الحرب العالمية الثانية.

قال: كنا نذهب إلى المخبأ، كل مجموعة من العائلات لها مخبأ معين، مع الوقت تحول إلى ما يشبه المقهى، نتحدث، نضحك، نتحاور في كل شيء، وخلال فترات سكوت المدافع نخرج لنشم الهواء، عرفنا أصوات المدافع المضادة، لكن بعد دخول الطليان الحرب سمعنا أول مرة صوت انفجارات لم نكن اعتدنا عليها، قلنا: «لا.. دي الحكاية بقت جد..»، استلمونا، كل ليلة غارة، مرة كنا في مقهى قشتمر، كنا بنلعب «مونوبولي»، لعبة كان فيها مدن ومحطات، والفائز يحتكر هذا كله، أحد أصحابنا علمها لنا وشبطنا فيها، خلّصنا اللعب وروّحنا، بعد نصف ساعة فقط سقطت قنبلة خرمت السقف ونزلت مكان جلوسنا، كان سكوت الراديو علامة على قدوم الخطر، كنا نأخذ اللعبة معنا ونكمل في المخبأ..

قال: كان مقهى قشتمر لابن الموسيقار داود حسني، أخوه راح إسرائيل وأصبح مذيعًا، سمعت عن إسلام صاحب المقهى.. لكنني غير متأكد..

الثلاثاء- 17 نوفمبر 1992 [1]

مجلس العام الثالث والتسعين (9 ديسمبر 2003)

لم أعرف الحكمة مجسدة إلا من خلال نجيب محفوظ. خلال السنوات الأخيرة، يهل علينا في موعده ، السادسة تمامًا، يتبعه حارسه الخاص، هو الذي أمضى عمره كله ساعيًا في الشوارع والأسواق، والمقاهي، غير أن الأمر تبدل منذ عام أربعة وتسعين من القرن الماضي بعد حادث الاعتداء البشع، غير أن هذا الحادث كشف لنا عن نجيب محفوظ. كنا رغم الرفقة نستشعر وجوده وندرك معناه، لكننا رأيناه منذ ذلك الحين مجسدًا. يمكن تلخيص جوهره في كلمتين «الإرادة المحفوظية». لم أعرف إرادة قوية مثله، تتحدى الألم والمرض والعجز وضعف الحواس، هذا التحدي هدفه استمرار الكتابة التي تعني بالنسبة له الحياة ذاتها.

مع دنوه من بداية العام الثالث والتسعين كنت راغبًا في محاورته، رغم أننا في حوار دائم، ولكنني أعني طرح أسئلة محددة لأطلع القراء على ما يفكر فيه، على رؤاه للعالم من هذا الموقع الزمني والمكاني. خلال السنوات الأخيرة أحرص على خصوصية العلاقة، أن أنأى بها بعيدًا عن أي مظهر إعلامي، خاصة.

عندما يتمكن من الإصغاء إلى السؤال فإنه يجيب بوسيلتين، إما بسرعة خاطفة، أو ينتظر قليلًا، مدة قد تطول أو تقصر، وأحيانًا نتصور أنه لا يريد الإجابة، غير أنه يفاجئنا بعد مدة، وفي كلتا الحالتين ينطق بالحكمة، وأحيانًا نتصور أنه قال كل ما عنده، غير أنه بعد فترة يعود إلى ما سألناه عنه، فنعرف على الفور أن ذهنه كان مشغولًا بما سألناه عنه.

في البداية استفسرت منه عن جملة قالها خلال الأسابيع الماضية تعليقًا على بعض الأحداث الثقافية، قال إن السياسة غالبة في تناول الأدب.

قال إنه يلاحظ غلبة الأحكام المنطلقة من الرؤية السياسية على الأدب، وليس من خلال رؤية أدبية، ثم قال: ربما يكون رأيي هذا غير مطلق، ولكنني أفكر في رفض صنع الله لجائزة الرواية، لقد كان موقفًا سياسيًّا، وكان انفعال الناس بالموقف من منطلق سياسي أيضًا، لكن لم يتوقف أحد ليتناوله كأديب.

أسأله عن رأيه في موقف صنع الله إبراهيم.

يقول إنه أعجب بالموقف في حد ذاته. أن يقدم أديب على رفض مائة ألف جنيه انطلاقًا من رؤيته، فهذه قيمة تستحق التقدير وقدوة، أما البيان الذي ألقاه وبرر به أسباب الرفض فيمكن أن نتفق أو نختلف معه كلٌّ حسب رؤيته، بالنسبة لي فإنني أقدر الرفض من أجل موقف.

أستفسر منه عن أحوال الحياة الأدبية بالنسبة لما يصله منها.

يقول: لا تنس أنك تتحدث إلى إنسان معزول، لا أستطيع متابعة ما يصدر.

أجادله: هل أنت بمفردك المعزول؟

يستفسرعما أقصده.

أقول إن أعمالًا أدبية كثيرة، بعضها جيد، تصدر ويلفها صمت كثيف، ومنها ما يسقط في النسيان لعدم وجود حركة نقدية. كيف ترى الحركة الأدبية عبر سبعة عقود تمارس فيها الكتابة بدون انقطاع؟

يقول: لا شك أن التوازن بين الإبداع الأدبي والنقد أثمر حركة نشطة وصحية شهدت أجيالًا متتالية، لكنني أتفق معك في أن غياب النقد الأدبي لأسباب كثيرة كان له تأثير أدبي، أعتقد أن جيلنا كان أكثر حظًّا. وجيلكم أنتم محظوظ أيضًا، لكن ما أفكر فيه هو الكتاب الجدد الذين يعانون الإهمال النقدي والإعلامي.

سألته: كيف ترى رحلتك مع الأدب الآن، أمد الله في عمرك؟

قال: كانت شاقة جدًّا ومثمرة. وتلقيت جزائي...

سألته: أي نوع من الجزاء، بالسلب أم الإيجاب؟

قال على الفور: بالإيجاب طبعًا.

سألت: هل تعتقد أن الوظيفة عطلتك أم أفادتك؟

قال: عطلتني وأفادتني.

سألت: كيف؟

قال: طبعًا أخذت الكثير من وقتي، وقت كان ممكنًا أن أخصصه للأدب، لكن من ناحية أخرى أتاحت لي فرصة التعرف على مواقف ونماذج بشرية عديدة كان لها أثر فيما كتبت، كما أنها أعانتني على مواجهة الحياة.

قلت: أذكر عند بلوغك سن المعاش في بداية السبعينيات أنك كنت مبتهجًا وسعيدًا، وأنك قلت لي إنه بإمكانك المشي كما تريد بدون التقيد بمواعيد حضور وانصراف، وأن لديك العديد من المشاريع سوف تتفرغ لكتابتها. الحرافيش كتبت بعد المعاش، لو افترضنا أنك عدت مع الزمن، أو عاد بك الزمن وأنت معك ظروف مادية ميسورة توفرت بعد جائزة نوبل. يعني لو رجع الزمن ومعك أموال ونوبل، فهل ستختار الوظيفة أيضًا؟

قال: طبعًا لا.. مستحيل أن أسلك طريق الوظيفة، ماكنتش أستمر كموظف.

سألت: هل الوظيفة عملت عندك نوعًا من الازدواجية؟ يعني أنت كنت موظفًا ملتزمًا جدًّا، ولعل سجل خدمتك أنظف سجل لموظف مصري، في نفس الوقت كنت تكتب «فضيحة في القاهرة» و«ثرثرة فوق النيل» وتواجه الواقع في كتاباتك بشجاعة.

قال: هذا طبيعي، الوظيفة وظيفة، والكتابة كتابة.

سألت: الآن، هل تفكر في بعض الأدباء الكبار الذين عاصرتهم على المستوى الشخصي وكان بينك وبينهم علاقات؟

يجيب: لم تكن بيني وبين الأدباء الكبار في جيلي علاقات خاصة.

قلت: ماذا عن سلامة موسى؟

قال: كانت علاقة احترام وتلمذة من جانبي، لكن لم تكن هناك علاقة شخصية.

قلت: وماذا عن طه حسين؟

قال: علاقة تلميذ بأستاذه.

قلت: إذن من يحضر في ذاكرتك الآن أكثر؟

قال: الباقون في الذاكرة أنت تعرفهم، طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وسلامة موسى.

سألت: لكنني لاحظت أنك تعتز بتوفيق الحكيم أكثر، وعندما أهداك قلمًا في عيد ميلادك احتفظت به إلى جانب الأوسمة والنياشين.

قال: لأنه فنان.

قلت: والآخرون؟

قال: منهم المفكر والفنان، ومنهم الفنان المفكر أو المفكر الخالص.

قلت: رغم احترامك العميق للعقاد فإنك لم تسع إلى إقامة علاقة به، وعندما رأيته في مكتبة الأنجلو لم تستجب لرغبة مديرها في أن يعرفك به.

قال: العقاد كان شخصية عظيمة، مفكرًا، جريئًا، قوي الإرادة، لكنني لم أعرف الطريق إلى ندوته الأسبوعية ولم أشعر برغبة في إقامة صلة شخصية. يكفي العلاقة الروحية.

سألته: وماذا عن الذين لم تتقبلهم؟

هنا صمت قليلًا. قلت مداعبًا: الموظف اشتغل.

قال: لا.. أبدًا، أنت تعرف أنني رحب الصدر، ولا أحمل ضغينة، أولئك الذين أحببتهم ما زالوا معي حتى الآن، المنفلوطي بالنسبة لي الآن هو المنفلوطي الذي أحببته وأنا صغير السن، أما أولئك الذين لم أتقبلهم فلا أتذكرهم.

قلت: بعد تجربتك الطويلة في الأدب والمواقف العامة، هل ترى أنه من الأفضل للأديب أن يعلن عن مواقفه في القضايا العامة مهما كلفه ذلك، أم يعبر عن هذه المواقف في أدبه؟

قال: لا مهرب من الحياة العامة، الأديب ليس منعزلًا، إنه مواطن، يعني لو أن له موقفًا سياسيًّا فسيعلن عنه، لو كان عضوًا في حزب أو ينتمي إلى جماعة.

قلت: إذن لنفترض شيئًا آخر، لو أن أديبًا رأى الفساد والخلل، هل يتصدى له بكتابة المقالات والنشاط العام، أم يدخر موقفه للكتابة الإبداعية؟

قال: لو ظروفه تسمح بإعلان موقفه من خلال المقال واتخاذ الموقف فعليه ألا يتأخر، وأن يقول ما يتفق مع ضميره، يعني لو أنه يعمل صحفيًّا مثلك فعليه أن يرفع الصوت بقدر الإمكان. إذا لم يكن صحفيًّا وليس لديه منبر، فالأدب الإبداعي مجاله، على الأديب أن يتبع ضميره مهما كان الثمن، الإبداع لا يقبل الوقوف في منتصف المسافة. بالنسبة لي أنا تكلمت وكتبت..

قلت: بعد أن ظهرت رواية «فضيحة في القاهرة» أو «القاهرة الجديدة» كما أسماها الناشر، حُقق معك في وزارة الأوقاف عن مضمون الرواية، لكن من حسن الحظ أن المحقق كان شقيق الدكتور طه حسين، فترفق بك وطلب منك الكتابة في

الحب، والابتعاد عن نقد المجتمع والموضوعات التي تجلب وجع الدماغ، ما تأثير ذلك عليك وقتئذٍ؟

قال ضاحكًا: ما رأيك أنت؟

قلت رأيي أن ذلك لم يؤثر فيك، وأنك في إبداعك لم تتهاون. هنا مال قليلًا إلى الأمام، قال:

بعد أن كتبت «ثرثرة فوق النيل» ونشرت في الأهرام مسلسلة، وكان ذلك بفضل محمد حسنين هيكل، الحقيقة أن هيكل هو الذي أتاح الإبداع الأدبي الناقد للأوضاع في الستينيات، هل تذكر بنك القلق والسلطان الحائر للحكيم؟

قلت: نعم، وأذكر «أولاد حارتنا» و«اللص والكلاب» و«ميرامار» و«الشحاذ» وقصصك القصيرة التي كنا ننتظرها ونفسرها من خلال ما لا نستطيع أن نعلنه، أذكر قصة رائعة كتبتها بعد عودتك من اليمن، كنت تعارض فيها إرسال الجيش المصري إلى اليمن..

قال: المشير عبد الحكيم عامر فيما نمى إلى علمي، بعد أن أبلغوه بمحتوى «ثرثرة فوق النيل» أو ربما قرأها، قال: «الجدع ده زودها قوي ولازم يتربى». لقد أخذني أحد معارف الدكتور حسن صبري الخولي الذي كان مقربًا من جمال عبد الناصر...

قلت: كان يشغل منصب «الممثل الشخصي للرئيس جمال عبد الناصر...».

قال: نعم، نعم، أخبرني صديق مشترك من شلة العباسية أن قرارًا كان قد صدر باعتقالي، وأن تدخلًا جرى من الدكتور ثروت عكاشة عند عبد الناصر شخصيًّا، وتدخل عبد الناصر ليوقف الإجراء، كانت وجهة نظر ثروت عكاشة أنه لا يليق البطش بروائي بسبب رواية ومن قِبَل من؟ من قبل عبد الناصر...

قلت: لكنك منعت من الكتابة في زمن أنور السادات.

قال: نعم، عندما وقعنا على بيان عام اثنين وسبعين نؤيد فيه مظاهرات الطلبة وندعو إلى حسم حالة اللا حرب واللا سلم، لقد فصل الرئيس الراحل أكثر من مائة كاتب وصحفي، أنت كنت بينهم.

قلت ضاحكًا: نعم.. لقد أطلقت عليها حادثة أربعة فبراير، لأن القرار نشر في الصحف صباح الرابع من فبراير عام اثنين وسبعين، استيقظت من النوم لأجد نفسي منحرفًا، كانت العناوين تقول «إجراءات حاسمة ضد المنحرفين» وأنه تقرر فصلنا من عضوية الاتحاد الاشتراكي وبالتالي فصلنا من الدور الصحفية، الطريف أنني لم أكن عضوًا في الاتحاد الاشتراكي، ولا في أي حزب حكومي حتى الآن...

قال: ولا أنا...

قلت: لقد فصلوك مع توفيق الحكيم سرًّا، لم ينشر اسماكما في القائمة...

قال: كانت نصيحة الدكتور كمال أبو المجد الذي كان يشغل منصب وزير الإعلام وقتئذ، وهو رجل ذكي.

قلت: جميع رواياتك وقصصك نُشرت في الأهرام تحت رئاسة تحرير الأستاذ هيكل، لكن بعد مغادرته الأهرام، نشر لك روايتان خارج الأهرام: «الحب تحت المطر»

و«المرايا»، هل كان ذلك موقفًا من المرحوم يوسف السباعي ضدك؟

قال: لا.. كان ذلك رأي الدكتور لويس عوض باعتباره المستشار الثقافي للأهرام، اعترض على نشر «المرايا» فقام الأستاذ رجاء النقاش بنشرها في مجلة الإذاعة والتلفزيون، نشرها باحتفاء كبير، ورسم الشخصيات الفنان سيف وانلي. اعترض أيضًا على «الحب تحت المطر» وكانت مجلة الشباب حديثة الصدور وقتئذ ويرأس تحريرها المرحوم صلاح جلال، هكذا...

قلت: يبدو أن الدكتور لويس عوض لم يكن رأيه إيجابيًّا في أدبك.

هنا صمت نجيب محفوظ، وهذا صمت أعرفه جيدًا عندما يفضّل ألا يفصح. بعد قليل قال «الله يرحمه». كنت قد نسيت، فتساءلت «من؟» قال: «الدكتور لويس عوض..».

عدت لأسأل: إذن أنت رأيك أن الأديب يجب أن يقول رأيه في ظل انعدام قوى سياسية فاعلة.

قال بحسم: طبعًا يجب أن يتكلم، أن يقول رأيه.

بعد صمت قال: أعتقد أن ما أكتبه يوم الخميس من كل أسبوع في «وجهة نظر» أتاح لي أن أقول رأيي في كل ما يشغلني ويشغل الناس..

قلت: هذا صحيح، ولكنك في السبعينيات عندما كنت تكتب صفحة كاملة بعنوان المفكرة أغضبت الحكومة.. لم تعجبهم آراؤك..

أومأ لكنه لم يتكلم، هنا سألته:

«لماذا بدأت كتابة المقال بعد خروج الأستاذ هيكل من الأهرام عام أربعة وسبعين؟».

قال: شوف، الأستاذ هيكل لم يطلب مني ولا من توفيق الحكيم أي شيء، بالنسبة لي كنت أنشر الرواية والقصة، لكن بعد أن جاء يوسف السباعي اجتمع بنا وقال إنه ليس من المعقول أن نوجد في الأهرام وألا نكتب مقالات، طلب منا أن نكتب، وخصص لكل منا يومًا تحت عنوان المفكرة.

قلت: «شوف الروائي يعمل إيه في زمايله؟».

مرة أخرى يعلق قائلًا «آه» ولم أفهم، هل الآه مقصود بها الموافقة أم يريد أن يخبرني أنه سمع، ولأنني أعرف نغمات صوته، فأقول بالاحتمال الثاني.

قلت: طبعًا كتابة مقال بهذا الحجم كان أمرًا مجهدًا جدًّا..

قال: «طبعًا».

هنا آثرت الانتقال إلى موضوع آخر.

قلت: أستاذ نجيب، لقد عشت ثورة 1919 وأنت صبي، وعشت الأزمة العالمية الاقتصادية سنة 1929، وعشت توقيع المعاهدة عام 1936 وإلغاءها عام 1951، والحرب العالمية الثانية، وحرب 1948 وثورة 1952، وعدوان 1956، وحرب 1967، الآن وأنت تمعن النظر في كل ما مر من أحداث بمصر، كيف ترى مصر الآن

بعد لحيظة صمت، قال بتأنٍ بليغ:

مصر الآن في أزمة يا جمال، في أزمة شديدة، لا يمكن الحكم على المستقبل من خلال الحالة التي نمر بها الآن..

سكت لحظة ثم قال:

«الواحد بيحب يكون متفائل دايمًا..».

سألته: هل مرت ظروف أصعب من تلك التي نمر بها الآن؟

بعد لحظات قال:

«لا.. الأزمة الاقتصادية في بداية الثلاثينيات كانت عنيفة، لكن لم نشعر بها نحن الموظفين، ولا سائر أبناء الشعب من الطبقة المتوسطة أو الفقراء، التجار الكبار خاصة تجار القطن هم الذين تأثروا بها، أما نحن الموظفين فلم نشعر بها، المرتب أول الشهر كان ضمانة، وكان يكفي تمامًا، كنا كموظفين في نعيم، تخش في شيكوريل أو شملا يستقبلونك بالأحضان، مع أنك كموظف بتشتري بملاليم، بس أهه بتشتري، ما هو فيه مرتب ثابت. الآن.. الموظفين حالهم زي ما انت عارف، وكمان الطبقة المتوسطة..».

قلت: عندما بلغت الخمسين في عام واحد وستين، أقام لك الأهرام حفلًا كبيرًا، ودعا الأستاذ هيكل كبار شخصيات مصر ورموزها للاحتفال بك، كنت في صدارة المشهد الثقافي ولاقيت التكريم على أعلى مستوى وأنت دون الخمسين، إذا قارنت وضعك ووضع أبناء جيلك بجيلنا، ألا ترى أننا تعرضنا لعملية تهميش؟

تساءل بدهشة وربما بمسحة سخرية: أنت متهمش؟

قلت: حتى منتصف الثمانينيات من القرن الماضي كان الوصف الذي يطلق علينا «الأدباء الشباب»، هذا وصف أطلق في منتصف الستينيات ولم يتغير لمدة عشرين عامًا.

قال: أنتم الآن الذين تمسكون بمقاليد الأمور ومفاتيح الحياة الثقافية، أنت رئيس تحرير جريدة أدبية كبرى.

قلت: هنا وضع دقيق، بالنسبة لي أنا رئيس تحرير كمهني، وقد تعلمت منك ومن يحيى حقي ألا أستخدم المنبر الذي أشرف عليه للدعاية لشخصي، كان هذا موقفك عندما توليت الرقابة على السينما، ومؤسسة السينما، وهكذا كان موقف يحيى حقي خلال رئاسة تحرير المجلة، خلال عشر سنوات لم أنشر إلا عددًا محدودًا جدًّا من النصوص القصصية تعد على أصابع اليد الواحدة، مستحيل نشر مقال عني أو حتى خبر، إن علاقتي بالمؤسسة التي أعمل بها تختلف عن علاقتك أنت وكبار الكُتاب بالأهرام، أنا صحفي محترف ولست كاتبًا متفرغًا.

قال: ولكن جيلكم يمسك الأجهزة الثقافية الآن.

قلت: هذا حقيقي إذا اعتبرنا المجايلة هي السن، ولكن المناخ الذي نعيشه مختلف، المؤسسة الثقافية بأجهزتها الآن يديرها أبناء الجيل، ولكنها ثقيلة الوطأة، وفي مجتمع المفترض أنه يأخذ بالاقتصاد الحر، والحرية السياسية، نجد المؤسسة الثقافية تتخذ

مواقف من الأدباء طبقًا لولاءاتهم، الولاء لوكيل وزارة وليس للنظام!

قال: يبدو أن الثقافة الآن أكثر حكومية، ما تصفه الآن تأثير الروح الوظيفية.

قلت: لنأخذ الأمر بصورة أخرى. في النصف الأول من القرن الماضي ازدهرت الثقافة المصرية من خلال دور نشر خاصة، وجمعيات أهلية، وكان تدخل الدولة محدودًا جدًّا، على سبيل المثال كانت الإدارة الثقافية في وزارة المعارف العمومية تشتري بعض النسخ من المجلات الثقافية كنوع من الدعم، وكانت العملية التعليمية جزءًا أساسيًّا من الحركة الثقافية. هل تفضل قيام واستمرار الثقافة من خلال مثل هذه الجهود، أم الوضع القائم الآن الذي تتدخل فيه الأجهزة الثقافية في أدق تفاصيل الواقع الثقافي، حيث تنفق الملايين على أنشطة مظهرية لا تؤدي إلى إنتاج ثقافي حقيقي؟

قال: بالتأكيد أفضل الوضع الأول، لأن هذا يؤدي إلى حياة ثقافية طبيعية تؤدي إلى خلق مناخ حقيقي، وإلى فرز الغث من السمين، من الأفضل أن تمارس الدولة دورها في الثقافة من بعيد.

قلت: أضف إلى ذلك تأثير الإعلام، الإلحاح على نشر الأخبار عن بعض الأدباء أو الموظفين أهم من النتاج الثقافي أو النشاط الثقافي.

قال: يمكن للإعلام أن يكون مسانداً للثقافة إذا أدير بسلامة نية ونزاهة، إنه من العناصر الهامة في خلق المناخ السليم.

بعد لحظات صمت، سألته عن أحوال الكتابة الآن.

قال: الكتابة الآن محصورة في الأحلام، أفكر في الحلم، أحفظه جيدًا، ثم أكتبه عمياني، يعني من الذاكرة، كتبت سبعة وتسعين حلمًا هكذا، لكن الأحلام الثلاثة الأخيرة أمليتها على الحاج صبري لأن يدي لم تعد تساعدني.

قلت: إنها المرة الأولى التي تملي فيها نصًّا على شخص آخر.

قال: نعم...

شعرت بأسى في صوته، حاولت تغيير الموضوع.

قلت: هل الأحلام مستمدة من أحلامك فعلًا أم متخيلة؟

قال: لا.. أحلام حقيقية، الحلم حل مكان الواقع.

قلت: ولكن مادة الحلم هشة والإنسان ينساها بسرعة.

قال: أنا أكتب ما أتذكره، تركيزي الآن على الأحلام، أستمد مادتي منها، يظهر أنا «فوّلت» على نفسي عندما كتبت «رأيت فيما يرى النائم». وجلجلت الضحكة المحفوظية الشهيرة. عدت لأسأله:

«لكن عندك أفكار كثيرة لم تكتب...».

قال: معظم المادة من الأحلام، هذا ما أقدر عليه الآن، لا أقدر على أكثر من ذلك.

قلت: لكن الأحلام القديمة في «رأيت فيما يرى النائم» ليست حقيقية.

قال: بالضبط، إنها تأليف. قلت: إذن الأحلام الحقيقية هي المعروفة بأحلام النقاهة،

والتي نشر منها حتى الآن مائة حلم في مجلة نصف الدنيا.

ق.ال: تمام.. تمام.

قلت: لكن ألا تفاجئك فكرة قصة قصيرة أحيانًا.

ق.ال: غير ممكن، الفكرة تحتاج إلى تفعيل من خلال الكتابة، وأنا لا أكتب الآن، كل ما أقدر عليه الأحلام.

قلت: الأحلام مركزة جدًّا، إنها نصوص أقرب إلى الشعر.

بعد صمت عدت لأسأله عن التوقيت الذي بدأ فيه الإملاء.

ق.ال: منذ أسابيع، كنت أحكي للأصدقاء عن أحلامي فطلبوا مني أن أكتبها حتى لا أنساها.

قلت: ولكنك كتوم فيما يتعلق بكتابتك.

ق.ال: أصلهم كانوا بيسألوني عن الأخبار، فأرد بأخبار الأحلام..

قلت: أذكر أنك لم تلمح لي إلا بموضوع «المرايا». كان ذلك أيام قعدتنا في مقهى عرابي، وبعد إحالتك على المعاش كنت تنهي قعدة الصباح بسرعة وتقول لي أنا باكتب في عمل شاددني، اكتشفت بعد ذلك أنه الحرافيش..

هنا أبدى يوسف القعيد ملاحظة عن تقطع العلاقات، كل العلاقات لا تتم.

قال نجيب محفوظ ضاحكًا: يعني عاوزني أفسر لك الأحلام؟

تدخل زكي سالم: أعتقد أن هذا من طبيعة الحلم، ألّا تتم العلاقات، أن تتوقف فجأة، تلك طبيعة الحياة أيضًا.

عاد يوسف القعيد ليسأل: هل تحلم بالألوان أم بالأبيض والأسود؟

ضحك قائلًا: لا.. تكنيكلور..

سألته: ما هي الروايات التي تذكرها بوضوح الآن؟ أقصد بعد رحلة عمر مديد مع القراءة.

ق.ال: الحرب والسلام، البحث عن الزمن الضائع...

قلت: وماذا عن يوليسيس.

ق.ال: والله تفتكرها أو ما تفتكرهاش زي بعضه...

ارتفعت ضحكات الجميع.

قال: في الحاجات الجديدة تبدو طبيعة التراكم، قرأت الأدب الجديد، ولكني استخدمته في محله، في سياقه..

بعد لحظات قال: منذ أيام زارني وزير الثقافة الإسباني السابق، أخبرني أنه قرأ قصتي «قسمتي ونصيبي» مترجمة طبعًا، لكن لفت نظري تفسيره الغريب للقصة، فسرها على أنها حول الصراع العربي – الإسرائيلي، وأن من سيتمكن من الآخر سيقتله ويشيل جثته.

قلت: هذا تفسير غريب جدًّا.

ق.ال: نعم.
قلت: هذا يثير قضية التلقي، يمكن للأديب أن يكتب قصة، وعندما تصل إلى قارئ مختلف في مكان أو زمان آخر يفهمها بشكل لم يخطر على بال كاتبها.
ق.ال: هذا صحيح.
بعد لحظات من الصمت، قال:
لكن أنت لم تسألني عن أحوالي عندما أكون بمفردي بالنهار.
قلت:
«أخشى أن أرهقك بأسئلتي..».
ق.ال: لا.. أصلي عاوز أقول لك أنا بأقضي وقتي إزاي.. عارف أنا بعمل إيه؟
تطلعنا جميعًا إليه مستفسرين، قال بعد لحيظة صمت:
«بأغني...».
سألته ماذا يقصد؟
ق.ال: أستعيد الأغاني التي أحفظها من أيام سيد درويش وعبد الوهاب وأم كلثوم.
سألته: كيف جاءت الفكرة؟
ق.ال: طبيعة.
سألته: هل تتذكر تفاصيل كثيرة؟
ق.ال: تفاصيل كثيرة جدًّا، معظمها من الزمن الأول..
سألته: هل تشرب شايًا أو قهوة نهارًا؟
ق.ال: أبدًا، الشفطتين دول من الفنجان..
سألته: والسجاير؟
ق.ال: اثنتان فقط.
ق.لت: يخيل إليّ أنك دخنت اليوم ثلاثة.
ق.ال: مستحيل..
عدت لأسأل: أي أغانٍ تتذكرها وتغنيها عندما تكون بمفردك؟
ق.ال: كثير.
ق.لت: من قد إيه كنا هنا.. من شهر فات ولّا سنة لعبد الوهاب؟
قال: مثلًا.. أنا أحبها جدًّا.
قلت: وماذا تذكر لمنيرة المهدية؟
قال: أسمر ملك روحي، وبعد العشا يحلا الهزار والفرفشة..
قلت: وحمامة بيضا؟
قال: دي لداود حسني.. حاجة جميلة!

قلت: هل سمعت منيرة مباشرة؟

قال: سمعتها في مدينة رمسيس للملاهي، كانت أجمل مدينة ملاهي، مكانها الآن في المهندسين، وسمعتها في مسرح الماجستيك بشارع الألفي، لكن في الحفلة الأخيرة كان صوتها ضعيفًا وكانت تحشرج، حزنت جدًّا.

سألته: وأم كلثوم؟

قال: في بدايتها كدت أتشاجر مع واحد صاحبي لما قال لي إنه فيه مطربة جديدة اسمها أم كلثوم صوتها أجمل من منيرة، لكن عندما سمعتها وقعت في غرام صوتها..

سألته: ما الفرق بين الاثنتين؟

قال: عبد الوهاب له توصيف دقيق، قال إن الصوتين في منتهى القوة، لكن صوت أم كلثوم له فرامل أفضل.. يقصد ختام النغمة.

بعد صمت، قال:

كانت منيرة لها معجبون كثر، منهم حسين رشدي باشا رئيس الوزراء في العشرينيات، من الحوادث المشهورة أنه عقد مجلس الوزراء في عوامتها.

سألته مداعبًا:

«في عوامتها.. كان بيعمل إيه هناك؟»

قال ضاحكًا:

«أنا عارف كان بيهبب إيه؟».

سألته:

«هل أحببت شخصًا معينًا لكنك لم تصادقه أو تمنيت أنك تصاحبه؟».

قال: ماذا تقصد؟

قلت: سأعطيك مثالًا، يعني أنا مثلًا كنت أحب أصاحب الحاج إبراهيم نافع صديق محمود السعدني، رجل جدع وشهم، لكن الظروف لم تسمح..

هنا قال زكي سالم:

«أنا فهمت ما تقصد، أعتقد أن الأستاذ أحب العقاد جدًّا، لكنه لم يصادقه».

وافق الأستاذ على ما قاله زكي سالم، وعندما سألته عن السبب، قال:

«لم أتردد عليه في ندوته، لكنه كان شخصية عظيمة..».

سألته: «لاحظت أنك تستريح أكثر مع غير المثقفين...».

قال: «أصل المثقفين بتوع فكر...».

قال: ممكن بعض شخصيات الحرافيش..

سألته: ما هو أقرب عمل إلى سيرتك الذاتية؟

قال: حكايات حارتنا.

بعد صمت، راح يستعيد بعضًا من ذكرياته عن قبو قرمز الممتد تحت مسجد الأمير متقال، ثم قال ضاحكًا:

«أذكر أنه كان فيه حكايات عن عفريتة اسمها «زرمبيحا»، وكنت في البيت أغني وأنا طفل أغنية فيها اسم «زرمبيحا». الجيران سمعوني، أرسلوا إلى أمي، طلبوا منها أن أتوقف عن ذكرها حتى لا تطلع لهم».

قال زكي سالم: «لقد استخدم اسم «زرمبيحا» في ألف ليلة وليلة...».

عدنا إلى الحديث عن الجمالية، وحكايات استمع إليها في طفولته، ولدهشتي فقد استمعت إليها في طفولتي أيضًا ولكن بفارق أربعة أو خمسة عقود، مثل عفريت قبو قرمز الذي يظهر للناس على هيئة عسكري بوليس، يستوقف أحد المارة داخل القبو ويسأله عن الساعة، وبعد أن يستمع إلى الإجابة يولي مبتعدًا، عندئذ يلتفت من أجابه، ربما لغرابة صوت خطواته، فيكتشف مرعويًا أن نصفه الأعلى آدمي والنصف الأسفل لماعز...

تحدثنا عن القاهرة في الثلاثينيات، عن خطوط الترام، تذكرها بنصوع، 15 إلى الجيزة والأهرام. 33 إلى إمبابة، فيه التقى بمحمد عبد الوهاب، 4 ما بين الإمام الشافعي والسبتية، 22 من المذبح إلى العباسية، كان يستقله عند العودة من القاهرة القديمة، تحدثنا عن الشيخ زكريا أحمد، عن الطرب، عن أصحاب العباسية الذين رحلوا جميعًا، ودعونا للأستاذ بطول العمر الجميل.

الثلاثاء ، 6 يولية 2004

لاحظت أن الأستاذ يبذل جهدًا في الإصغاء، سألته:

– هل ضعف حجر البطارية؟

قال:

– أظن.

علق زكي سالم قائلًا:

– هذا حال مستجد منذ يومين..

اقترحنا عليه تجربة نوع جديد من السماعات – ديجيتال – غير أنه لوح بيده، رد فعل أعرفه وأتقنه منه، يعني أن ذلك غير مهم. بعد لحظات صمت قال:

– منذ سنة اقترح أحد الأطباء إجراء عملية، قال لي ألم ربع ساعة ولا تعب كل ساعة، فقلت له إن الباقي من العمر كله ربع ساعة، ابتسم ضاحكًا، قلت:

– أطال الله عمرك يا أستاذ.

الأربعاء، 8 يولية 2004

من أجل زكي سالم قبل الأستاذ أن يغير مكان وزمان المجلس، عادة يمضي مساء الخميس في أحد الكازينوهات المطلة على النيل، لكنه اليوم جاء إلى فندق شيراتون هليوبوليس القريب من المطار. حجز زكي سالم غرفة مؤثثة على الطراز الإنجليزي، ودعا مجموعة من أساتذة الفلسفة في مقدمتهم الدكتور عاطف العراقي الذي أشرف

على رسالته للدكتوراه «الفكر النقدي عند الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي»، والتي تمت مناقشتها الأسبوع الماضي. من أصدقاء الثلاثاء جاء عماد العبودي، يوسف القعيد، الفنان التشكيلي محمد الشربيني.

وجود الدكتور عاطف العراقي، وأساتذة الفلسفة الآخرين، جعل الحديث يتجه إلى ذكريات الأستاذ عن دراسته للفلسفة، وعن الحياة الجامعية، سبق ذلك حديث طويل عن توقعات التغيير الوزاري المرتقب بعد عودة الرئيس مبارك من رحلة العلاج إلى ألمانيا أمس الأربعاء (6 يولية 2004).

عندما علم نجيب محفوظ أن الدكتور عاطف العراقي خريج جامعة القاهرة، دفعة سبعة وخمسين، قال:

«ياه... دا حديث قوي...»

طبعًا، بالنسبة إليه هو خريج نفس القسم عام أربعة وثلاثين، قال الأستاذ إنه عندما تقدم إلى كلية الآداب كان الممتحن الدكتور طه حسين، وعندما سأله عن السبب الذي دفعه إلى اختيار قسم الفلسفة، أجاب معبرًا عن بعض أفكاره، عندئذ قال العميد:

«انت بتتكلم كلام مش مفهوم.. روح الفلسفة..»

يقول محفوظ إن قسم الفلسفة لم يكن ملتحقًا به إلا أربعة فقط، كانوا يشكلون الدفعة التي دخلت عام أربعة وثلاثين، وهم: توفيق الطويل، عبد الهادي أبو ريدة، علي عيسى، قال إن توفيق الطويل كان قريبًا جدًّا منه، وإنه عندما توفي بكى تأثرًا، كان القسم لا يضم إلا هؤلاء، وكان يتردد عليه للاستماع إلى المحاضرات بعض طلبة الأقسام الأخرى، ومنهم المرحوم رشاد رشدي. لم يكن هناك ظاهرة الأعداد الكثيفة التي تزدحم بها الجامعة الآن. يتوقف قليلًا ويبتسم قبل أن يشرع في الحديث، نعرف على الفور أنه سيروي أمرًا ما:

«قسم الاجتماع كان فيه طالبة واحدة، اسمها إحسان، لا أذكر الاسم الثاني، وكان يدرّس لها حوالي عشرة أساتذة ومعيدين، كان الأساتذة أكثر من الطلبة. كانت الطالبة إحسان أنيقة جدًّا، تجيء إلى الجامعة بفستان يكشف ذراعيها، واستدعاها أحد الأساتذة، طلب منها أن تغطي ذراعيها، بدأت تجيء بفستان متصل بكمين مثبتين بزرايز، وبمجرد خروجها من المحاضرة تخلعهما.

هنا علق القعيد قائلًا:

«لابد أنهما كانتا جميلتين..»

قال: مؤكدًا.

«جدًّا...»!

الثلاثاء، 12 يولية 2004

سألته: هل رأيت طلعت حرب؟

قال: من بعيد، كنت أتردد على سينما الأزبكية، وكان يجيء أحيانًا بصحبة بعض الشباب! شفت الناس يتعاملون معه باحترام رغم ما كان معروفًا عنه...

أسأله عن المقصود بالمعروف عنه؟

يسكت ولا يجيب، أعرف أنه لا يريد أن يفصح، عندئذ أحيد بالموضوع، أسأله: «هل كان هناك سينما في حديقة الأزبكية؟».

يقول:

«نعم.. كانت سينما وسط الحديقة تابعة لبنك مصر، تدخلها بقرشين، وتقعد إلى «ترابيزة» تأكل خشافًا وتدخن شيشة إذا رغبت، وتتفرج على الفيلم..».

يصمت قليلًا، ثم يقول:

«كانت أيامًا..».

الثلاثاء، 19 يولية 2004

يضحك بدون مقدمات، يتذكر أمرًا.

يقول إنه كان يستمع إلى أم كلثوم في إحدى حفلاتها، كانت تغني قصيدة لحّنها وأداها الشيخ علي محمود، أحد أشهر وأقوى أصوات المدائح والقصائد الصوفية، أخذته النشوة، صاح مبتهجًا، مخاطبًا أم كلثوم:

«الله يا شيخ علي..»!

الثلاثاء، 15 يونية

منذ فترة أخبرنا أنه لم يعد يستطيع الكتابة بنفسه، تدرب طويلًا بعد الحادث ولكنه لم يعد قادرًا، بدأ يملي على الحاج صبري ما يبدعه من أحلام فترة النقاهة.

يسأله زكي سالم: هل يؤدي ذلك إلى تغيير في النص؟

يقول محفوظ: إن الأحلام مع الإملاء تحتاج إلى قدر أكبر من التركيز، إنه يخشى أن يفقدها ذلك بعض الشاعرية.

يسود صمت، أستحضر متخيلًا جلوس نجيب محفوظ إلى الحاج صبري صباحًا، يمليه ما يستجد من أحلام، محفوظ الذي كان يعتبر الكتابة سرًّا حميمًا، لا يمكن إطلاع آخر عليه، لكنها الرغبة في الإبداع، غريزة الخلق لديه تجعله قادرًا على تطويع أعتى الظروف.

الثلاثاء، 14 يولية 2004

أعلن اليوم التشكيل الوزاري الجديد برئاسة الدكتور أحمد نظيف، سألت عن وزارات ما قبل يوليو 1952، قال:

«كانت وزارات حزبية، وعندما ينجح حزب في الانتخابات يأتي بفريق متكامل له منظور خاص، حتى في وزارات الأقليات، مثل وزارة إسماعيل صدقي جاء بفريق كان له رؤية، طبعًا الوزارات كانت تأتي بعد انتخابات، الانتخابات الوحيدة الحرة هي التي تأتي بالوفد، ولكن عندما تجيء حكومات أقلية تكون الانتخابات مزورة. تزوير الانتخابات كان يتم بتدخل الملك».

سألته عما إذا كان يذكر مرحلة ما قبل الثورة التي تعاقبت فيها وزارات عدة خلال فترة قصيرة، قال يوسف القعيد معلقًا:

«لموسى صبري كتاب جيد عن هذه الفترة، ملك وأربع وزارات..».

قال محفوظ إن هذه المرحلة شهدت تدهور صورة الملك عند الشعب، وساءت سمعته إلى حد كبير. قال إن الطليعة الوفدية التي كانت تعتبر يسار الوفد، ومنهم محمد مندور وإبراهيم طلعت، كانت بدأت تتحرك في اتجاه ثورة شعبية، ولكن جاءت حركة الجيش لتبدأ مسارًا مختلفًا..

سألته عن رؤيته للوزارة الجديدة التي تم تشكيلها اليوم برئاسة الدكتور أحمد نظيف، بعد تفكير قال:

«لا أستطيع إلا أن آمل خيرًا..».

عدت لأسأله عن حزب الوفد، معروف أنه وفدي الاتجاه، هل كان عضوًا في حزب الوفد؟ قال بسرعة:

«لا طبعًا، لم أكن عضوًا في حزب الوفد، كانت عضوية الوفد أهم من الوزارة، لكنني كنت من جماهير الوفد...».

قلت:

«ما الفرق؟».

«الفرق كبير، كان للحزب تنظيمه، اللجنة العليا، والهيئة الوفدية، ثم اللجان على مستوى المحافظات، أما جماهير الوفد وكنت منهم فهؤلاء عضويتهم ليست رسمية، أي لا نملأ استمارات ولا نحضر اجتماعات. لكن نتظاهر تأييدًا للوفد، نتعاطف معه».

هنا قال القعيد:

«في قريتنا الضهرية كان هناك عائلتان كبيرتان معروف انتماؤهما إلى الوفد، وكانتا تتبرعان للحزب بمبالغ كبيرة، عندما كان الوفد يصل إلى الحكم يتم تركيب عدة تليفونات في داري كبيريهما، وعندما يُبعد الوفد عن السلطة يُزال التليفون.

قال المهندس حسن ناصر:

«كان التليفون رمزًا للسلطة في الريف، كانت العدة تعني السلطة، خاصة عند العُمَد..».

الثلاثاء: 27 يولية 2004

جرى حديث عن الفلاسفة، سأل زكي سالم:

«يقول الدكتور عاطف العراقي إنه ليس لدينا فلاسفة، إنما أساتذة فلسفة، هل توافقه على ذلك؟».

قال محفوظ:

«نعم لقد ولى عصر الفلاسفة الكبار، وأعتقد أن آخرهم هيجل الألماني، ما تلا ذلك لا نجد بينهم من يطاوله قامة».

قال زكي:

«الدكتور عاطف يعتبر ابن رشد آخر الفلاسفة العرب والمسلمين..».

قلت:

«الحقيقة هناك فيلسوف عظيم بعده لكنه غير مشهور في العالم العربي، إنه الملا صدر الدين الشيرازي، والذي جمع بين فلسفة ابن سينا وحكمة الإشراقيين..».

قال عماد العبودي:

«لكنه فارسي...».

قلت:

«له مؤلفات بالعربية، وابن سينا كان من بلاد ما وراء النهر، الحقيقة أن معظم فلاسفة المسلمين جاءوا من هناك.. الملا صدر الدين متعارف على أنه آخر الفلاسفة العظام، وهناك رسالة علمية لدرجة الدكتوراه أعدها عنه الشيخ محمود عبد الفضيل وكيل كلية أصول الدين بالأزهر الآن..».

قال محفوظ:

«هل تقرأ علينا الأسبوع القادم بعضًا من أفكاره؟».

«بإذن الله يا أستاذ..».

مراجعات

الثلاثاء: يولية 2002

سأل يوسف القعيد: ألا تقوم بمراجعات لأدبك وتجربتك الإبداعية كل مدة معينة؟

قال الأستاذ: لا.. لا أقوم بهذه المراجعات، أتصور أن المفكر هو الذي يجب أن يقوم بها، لكنني لم أفعل ذلك. الروائي والشاعر يعيدان النظر في نفسيهما باستمرار، لكن التوقف والمراجعة من أجل المراجعة فلا أظن.

سألت: هل تولي اللغة اهتمامًا خاصًّا، بمعنى أنك تحاول تطويرها من عمل إلى عمل؟ لقد مرت لغتك بمراحل هامة، فمن يقرأ عبث الأقدار وكفاح طيبة لن يتصور أن من كتب هاتين الروايتين سيبدع الحرافيش وصولًا إلى أصداء السيرة.

قال الأستاذ:

إنني لا أتعمد تطوير اللغة، اللغة بالنسبة لي مثل الكائن الحي، ينمو مع التجربة والخبرة، وزاد التجربة هو القراءة. وأحيانًا يفرض العمل استخدام لغة ذات إيقاع خاص.

الثلاثاء: 27 أغسطس 2002

تحدثت عن كتاب جديد صادر في القاهرة، عنوانه «البحث العلمي والتكنولوجي في إسرائيل» يتناول البحث العلمي في إسرائيل، ويقارنه بالبحث العلمي عند العرب. أخطر ما فيه أنه تم تسجيل ستمائة وأربعين براءة اختراع العام الماضي في إسرائيل مقابل أربع وعشرين فقط في الدول العربية كلها.

أبدى دهشة، هز رأسه مرتين، عندما طال صمته أدركت أنه يقلب الأمر، وبعد وقت يطول أو يقصر سيتحدث مبديًا رأيه، أو قد ينسى الأمر كله.

استأنفت حديثي..

قلت إن محمد حسنين هيكل لديه معلومات تبدو غريبة بالنسبة لمن يجهل، ولكن لمتابعته الدقيقة... بدا مركزًا جدًّا في الإصغاء.

قلت إنني منذ أسابيع كنت في زيارة له، ودار حديث حول إسرائيل، قال إن ما يثير اهتمامه في إسرائيل ليس الجيش الذي كان بمثابة البوتقة التي تنصهر فيها العناصر المختلفة القادمة من شتى أنحاء العالم، ما يسترعي انتباهه الآن التقدم العلمي في الجامعات، الجامعات العبرية بها مراكز بحث متقدمة، وعلى صلة قوية بمراكز البحث المتقدمة في جميع أنحاء العالم. قلت إن حديث الأستاذ هيكل بدا لي غريبًا يومئذ، فالجيش هو عماد الدولة العبرية، لكن بعد أن قرأت هذا الكتاب أدركت صحة ما تحدث فيه، ومدى دقة رؤيته.

بعد لحظات صمت سألني:

– كم براءة اختراع في إسرائيل؟

– ستمائة وأربعون.

– وعندنا نحن؟

– في العالم العربي كله أربع وعشرون.

بعد لحظات من الصمت قال:

– أين ستذهب هذه الاختراعات؟

تطلعت إليه صامتًا، قال:

– ستصب في مصلحة البشرية في النهاية.. يعني سوف نستفيد منها..

أصغيت إلى كلماته المعبرة عن نظرة إنسانية شمولية تتجاوز التوقيت الراهن الذي نعيشه، ولم أنطق باستفسار جال عندي: وماذا عنا نحن؟

الثلاثاء: 20 يولية 2004

سألته عما كان يذكر الأب جاك جومييه.

قال على الفور: طبعًا، إنه أول من كتب عني من الأجانب، وكانت تربطني به علاقة شخصية.

قلت إنني عرفت الرجل عندما كان يقيم في دير الآباء الدومنيكان بالدراسة، وهناك قرأ لي صفحات عديدة من رسالته العلمية التي نال بها درجة الدكتوراة عن (المحمل). وله دراسة أخرى عن خطبة الجمعة، وللأسف كلاهما لم يترجما إلى العربية، كتبهما بالفرنسية، قلت إنه كان رجلًا شديد التواضع، وما زال يعيش في تولوز، ولعله يقترب الآن من المئة.

قال محفوظ: كانت دراسته عن الثلاثية رائدة.

قلت إننا قرأناها مترجمة عندما صدرت عن مكتبة مصر.

قال محفوظ: لقد زرته مع يحيى حقي في الدير، رأيت هناك مكتبة هائلة في ثرائها،

قرأت منها الجزء الثاني من ديوان حافظ الشيرازي الذي ترجمه الدكتور إبراهيم الشواربي، لم أقتنِ منه إلا الجزء الأول.

قلت: إنه أعارني هذا الجزء لأصوره في مرة نادرة، وإنه حريص على الاحتفاظ به في مكتبته التي لا تضم إلا عددًا قليلًا جدًا من الكتب.

قال محفوظ: هل أعرتك المجلد الأول؟

قلت: نعم.

قال: لا أذكر...

بعد صمت قال إنه كان يرى جاك جومييه أثناء مروره بمقهى عرابي، كان يرتدي الزي الأبيض للرهبان الدومنيكان، وكان يبدو إما قادمًا أو ذاهبًا إلى الدير يقضي حاجة أو يحمل بعض الأشياء.

الثلاثاء: 27 يولية 2004

سألته عما إذا كان مصطفى النحاس قد قَبَّل يد الملك.

قال محفوظ: لا أظن ذلك، لقد سألت إبراهيم باشا فرج لكنه أكد عدم صحة ذلك، وقال إن من أشاع ذلك هو حسين سري باشا.

قلت إن حقيقة مصطفى النحاس كزعيم وطني عظيم لم تعرف إلا بعد سنوات طويلة من ثورة يوليو، إنني أنتمي إلى الجيل الذي تفتح وعيه بعد الثورة، وصورة النحاس باشا بالنسبة لنا كانت سلبية، كانت أشبه بالمهرج الذي ورث زعامة ثورة 1919، لكنني بعد أن قرأت تاريخ الحقبة من خلال كتابات الرافعي وطارق البشري وا سالم (لها كتاب هام عن الملك فاروق) وجدت صورة مغايرة تمامًا، وجدته زعيمًا وطنيًّا قويًّا، مناهضًا للملك، يكفي موقفه ضد تنصيب الملك في الأزهر عندما حاول الشيخ مصطفى المراغي ذلك.

قال محفوظ: أذكر جملة للسكرتير الشرقي بالسفارة البريطانية، قال إن المشكلة في مصر أن رئيس الوزراء يريد أن يمارس سلطات الملك، وأن الملك يريد أن يصبح رئيس وزارة!

الثلاثاء: 27 يولية 2004

سألت عما إذا كان الوزراء قبل الثورة يقدمون إقرارات ذمة مالية؟

قال: نعم.. ولكنها لم تكن تعلن.

قلت إنني أذكر اطلاعي على ملف خدمته، وأنه يتضمن إقرارًا بالذمة المالية حرره عام 1952، وأنه كان يمتلك وقتئذ في البنك ستمائة وعشرين جنيهًا.

ابتسم، بعد لحظات قال إنه كان يقدم في كل سنة إقرارًا بذمته المالية حتى خروجه على المعاش، بعد صمت قليل عاد إلى نفس الموضوع، قال إن الميزانية كانت تتميز بالشفافية قبل الثورة، وكانت مخصصات الملك معروفة، وأذكر جيدًا واقعة مناقشة الميزانية التي تم فيها تخصيص خمسين ألف جنيه لإصلاح اليخت «المحروسة» المملوك للدولة، كانت مناقشة قوية، قمة في الأداء البرلماني، ولم نعرف مثيلًا لها

فيما بعد..

الجزء الثاني

تم تسجيل هذه المجالس عام ثمانية وسبعين وتسعمائة وألف، في كازينو كليوباترا بشارع الجبلاية، وفي مقهى الفيشاوي، وذلك يوم الإثنين كل أسبوع بدءًا من يونيو وحتى أكتوبر، وقد أقتصرت على الأستاذ نجيب محفوظ وشخصي فقط.

ذكريات.. الذكريات المحفوظية

ما أسرع مروق الأيام!!

أكثر من ربع قرن مضى على ذلك الصيف القاهري الحار، الشهور التي يتوقف خلالها نجيب محفوظ عن الكتابة بسبب حساسية تبدأ في يونية وتنتهي آخر أغسطس، هذا ما نعرفه كسبب معلن، ربما ثمة أسباب أخرى، منها التوقف الإرادي عن الكتابة للتأمل وإمعان النظر فيما كان وسيكون، غير أن هذا الصيف لم يكن عاديًّا، خاصة بالنسبة له، صيف عام ثمانية وسبعين وتسعمائة وألف، كان محفوظ قد أعلن تأييده لزيارة القدس التي بادر إليها الرئيس أنور السادات، واتخذت الدول العربية ممثلة في اتحاد الكتاب العرب، (لا أذكر من كان يرأسه وقتئذ، ربما السيد علي عقلة السوري) قرارًا بمقاطعة نجيب محفوظ، مقاطعته على جميع المستويات، شخصيًّا، ومقاطعة أعماله أيضًا. هكذا منعت مؤلفاته كلها المكتوبة قبل زيارة القدس وبعدها من دخول الأفلام العربية، واضطر منتجو السينما إلى إزالة اسمه من الأفلام التي كتب حواراتها أو قصصها أو شارك فيها، كان الأمر بمثابة إعدام أدبي لأكبر كاتب عربي، وفرصة أيضًا لأصحاب بعض النزعات الإقليمية الضيقة المتقنعة بلافتات شديدة القومية وساخنة العروبة لتحجيم الدور الثقافي المصري.

هل يعني إعلان نجيب محفوظ عن آراء سياسية وسيلة لكي يصادره البعض تمامًا؟

كيف يمكن مصادرة زقاق المدق، والثلاثية، والحرافيش، وأولاد حارتنا؟

كان القرار غريبًا، وهنا لا بد من توضيح، فموقفي السياسي يختلف عن موقف نجيب محفوظ، لكنني ناقشته وحاورته مع محبيه وأصحابه، وبالنسبة لي فإن محفوظًا يعلن مواقفه عن قناعة وبعد تفكير طويل، وليس لأسباب انتهازية كما يفعل بعض الكُتاب الآن، ولم يكن موقفه مفاجئًا بالنسبة لي، أذكر أنه صارحنا في صيف عام سبعة وستين والهزيمة لا تزال طرية، جراحها تنزف بغزارة، كان ذلك في مقهى الفيشاوي بالقاهرة القديمة، كنا ثلاثة، الروائي يوسف القعيد، والأديب الراحل إسماعيل العادلي، كنا نتحدث فيما جرى وما سيجري، عندما فاجأنا برأيه، قال إنه إذا لم يكن هناك إمكانية لهزيمة إسرائيل عسكريًّا، فلنلجأ إلى الطرق السياسية، إلى بحث إمكانية الصلح.

كان هذا الرأي في ذلك التوقيت صادمًا لنا، وفيما تلا ذلك جرت مناقشات عديدة، اختلفنا فيها كثيرًا، غير أن الصلة لم تهن، وإعجابنا بإبداعه الجميل لم يكف. حتى صدر هذا القرار الغريب بالمقاطعة، والذي عرف تطرفًا مبالغًا فيه عند التطبيق، لم يتقبل الضمير الثقافي العربي هذا القرار، بل أعرب كبار المبدعين والمثقفين العرب عن استنكارهم له وعملوا على إنهائه وتجاوزه عمليًّا. في هذا المناخ السيئ، اتصل بي الأستاذ عماد الدين أديب، وكان يعمل مديرًا لجريدة الشرق الأوسط، قال إنه يقترح عليّ حوارًا طويلًا، غير تقليدي مع نجيب محفوظ، ينشر على حلقات، وعندما التقينا تحسست الموقف بخصوص النشر، قال لي بوضوح إنه عرض الفكرة على

المسئولين عن التحرير، وإنهم تحمسوا، وإن الجميع متفق على استحالة مقاطعة نجيب محفوظ إبداعيًّا وأدبيًّا.

هكذا بدأت.

* * *

لم يكن محفوظ قد بدأ إجازته الصيفية بعد والتي يسافر خلالها إلى الإسكندرية، كان قد تقاعد منذ ست سنوات وأصبح متفرغًا تمامًا للكتابة، وخلال تلك السنوات كتب ملحمة «الحرافيش»، كان في حالة صحية جيدة، يمشي يوميًّا في الصباح والمساء، يجوس في شوارع القاهرة القديمة كل أربعاء، يتلمس أماكن الذكرى وأزمنة الحنين، عندما عرضت عليه الأمر تحمس كثيرًا، واقترح أن نلتقي في مكان هادئ لا يطرقه من نعرف، وقع اختياره على مقهى إفرنجي «كازينو» مطل على النيل من الضفة المواجهة لبيته في العجوزة، كان يعبر الجسر الطويل الممتد من المهندسين حتى ميدان باب الحديد «كوبري أكتوبر»، يقطع هذا الجزء الصغير الذي يصل ضفة النيل الصغير، وينزل السلالم إلى مدخل المقهى. طلبت أن نبدأ بعد أسبوع، اتفقنا.

رغم الصلة الطويلة الممتدة منذ عام تسعة وخمسين، إلا أنني تهيبت الأمر، لذلك لم أعتمد على طول العلاقة وعمقها فقط، إنما قررت الرجوع إلى الأحاديث الهامة التي أجريت معه، قضيت ساعات في أرشيف دار أخبار اليوم، إلا أن المرجعين الأساسيين اللذيْن توقفت عندهما:

حوار فؤاد دوارة معه، والذي ضمنه كتابه « عشرة أدباء يتحدثون»، والعدد الخاص من مجلة «الهلال» الذي صدر عام سبعين من القرن الماضي، وحرره الأستاذ رجاء النقاش رئيس التحرير وقتئذ، وفي تقديري أنه من أجمل وأهم الأعداد الخاصة التي صدرت عن محفوظ وما زال مرجعًا ثريًّا في مادته وصوره ولا بد من العودة إليه عند التفكير في أي عمل خاص بالأديب الكبير. أصغيت أيضًا إلى حوار طويل على مدى ساعتين أذيع في الستينيات، وطبع في شريطين من خلال شركة صوت القاهرة التابعة لاتحاد الإذاعة والتليفزيون، وعدت إلى ملاحظاتي الخاصة.

هكذا أعددت برنامجًا دقيقًا، منظمًا، استوحيت خلاله قدرة محفوظ على الانضباط، بحيث يجري الحديث لتغطية عدة محاور:

الطفولة، النشأة، التكوين.

المكان، خاصة القاهرة القديمة. ولأنني ابن المنطقة ذاتها، فقد عشت ثلاثين عامًا في حارة درب الطبلاوي المتفرعة من شارع قصر الشوق، أي على بعد خطوات من ميدان بيت القاضي الذي ولد في أحد البيوت المطلة عليه، المكان ركن أساسي ليس في أعمال محفوظ فحسب، إنما في حياته اليومية، وتكوينه النفسي، إضافة إلى كونه ذاكرة حية للقاهرة القديمة والقاهرة الحديثة، ومن خلاله أعرف الصورة التي كانت والتي تغيرت. وقبل بدء حواري معه نشرت دراسة عن القاهرة في المكان، في الواقع، وكما رسمها محفوظ، ومن خلال خبرتي بالمكان قارنت بين الأصل والإبداع، وضمنتها كتاب «ملامح القاهرة في ألف عام – الطبعة الثالثة».

الكتابة وما يتصل بها، بالطبع لم يكن الأمر هنا مجرد أسئلة وأجوبة، إنما كانت فرصة سانحة لي لكي أستكشف أبعاد العالم الإبداعي لكاتب لا يتحدث كثيرًا عن عالمه وعاداته في الكتابة، وعلاقته باللغة، وبالأشكال الروائية الحديثة.

الآراء السياسية، وكان الأمر هامًّا خلال هذه الفترة بالذات، خاصة بعد صدور رواية الكرنك، وإعلانه تأييد السادات في زيارته إلى إسرائيل.

علاقته بالسينما، كيف بدأت، وكيف وصل عدد الأفلام التي أعد لها السيناريوهات أو الحوارات إلى أكثر من سبعة وسبعين فيلمًا.

الوظيفة، أو بمعنى أدق العلاقة بين العمل الذي يؤديه الأديب من أجل تكاليف الحياة، وتأثير ذلك على إبداعه، وتكوينه ومساره. وبالطبع كنت أحاول أن أتلمس أوجه الشبه بين ما أعيشه وما عرفه.

أخيرًا.. حياته الأسرية، الحب والزواج، ومن ناحية الحب كنت متأثرًا بتجربته التي عبر عنها في الثلاثية من خلال حب كمال عبد الجواد لعايدة شداد، تلك العلاقة الفريدة التي احتوتني لفترة ليست بالهينة. خلال حواراتي الممتدة عبر سنوات عديدة عرفت تفاصيل شتى عن حياته الخاصة، وعشت عن قرب مع أصدقاء الطفولة أو كما يسميهم شلة العباسية، وكان شديد الإخلاص في علاقته بهم، يخصص لهم مساء كل خميس، حتى حالت ظروف المرض وزحام القاهرة، ثم رحيلهم جميعًا.. رحمهم الله. غير أنني لم أكتب ما أراده هو أن ينشر، وحجبت ما يمكن أن يسبب له إزعاجًا، فظروف مجتمعاتنا لا تسمح حتى الآن بالبوح على الطريقة الأوربية.

هكذا بدأنا، واستغرق العمل أكثر من عشرين ساعة على امتداد شهر كامل، عملنا خلاله بلا توقف، فيما عدا أيام الجمعة والخميس، وعندما بدأت الكتابة حذفت الأسئلة، إنه صوت ذاكرة محفوظ فقط الذي يروي، إنني أستعيد تلك الأيام الحارة، وعرة القيظ، بحنين، فتلك الفرصة الأطول التي سنحت لي كي أنفرد بالمبدع العظيم، الذي كان وما زال صديقًا ومعينًا ومؤنسًا ودليلًا بالنسبة لي.

* * *

عندما انتهيت من تلك المجالس نشرت أولًا على حلقات في الشرق الأوسط، وفي نهاية العام سافرت إلى بيروت، كانت دار نشر (المسيرة) قد أعدت برنامجًا، ومما أعتز به أن محفوظًا كتب مقدمة هذا القسم من المجالس عندما صدر في كتاب مستقل بعنوان «نجيب محفوظ يتذكر» يقول فيها:

«هذا الكتاب أغناني عن التفكير في كتابة سيرة ذاتية لما يحويه من حقائق جوهرية وأساسية في مسيرة حياتي، فضلًا عن أن مؤلفه يعتبر ركنًا من سيرتي الذاتية.

نجيب محفوظ».

الطفـــولة...

.. عندما أرحل بذاكرتي إلى أقصى بدايات العمر، إلى الطفولة الأولى، أتذكر بيتنا في الجمالية شبه خال، أنجب والدي من قبلي ستة أشقاء، جاءوا كلهم متعاقبين، أربع إناث وذكرين، ثم تتوقف والدتي عن الإنجاب لمدة تسع سنوات. ثم.. أجيء أنا. عندما وصلت إلى سن الخامسة كان الفرق بيني وبين أصغر أخ لي خمس عشرة سنة، البنات كلهن تزوجن تقريبًا فيما عدا واحدة لا أذكر أي شيء عن حياتها في البيت، أما شقيقاي فقد تزوجا بالفعل، أحدهما دخل الكلية الحربية وسافر للخدمة في السودان، لهذا.. لا أتذكر في البيت إلا والدي ووالدتي، لا أذكر أن أي إنسان آخر شاركنا البيت إلا الضيوف، عمتي، ابنة عمتي، ناس من الخارج، أغلب حياتي في بيتنا كأني طفل وحيد، لكن طبعًا كنا نزور الأشقاء في بيوتهم. لهذا إذا ما حاولت استرجاع ذكرياتي عنهم، فإنني أتذكرهم في بيوتهم وليس في بيتنا. كانت علاقتي بهم علاقة الصغير بالكبار، أساسها الأدب والحشمة، لم أعرفهم كأشقاء أعيش معهم حياتهم اليومية، ألعب معهم، أضحك معهم، ولذلك كانت علاقة الأخوة من العلاقات التي أتابعها في حياتي باهتمام، فيما بعد كان من أصدقائي أشقاء، كنت أتابعهم، أسأل نفسي: ترى.. لو أن إخوتي قاربوني في السن، كيف ستمضي علاقتي معهم؟ كان من بين أصدقائي ثلاثة أشقاء، كانوا دائمًا يلعبون معًا، يذهبون إلى النزهة معًا، يضحكون معًا، كنت أتابعهم وأسأل نفسي: هل كنت سأصبح مثلهم؟.. كنت محرومًا من الإحساس بالأخوة..

لهذا تلاحظ دائمًا أنني أصور في كثير من أعمالي علاقات أخوة بين أشقاء، وهذا نتيجة لحرماني من هذه العلاقة، يبدو هذا في الثلاثية، في بداية ونهاية، في خان الخليلي..

لم أجرب هذه العلاقة في الحياة الحقيقية، كنت دائمًا أنظر إليها كشيء محرم أو مجهول، كنت أتمنى أن يكون لديَّ نفس العلاقات بين أصدقائي: الأخوة...

ال-ل-ع-ـــب

طبعًا البيت يرتبط في ذكرياتي دائمًا باللعب، خاصة السطح، فيه مجال كبير للعب، فيه خزين، بط، فراخ، كتاكيت صغيرة، زرع في أصص، لبلاب، ريحان، ثم السماء الفسيحة. كنا نسكن بيتًا مستقلًّا، أو بالمعنى الدارج: بيت من بابه، ومن الممكن أن نطلق عليه «بيت رأسي» بالمعنى الحديث، كل طابق كان يحتوي على حجرة صغيرة وأخرى كبيرة، ثم أخيرًا السطح.. حيث نجد غرفة صيفية، كنا ننام فيها خلال أيام الحر، كان البيت يتكامل إلى أعلى، يعني في الطابق الأول غرفة الاستقبال، في الطابق الثاني غرفة الطعام، وهكذا ربما لصغر مساحة الأرض، كنا أيضًا نلعب في الشارع، مع أطفال وبنات الجيران، كان البيت يقع في مواجهة قسم الجمالية، يطل على ميدان بيت القاضي، لكننا كنا نتبع مشيخة درب قرمز.

ملحوظة

«أزيل البيت الذي شهد مولد أديبنا الكبير، ومكانه الآن منزل حديث من ثلاثة طوابق، تحته مقهى، أما حارة درب قرمز فما زالت كما هي، والقبو نفسه موجود، ويمتد تحت أحد المساجد الأثرية».

كانت الحارة في ذلك الوقت عالمًا غريبًا، حيث تتمثل فيها جميع طبقات الشعب المصري، تجد مثلًا ربعًا، يسكنه ناس بسطاء، أذكر منهم عسكري بوليس، موظفًا صغيرًا في «كبانية» المياه، امرأة فقيرة تسرح بفجل أو لب، وزوجها ضرير، لهم حجرة في الربع، وأمام الربع مباشرة تجد بيتًا صغيرًا تسكنه امرأة من أوائل اللواتي تلقين التعليم وتوظفن، ثم تجد بيوت أعيان كبار، مثل بيت السكري، بيت المهيلمي، بيت السيسي، وبيوتًا قديمة أصحابها تجار، أو من أولئك الذين يعيشون على الوقف، كنت تجد أغنى فئات المجتمع، ثم الطبقة المتوسطة، ثم الفقراء.. أنا لا أدري ما هو شكل الحارة الآن، ولعلك أنت تعرفه لأنك عشت في المنطقة حتى السبعينيات، كان الجميع يختلطون في رمضان، كانت بيوت الأثرياء تفتح «المنادر» للفقراء، كان يمكن لأي شخص من أهل الحارة أن يدخل ويأكل حتى الغرباء، لقد شاهدت اندثار هذه التركيبة للحارة المصرية في الثلاثينيات، العائلات الثرية هاجرت إلى العباسية الغربية، أما العائلات المتوسطة التي أنتمي إليها فقد رحلت إلى العباسية الشرقية، كانت هناك تكية أيضًا، وكان فيه ناس من العجم أو الأتراك كنا نراهم من بعيد، كان فيه معالم في المنطقة علقت بذهني، لعل أبرزها الفتوة، كان وجود الفتوات معترفًا به من الحكومة نفسها، كنا نستيقظ على الزفة في بيت القاضي عندما تدب فيها المشاجرات، وفي ثورة 1919 لعبوا دورًا كبيرًا. أنا «شفت» بعيني الفتوات وهم يكتسحون قسم الجمالية، ويحتلونه، قلت لك إنه كانت فوق السطح حجرة، كان لها نافذة تطل على الميدان، منها رأيت في طفولتي كل المظاهرات التي مرت ببيت القاضي.

ملحوظة

القبو، التكية، الفتوة، الخلاء، من معالم الحارة الثابتة عند نجيب محفوظ، وعندما يحدثنا عن الأتراك أو العجم لعلنا نتذكر تلك الأناشيد الغامضة في «الحرافيش» التي تنبعث من خلف أسوار التكية، وإذا كان نجيب محفوظ قد رأى في طفولته المبكرة استيلاء الفتوات على قسم الجمالية والمظاهرات من خلال النافذة، فقد استعاد أديبنا بعض ما رأى في «حكايات حارتنا»، ولنصغ إلى الحكاية الثانية عشرة..

«.. ماذا يحدث للدنيا؟

يجتاحها طوفان، يقلقها زلزال، تشتعل بأطرافها النيران، تتفجر بحناجرها الهتافات.

الميدان يكتظ بالآلاف، لم يقع ذلك من قبل، هديرهم يرج جدران حارتنا ويصم الآذان، إنهم يصرخون، وبقبضات أيديهم يهددون.

وأحملق فيما يجري من فوق سور السطح، وأتساءل عما يحدث للدنيا..

وتتلاطم الأحاديث مشحونة بكهرباء الوجدان، وينهمر سيل من الألفاظ الجديدة، السحرية، سعد زغلول، مالطة، السلطان، الهلال والصليب، الوطن، الموت الزؤام.

الأعلام ترفرف فوق الدكاكين، صور سعد زغلول تلصق بالجدران. إمام المسجد

يظهر في شرفة المئذنة ويهتف ويخطب.

وأقول لنفسي إن ما يحدث غريب، ولكنه مثير ومسلٍّ شديد البهجة.

غير أنني أشهد مطاردة.

يندفع أناس داخل حارتنا، يرمون بالطوب، يتحصنون بالأركان.

يقتحم الحارة الفرسان بقبعاتهم العالية وشواربهم الغليظة. تنطلق أصوات حادة مخيفة تعقبها صرخات، أنزع من مكان المراقبة إلى الداخل فتطالعني وجوه مذعورة وهمسات تقول:

– إنه الموت..

نرهف السمع وراء النوافذ المغلقة، لا شيء إلا أصوات متضاربة، وقع أقدام، صهيل خيل، أزيز رصاص، صرخة موجعة، هتاف غاضب. يتواصل ذلك دقائق في الحارة ثم يسود الصمت.. ويتردد الهدير، ولكن هذه المرة من بعيد.. ثم يسود صمت مطلق.

وأقول لنفسي إن ما يحدث غريب ومزعج ومخيف. وأعرف بعض الشيء معاني الألفاظ الجديدة، سعد زغلول، مالطة، السلطان، الوطن، وأعرف بوضوح أكثر الفرسان البريطانيين والرصاص والموت، وتزورنا أم عبده في غاية من الانفعال، تحكي حكايات عن الضحايا والأبطال، وتنعي إلينا علوة صبي الفران، وتؤكد أن جياد الفرسان حرنت أمام سور التكية، وألقت الفرسان عن متنها..

وأقول لنفسي «إن ما يحدث حلم مثير لا يصدق..».

تنتهي الحكاية، ويواصل نجيب محفوظ التذكر..

التيه في الزمن

من الشخصيات التي لا أنساها أيضًا النساء اللواتي كن يترددن على البيت ليقمن بإعداد الأحجبة، وأعمال السحر، كنت أرقبهن عندما يجئن إلى أمي، يجلسن معها، يتحدثن. من معالم طفولتي أيضًا، الكُتاب. كان النظام التعليمي وقتئذ يقضي بأن نذهب أولًا إلى الكُتاب، ثم نلتحق بالمرحلة الابتدائية، علمنا الشقاوة، ولكنه علمنا مبادئ الدين، ومبادئ القراءة والكتابة، كان مختلطًا للجنسين، كان مقر الكُتاب في حارة الكبابجي، بالقرب من درب قرمز، لا أدري ماذا يحوي الآن؟ ربما كنت تعرفه، ذهبت إليه في الرابعة، لكن الغريب أنني في هذه السن المبكرة بدأت أرى أشياء أخرى خارج الحارة، تذكر أنني حدثتك من قبل عن غرام والدتي بالآثار، كثيرًا ما ذهبنا إلى الأنتيكخانة، أو الأهرام، حيث أبو الهول، لا أدري سر هوايتها تلك حتى الآن!، كنا نخرج بمفردنا، وأحيانًا مع الوالدة، تجرني في يدها، ونمضي إلى الأنتيكخانة، خاصة حجرة المومياءات، زرناها كثيرًا، كانت أمي تتمتع بحرية نسبية، وبعكس ما تبدو عليه «أمينة» في الثلاثية، التي لم يكن مسموحًا لها بالخروج إلا بإذن من أحمد عبدالجواد. تسألني من أين إذن استوحيت شخصية أحمد عبد الجواد؟

إنني أذكر هنا أسرة كانت تسكن في مواجهتنا، كان البيت مغلقًا باستمرار، نوافذه لا تفتح أبدًا، ولا يخرج منه إلا صاحبه، رجل شامي اسمه الشيخ رضوان، مهيب

الطلعة، وكانت أمي تصحبني لزيارة هذه الأسرة وكنت أرى زوجة الرجل غير المسموح بخروجها، كنا نزورها، ولكنها لا تزورنا، لأنه غير مسموح لها، وكانت ترجو والدتي أن تتردد عليها، كان لي أصدقاء كثيرون من الأطفال، وفيما بعد، عندما انتقلنا إلى العباسية، وكان عمري اثنتي عشرة سنة، أصبحت على صلة ببعضهم، ثم اختفوا جميعًا عني في زحام الحياة، جميع أصدقاء طفولتي، فيما عدا واحدًا التقيت به منذ عشرين أو خمس وعشرين سنة في ميدان الجيش أثناء توجهي إلى مقهى عرابي، كانت قد مضت سنوات عديدة، طويلة، ولم ير أحدنا صاحبه، لكننا تعرفنا إلى بعضنا، ثم اختفى، ولم أره بعد ذلك أبدًا، وهكذا ضاع أصدقاء طفولتي في الزمن وزحام الحياة.

كانت والدتي تصحبني معها دائمًا لأنني الوحيد، تصحبني في زياراتها إلى الأهل، والجيران، وهكذا رأيت كثيرًا من مناطق القاهرة: شبرا، العباسية. كثير من المناطق التي تقع في قلب القاهرة الآن كانت حدائق وحقولًا.

الوالـد..

كان والدي يتحدث دائمًا في البيت عن سعد زغلول، ومحمد فريد، ومصطفى كامل، ويتابع أخبارهم باهتمام كبير، كان إذ يذكر اسم أحد من هؤلاء فكأنما يتحدث عن مقدسات حقيقية، كان يتحدث عن أمور البيت مع أمور الوطن في وحدة واحدة، كل حدث صغير في حياتنا اليومية كان يقترن بأمر عام، فهذا الأمر وقع لأن سعدًا قال كذا، أو لأن السراي، أو لأن الإنجليز.. كان والدي يتكلم عنهم بحماس وكأنه يتحدث عن خصوم شخصيين أو أصدقاء شخصيين، كان والدي موظفًا، وعندما وصل إلى السن التي يستحق فيها المعاش استقال، كان موظفًا طبقًا لكادر قديم لا نعرف عنه الآن شيئًا، بعد استقالته عمل مع أحد أصحابه التجار، كان صديقه تاجرًا كبيرًا يسافر كثيرًا إلى بور سعيد...

ملحوظة

نلاحظ هنا أن أحمد عبد الجواد في الثلاثية سافر مرة واحدة خارج القاهرة، وكانت إلى بور سعيد بهدف تجاري، وخلال هذه الزيارة خالفت أمينة تعليماته بعدم الخروج، وأصابها ما أصابها.

كان البيت لا يوحي بأنه من الممكن أن يخرج منه أي إنسان له صلة بالفن، الثقافة الوحيدة في البيت ذات طابع ديني، وصلته بالحياة العامة ذات صبغة سياسية، كان والدي صديقًا للمويلحي، وقد أهداه نسخة من كتاب «حديث عيسى بن هشام».. نسخة أذكرها جيدًا..

ملحوظة

يذكرنا نجيب محفوظ هنا ببعض ملامح الأب في الثلاثية، ولكن هناك معالم أشد وضوحًا، خاصة في «حكايات حارتنا». نجد ذلك في الحكايات رقم «14»،و«15»، و«18»، و«19»، و«23»، ولنستعد معًا الحكاية رقم «23»..

.. ذات صباح تدهمني اليقظة بعنف، أستيقظ مجذوبًا من عالم الغيب بقبضة مبهمة، يلفني تيار من الطنين. أنصت فيقف شعر رأسي من ترقب الشر، أصوات

بكاء تتسلل إليّ من الصالة، تغرز أفكار السوء أسنانها في لحمي، ويتخايل لعيني شبح الموت، أثب من الفراش مندفعًا نحو الباب المغلق، أتردد لحظة ثم أفتحه بشدة لأواجه المجهول..

أرى أبي جالسًا، أمي مستندة إلى الكونصول، الخادمة واقفة عند الباب، الجميع يبكون.. وتراني أمي فتقبل عليّ وهي تقول:

– أفزعناك.. لا تنزعج يا بني..

أتساءل بريق جاف:

– ماذا؟

فتهمس في أذني بنبرة مختنقة:

– سعد زغلول.. البقية في حياتك.

فأهتف من أعماقي:

– سعد!

وأتراجع إلى حجرتي.

وتتجسد الكآبة في كل منظر...».

ما تبقى

«.. لا أذكر أبدًا أيًّا من زملائي في الكُتاب، أو في المدرسة الابتدائية التي كانت مواجهة لمسجد الحسين، التي يوجد فيها ساعة أثرية. من هذه المدرسة رأيت المظاهرات، كانت المنطقة دامية، يمكنك القول إن أكبر شيء هز الأمن الطفولي هو ثورة 1919، شفنا الإنجليز، وسمعنا ضرب الرصاص، وشفت الجثث والجرحى في ميدان بيت القاضي، شفت الهجوم على القسم، كيف أنظر إلى طفولتي الآن؟

لقد انعكست حياتي في الطفولة في الثلاثية إلى حد ما، وفي «حكايات حارتنا» بشكل أكبر، كانت طفولة طبيعية، لم أعرف الطلاق، أو تعدد الزوجات، أو اليتم، طفولة طبيعية بمعنى أن الطفل نشأ بين والدين يعيشان حياة هادئة مستقرة، لم يكن أبي سكيرًا، أو مدمنًا للقمار، لم يكن شديد القوة، مثل هذه الأمور لم يكن لها وجود في حياتي، حتى ما يكدر أُخفي عني، كان المناخ الذي نشأت فيه يوحي بمحبة الوالدين، ومحبة الأسرة، وكنت أقدس الوالدين والأسرة، كان الخيط الثقافي الوحيد في الأسرة هو الدين. في سنة 1937 توفي والدي عن خمسة وستين عامًا، كنت أعيش مع والدتي في العباسية، التي انتقلنا إليها منذ عام 1924 تقريبًا، لكن المكان الذي بقيت مشدودًا إليه، أتطلع إليه دائمًا هو منطقة الجمالية..».

بين العباسية والحسين..

.. فارقت منطقة الجمالية إلى العباسية وعمري اثنا عشر عامًا، وكان لانتقالنا إلى العباسية تأثير كبير على حياتي، ولم تكن العباسية التي انتقلت إليها في تلك السن المبكرة تشبه العباسية الحالية. الآن، تقوم المباني في كل مكان، والشوارع تتقاطع وتتجاور، لكن عباسية زمني القديم كانت تحوي الكثير من الخضرة، والقليل من

المباني، كانت البيوت صغيرة من طابق واحد، وكل بيت تحيطه حديقة، ثم تمتد الحقول حتى الأفق، كان والدي يصحبني مع والدتي إلى منطقة حدائق القبة، فيما يلي كوبري الحدائق،وهناك نركب ترولي صغيراً يمشي فوق قضبان، يوغل بنا في الحدائق، كان السكون عميقًا، والمنطقة كبيرة جدًّا لا تحوي إلا عددًا قليلًا من القصور، كل هذا راح، الحدائق اختفت، والمباني ملأت المكان، لم تكن العباسية برغم ذلك منفصلة تمامًا عن الحي القديم. وجدت منطقة الحسينية، وعرابي الفتوة المشهور، نفس التقاليد، قلت إن انتقالي إلى العباسية أحدث نقلة كبيرة في حياتي، الغريب أن أصدقائي، أصدقاء العباسية، أصدقاء الصغر، استمرت علاقتي بهم حتى هذه اللحظة، باستثناء الذين انتقلوا إلى رحمة الله، حتى بعد أن فرق بيننا المكان، أحدهم إلى المعادي، وآخر إلى الهرم، لكننا، عندما نلتقي، حتى بعد انقطاع زمني، فكأننا نستأنف لقاء لم ينقطع إلا بالأمس فقط، كان أصدقاء العباسية مجموعة متناقضة، فيها كل نوعيات البشرية، من أسماها إلى أدناها، فيهم ناس تقلدوا أكبر المناصب المهنية، أطباء ومهندسون ومحاسبون، ومنهم بلطجية، وبرمجية، ومنهم فتوات، والعلاقة بيننا كانت حميدة، حتى الشرير منهم كان يمارس شره بعيدًا عنا، كانوا أكثر من مجموعة، لكنني كنت صديقًا للكل، كلهم شخصيات لا تنسى، ولم تهن العلاقات، حتى بالبعد، وهذا غريب!

ملحوظة لا بد منها

.. استوحى أديبنا الكبير شخصيات عديدة من أصدقاء العباسية في رواياته، ولكنني أشير إلى عمل واحد، كتب فيه عن بعضهم بشكل مباشر، أقصد «المرايا»، راجع الفصول الخاصة بجعفر خليل، خليل زكي، رضا حمادة، حنان مصطفى، زهران حسونة، سابا رمزي، سرور عبد الباقي، سيد شعير، شعراوي الفحام، صفاء الكاتب، طه عنان، عدلي بركات، عشماوي جلال، عصام الحملاوي، عيد منصور. ومنذ أواخر الستينيات ترددت على أديبنا الكبير في لقائه الأسبوعي بأصدقاء العباسية في مساء كل خميس، في مقهى عرابي القديم، وهناك كان مع أصدقاء الصبا يبدو منطلقًا، على سجيته وقد تعرفت إلى معظم أصدقاء العباسية، ثم توقف هذا اللقاء، والسبب أزمة المواصلات التي عاقت أديبنا عن الانتقال من شارع النيل حيث يسكن إلى العباسية..

شخصية غريبة

لم أنس الجمالية.

حنيني إليها ظل قويًّا، دائمًا كنت أشعر بالرغبة في العودة إلى الجمالية، إلى أصدقائي هناك، ما الذي يسَّر لي هذا وبانتظام؟ كان لنا صديق من شلة العباسية توقف عن الدراسة وانتقل للعمل مع والده في دكان مينيفاتورة بالغورية، كنا في الإجازة، في العطلة المدرسية، كانت أكثر من أربعة شهور، كان يقول لنا: لابد أن تجيئوني يوميًّا، كنا عندئذ نقطع الطريق سيرًا على الأقدام، بدءًا من ميدان فاروق (ميدان الجيش حاليًّا) ثم شارع الحسينية، ثم بوابة الفتوح، فشارع المعز، كان لابد أن نمشي حتى الغورية لأستمتع بالمنطقة، وعندما نصل إليه نبقى معه حتى يغلق الدكان، ثم نمضي إلى مكانين كان يفضل الجلوس فيهما، مقهى زقاق المدق، ومقهى

الفيشاوي. عرفت زقاق المدق بفضل صاحبنا هذا، الحقيقة كان بيني وبين المنطقة والناس هناك، والآثار، علاقة غريبة، تثير عواطف حميمة، ومشاعر غامضة، لم يكن ممكنًا الراحة منها فيما بعد إلا بالكتابة عنها. أعود إلى صديقي هذا، لقد كان شخصًا مغامرًا، عمل مع والده، وعندما جاءت أزمة الثلاثينيات هجر أباه، اختفى، راح يلتقط رزقه من الصعيد، كان جريئًا جدًّا، أطلق لحيته، وقال إنه قادم من المدينة المنورة، وباع التراب للناس على أنه تراب من قبر النبي، وكان يعالج الناس، وكانت له أحداث عديدة، في إحدى المرات أحدث نزيفًا لرجل أثناء خلعه لضرسه، وهرب من البلدة، كان بائعًا جيدًا برغم ذلك، ثم تزوج، واستقر به الحال، كان بورمجي تمام. الحقيقة أنه هو الذي عرّفنا الطريق إلى أنحاء القاهرة، أين هو الآن؟ لا أدري، كان إذا جاء إلى القاهرة يجيء إليّ يزورني، كان يفاجئني في وزارة الأوقاف، ثم وزارة الثقافة، ثم يختفي. لا أدري، هل يعيش الآن أم أنه انتقل إلى رحمة الله، لو أنه موجود في القاهرة لزارني بكل تأكيد، كان مغامرًا، أذكر أنه بعد أن هجر والده إثر أزمة الثلاثينيات، ثم ضاق به الحال، أراد أن يرجع إلى والده، وسطني، ذهبت إلى والده، كان جارًا لنا في نفس الشارع، استقبلني الرجل بحفاوة، وعندما ذكرت اسم ابنه، هب البيت كله في وجهي، حتى أمه، لأنه تخلى عن العائلة في ظرف حرج، صديقي هذا لم يكن يعرف مبادئ الوفاء والتعلق بالأسرة، قل إنه بلا مبادئ، قل إنه سابق لعصره، المهم أنه كان مغامرًا، شخصيته وتجاربه فتحت لي عوالم عديدة كتبت عنها العديد من المرات، وهي موزعة في كثير من الروايات.. أما صديقي هذا، فلا أدري أين هو الآن..

نقطة انطلاقي

من أصدقاء العباسية الذين انتقلوا إلى رحمة الله، المرحوم فؤاد نويرة، والمرحوم أحمد نويرة، وهما من شلة العباسية، وهما أشقاء الموسيقار عبد الحليم نويرة. كانت صداقتي للكبير، أحمد، أما عبد الحليم نويرة فكان يتردد علينا من حين إلى آخر، كان أصغر إخوته، رحلا في عمر مبكر، رحمهما الله.. كانت كل سهراتنا في منطقة الحسين، كنت أتردد على المنطقة بافتتان لا حد له، وتبلغ سهراتنا أجمل لياليها في رمضان، كنا نمضي إلى الحسين لنسمع الشيخ علي محمود، ونقضي الليل كله حتى الصباح، كان ذلك أثناء دراستي، ثم أثناء وظيفتي، تعرف أنني لم أنقطع عن منطقة الحسين حتى أوائل السبعينيات، عندما كنت ألتقي بك هناك، لكن تقدمي في العمر، وازدياد أزمة المواصلات، تسببا في عدم ترددي بانتظام، أضف إلى ذلك أن المكان نفسه تغير، الفيشاوي القديم تهدم، كان السهر في الفيشاوي حتى الصباح من أمتع ساعات حياتي، وكانت الليالي تجمع شخصيات عديدة. إن عدم ترددي على الجمالية يحزنني جدًّا، أحيانًا يشكو الإنسان بعض جفاف في النفس، تعرف هذه اللحظات التي تمر بالمؤلفين، عندما أمر في الجمالية تنثال عليّ الخيالات. أغلب رواياتي كانت تدور في عقلي كخواطر حية أثناء جلوسي في هذه المنطقة، أثناء تدخيني النرجيلة، يخيل لي أنه لابد من الارتباط بمكان معين، أو شيء معين، يكون نقطة انطلاق للمشاعر والأحاسيس، خذ مثلًا كُتابنا الذين عاشوا في الريف، مثل محمد عبد الحليم عبد الله، أو عبد الرحمن الشرقاوي، ستجد أن الريف هو حجر الزاوية في أعمالهم ومنبع أعمالهم، نعم.. لا بد للأديب من شيء ما، يشع ويلهم..

أول ح-ب..

.. عدت إلى الجمالية كموظف، عندما عملت في مكتبة الغوري، وأشرفت على مشروع القرض الحسن، كان ذلك في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، كنت أعمل في مكتب الوزير، وزير الأوقاف، وحدث أن تغيرت الوزارة، طلبوا مني أن أختار مكانًا مختلفًا لأعمل فيه، اخترت مكتبة الغوري في الأزهر، دهشوا طبعًا لأن هذا مكان لا يختاره موظف لبعده والإهمال الذي يحيط به، لكنني كنت أرمي إلى هدف آخر، لقد قضيت شهورًا من أمتع فترات حياتي في مكتبة الغوري، في هذه الفترة مثلًا قرأت «مارسيل بروست»: «البحث عن الزمن الضائع»، وكنت أتردد بانتظام على مقهى الفيشاوي في النهار، حيث المقهى العريق شبه خال، أدخن النرجيلة، أفكر وأتأمل، كنت أمشي في الغورية أيضًا، لقد انعكست هذه المنطقة في أعمالي، حتى عندما انتقلت بعد ذلك إلى معالجة موضوعات ذات طبيعة فكرية، أو رمزية، عدت أيضًا إلى عالم الحارة، إن ما يحركني حقيقة عالم الحارة، هناك البعض يقع اختيارهم على مكان واقعي، أو خيالي، أو فترة ما من التاريخ، لكن عالمي الأثير هو الحارة، أصبحت الحارة خلفية لمعظم أعمالي، حتى أعيش في المنطقة التي أحبها، لماذا تدور الحرافيش في الحارة؟ كان من الممكن أن تجري الأحداث في منطقة أخرى، في مكان آخر له طبيعة مغايرة، إنما اختيار الحارة هنا لأنه عندما تكتب عملًا روائيًّا طويلًا، فإنك تحرص على اختيار البيئة التي تحبها، التي ترتاح إليها، حتى تصبح «القعدة حلوة»، أما الخلاء الذي يظهر في عالم الحارة، فاستوحيته من العباسية، أثناء سكني في العباسية كثيرًا ما كنت أخرج إلى حدود الصحراء، إلى منطقة عيون الماء حيث كان الاحتفال يقام عادة بالمولد النبوي، هناك كنت أجد نفسي وحيدًا، خاصة أن هذا الخلاء كان على حافته المقابر، كان خلاءً لا نهائيًّا، في العباسية عانيت أول حب حقيقي من نوعه، من قبل كنت أحس بالجمال في الجمالية بقدر الأحاسيس التي تراود صبيًّا في الثامنة أو العاشرة، لكن العباسية عرفت أول حب لي من نوعه، كانت تجربة مجردة من العلاقات، نظرًا لفوارق السن، والطبقة، من هنا لم تعرف هذه العلاقة أي شكل من التواصل، وربما لو حدث ذلك لتجردت العاطفة من كثير مما أضفيته عليها، وسوف تبدو آثار هذه العلاقة في تجربة كمال عبد الجواد في الثلاثية وحبه لعايدة شداد، عرفت العباسية مرحًا، وصحبة لا تعوض، كنت ألعب الكرة مع الأصدقاء، وكنت لاعبًا جيدًا.

ملحوظة

والكلام هنا للدكتور أدهم رجب، الطبيب المشهور وأحد أصدقاء العباسية، يقول:

كان نجيب محفوظ لاعب كرة من طراز نادر، في أيام صبانا في العباسية كان محاورًا ومداورًا، ومناورًا كرويًّا لو استمر لنافس على الأرجح حسين حجازي والتتش ومن بعدهما عبد الكريم صقر، وأقول الحق -وأنا أشهد للتاريخ- أنني لم أر في حياتي حتى الآن وأنا مدمن للكرة فأنا شاهد عدل، أقول لم أر لاعبًا في سرعة نجيب محفوظ في الجري، كان أشبه بالصاروخ المنطلق، وكان هذا يلائم الكرة في عصر صبانا.. ففي شبابنا الباكر كان عقل اللاعب في قدميه، وكان اللاعب القدير هو اللاعب الفرد الذي ينطلق بالكرة كالسهم نحو الهدف لا يلوي على شيء..

المنبسط المنطوي

تسألني عما إذا كنت انطوائيًّا؟

ربما لأنك رأيتني في مرحلة مختلفة من العمر، ولكن الانطوائي نموذج مختلف تمامًا، كان أحد أفراد شلتنا منطويًا، يجلس صامتًا بمفرده وكنا نتحلق أو ندور حوله، لنستشيره، «ننكشه»، لكنه لم يكن يستجيب لنا، إنما يغادرنا إلى البيت، هل أنا منطو؟ أنا طوال عمري لم تَخْلُ فترة واحدة لي من أصدقاء، في العباسية كنت طوال النهار مع أصحابي، لكن في نواح أخرى تجدني مثلًا لا أتبادل الزيارات مع الأقارب، إنني لا أندمج إلا مع الأصدقاء الذين أبقى معهم على سجيتي، ونقعد كما أقعد معك الآن. في مقهى، في الشارع، فوق الأرض، لكن إذا جئت تقول لي إن هناك اجتماعًا، أو عرسًا، أو.. لا أطيق ذلك، أي قعدة تقيدني لا أطيقها، حتى الأفراح الخاصة بالأقارب لا أحضرها.. نعم.. نعم أنا أقوم بالواجب الاجتماعي، لكن في حدود، الساعة الخامسة مثلًا تجدني معهم أثناء عقد القران، ثم أنصرف، لكن زيارة رسمية أو ما شابه ذلك، لا، أصدقائي لا يزورونني لسبب، إنني معهم طوال اليوم. مع الأصدقاء كنت أصبح على طبيعتي، إنني لا أطيق التكلف، لا أحتمله، لا أحب إلا الجلسة التي أصبح فيها مع أصدقائي وكأنني بمفردي، ولعلك تذكر جلساتنا في مقهى عرابي مع الأصحاب القدامى.

ملحوظة أخيرة

المتكلم هو الدكتور أدهم رجب..

كان نجيب محفوظ -ولا يزال- وفيًّا، ذلك النوع الأسطوري من الوفاء، الذي لا تسمع عنه إلا في القصص والروايات الخرافية..

أصدقاؤه الأعزاء هم الذين عرفهم وعرفوه في مطلع صباه في العشرينيات وأوائل الثلاثينيات..

وبعد ذلك فإن كل من صادفهم مجرد معارف وزملاء، أعز أصدقائه كان مختار نويرة،وفؤاد نويرة رحمهما الله، وعبد الحي الألفي وكيل الوزارة بالمالية، وكاتب هذه السطور، وقريب آخر له مات، كان يكتب رواياته الأولى على الآلة الكاتبة، وقد نسيت اسمه. لم يكن نجيب محفوظ وفيًّا للأشخاص فحسب، بل للمعاني والعادات أيضًا، فهناك برنامج ليوم الخميس لا يعدل عنه مهما كانت الأسباب: عند الظهر يغادر مكتبه ليتغدى مع والدته، ومع أشقائه وشقيقاته، ومنهم ناظر مدرستي السابق الأستاذ إبراهيم عبد العزيز، ويقدره نجيب محفوظ إلى حد التقديس. وإذ ينتهي غداء نجيب محفوظ وأشقائه مع والدتهم ظهر الخميس، كان يذهب في الساعة السادسة إلى قهوة عرابي ليقابل أصدقاءه القدامى جدًّا، الشخصيين، وفي الثامنة مساء يذهب إلى «الحرافيش» وهي شلة حديثة العهد، أما شلة عرابي.. فهي شلة العمر كله!

بداية التكوين والصراع بين الأدب والفلسفة

في أحد الأيام رأيت أحد أصدقائي واسمه يحيى صقر يقرأ كتابًا، رواية بوليسية عنوانها «ابن جونسون»، ويحيى هذا قريب لعبد الكريم صقر لاعب الكرة المشهور، سألته:

ما هذا؟

قال إنه كتاب ممتع جدًّا..

استعرته منه، قرأته واستمتعت به للغاية، كان ذلك ونحن طلبة في السنة الثالثة الابتدائية، بحثت عن روايات أخرى من نفس السلسلة، ثم تساءلت: إذا كان هذا ابن جونسون فأين جونسون نفسه؟ بحثت ووجدت سلسلة أخرى من الروايات بطلها الأب، كانت هذه أول روايات قرأتها في حياتي، كان عمري حوالي عشر سنوات، وكما قلت لك لم يكن هناك مناخ ثقافي في العائلة، والكتاب الأدبي الوحيد الذي رأيته مع أبي «حديث عيسى بن هاشم» لأن مؤلفه المويلحي كان صديقًا للوالد، كنت أقرأ روايات جونسون على أنها حقائق، ولهذا كنت أكاد أبكي، أو أضحك تبعًا لتغير المواقف. من رواية إلى رواية، من بوليسية إلى تاريخية، سارت قراءاتي، وبدأت التأليف وأنا طالب في المرحلة الابتدائية. ولكنه تأليف من نوع غريب، كنت أقرأ الرواية وأعيد كتابتها مرة أخرى، بنفس الشخصيات مع تعديلات بسيطة، ثم أكتب على غلاف الكشكول، تأليف: نجيب محفوظ، وأختار اسمًا لناشر وهمي، أعدت كتابة روايات لسير ريدر هجارد، لتشارلس جارفس، كان التأليف دائمًا في الإجازات، هكذا بدأت كتابتي للرواية، طبعًا مع ملاحظة الإضافات التي أضيفها من حياتي، من علاقاتي وخناقاتي مع الأصدقاء. وبدأت بعد ذلك التنقل في القراءة، حتى وصلت إلى المنفلوطي، ثم المجددين، قرأت أيضًا للمفكرين، وكان المفكرون هم الذين يحظون بالاحترام في هذه الفترة، طه حسين، العقاد، وغيرهما، أما الأدب فقد اعتبرته هواية جانبية، كان الاحترام للفكر، للمقالات، للنقد، للعرض، وليس للقصة، وهذا أثار تساؤلاتي الفلسفية، كان العقاد يثير تساؤلات حول أصل الوجود، علم الجمال، من هنا جاء توجهي إلى الفلسفة، كان الجانب المحترم في الحياة الأدبية هو المقال، أما القصة فغير محترمة، ولهذا كنت لا أفكر في التفرغ للأدب، للقصة، كما أنني كنت متفوقًا في الرياضة والعلوم.

سر الوج-ود

كان اتجاهي معروفًا، إما إلى الهندسة، أو الطب، لهذا عندما فكرت في الفلسفة انزعج والدي انزعاجًا شديدًا، كذلك انزعج المدرسون، لأنني كنت ضعيفًا في المواد الأدبية، أحد أساتذتي واسمه بشارة باغوص -الله يرحمه- سألني مستنكرًا:

لماذا تؤذي نفسك.. ماذا تفعله بنفسك؟

كان المدرسون يعرفون طلبتهم وقتئذ معرفة وثيقة، لأن الفصل لم يكن يضم إلا خمسة عشر، أو ستة عشر، كان المدرسون يراهنون على الطلبة، ويفخرون بالطالب

الذي ينبغ. في البداية لم أكن أفكر إلا في الوظيفة من خلال الكرة، بمعنى أن أحصل على وظيفة تمكنني من البقاء في القاهرة لأواصل لعب كرة القدم، وبعد أن تركت الكرة بدأت أفكر في أن أصير طبيبًا، أو مهندسًا، لأنني قوي في الرياضة والعلوم، هذا هو السبب الوحيد، لكنني بعد أن بدأت أقرأ المقالات الفلسفية للعقاد ولإسماعيل مظهر، وغيرهما، وبدأت قراءاتي تتعمق، تحركت في أعماقي الأسئلة الفلسفية، وجدت أن هذه هي همومي، وخيل لي أنني بدراستي للفلسفة سأجد الأجوبة الصحيحة، ألا يصبح الدارس للطب طبيبًا، والدارس للهندسة مهندسًا؟ إذن فدراستي للفلسفة سوف تجيب عن الأسئلة التي تعذبني. خيل لي أنني سأعرف سر الوجود، ومصير الإنسان، يعني بعد تخرجي، سأتخرج ومعي سر الوجود، وكنت أدهش، كيف يتجاهل الناس سر الوجود في قسم الفلسفة ويدرسون الطب أو الهندسة، بالطبع والدي صدم، وعندما قوبل بإصراري، قال لي: ادخل الحقوق مثل ابن عمك، وابن عمتك، لتتخرج قاضيًا، أو مستشارًا، لكن أي مستشار، أي قاض؟ إنني أريد سر الوجود؟ هل أنت منتبه إلى سذاجة الفكرة؟ كما تتعلم الطب، ستتعلم سر الوجود...

الأدب والفلسفة

... مشيت في حياتي بدون مرشد، وكان أفراد عائلتنا من أصحاب المهن، طبيب، مهندس، قاض، لم يكن أحدهم يهتم بالأدب، من كان سيدلني؟ ولم يكن السؤال ممكنًا، إلى من أتجه؟ إلى العقاد مثلًا؟ هنا يبدو جانب انطوائي، لقد عشت أقرأ للعقاد ولم أره، طه حسين لم ألتق به أبدًا إلا عندما دعانا المرحوم يوسف السباعي لمقابلته في نادي القصة. كنت أعتقد أن الأدب نشاط سري، نشاط أسلي نفسي به، حتى استفحل الأمر كالداء، وحتى بدأ الصراع بعد حصولي على الليسانس. الصراع بين الفلسفة والأدب، وفي السنة الأخيرة لدراستي أدركت ميلي الحاد إلى الأدب، أردت التخصص في الأدب إلى جانب الفلسفة، ولكن المرحوم عباس محمود أخبرني أن هذا مستحيل لمخالفته النظم المعمول بها وقتئذ، أثناء إعدادي لرسالة الماجستير وقعت فريسة لصراع حاد، كل ليلة أتساءل: فلسفة أو أدب؟ كان صراعًا حادًّا من الممكن أن تكون له عواقب خطيرة، استمر ذلك حتى سنة 1936، حسمت الحيرة المعذبة لمصلحة الأدب، وهنا شعرت براحة عميقة، راحة لا مثيل لها، ولكن ظهرت أمامي صعوبة من نوع جديد..

الأدب

كيف تشمل ثقافتي كل ما فاتني؟

الوقت محدود، عملت موظفًا، وكان أمامي الكثير، لهذا بعد تخرجي والتحاقي بالوظيفة استمررت أعمل في البيت وكأنني لا أزال طالبًا، وهذا جعل والدي مهمومًا بي، كان يقول لي: كأنك لم تتخرج، أراك جالسًا إلى المكتب ليلًا ونهارًا، أقول لك هل ستحصل على الدكتوراه؟ تقول لي: «لا».. إذن لماذا ترهق نفسك؟ كان هم والدي أنني أعمل وقتًا طويلًا، كان إحساسي أن الزمن محدود، وفي نفس الوقت أريد أن أقرأ في الأدب، في العلم، في التاريخ، أريد أن أستمع إلى الموسيقى، وفي نفس الوقت أكتب، أكتب بجدية، في السنوات التي سبقت ذلك كنت أكتب المقال في العديد من المجلات، كنت أيضًا أكتب القصص القصيرة، ولكنني كنت أنشر في

مجلات مجهولة، أقصد القصص، يعني أجد مجلة محدودة، تعيش على الإعلانات، أبادر بإرسال قصة لها، ولذلك كان من أهم أيام حياتي يوم أن نشرت لي قصة في مجلة «الرواية»، ربما أقول إنه أهم من يوم حصولي على جائزة الدولة التقديرية، كذلك يوم نشرت في «المجلة الجديدة» لسلامة موسى، لقد نشرت عددًا كبيرًا من القصص، لا أذكر عددها، كما أنني لا أذكر أول قصة نشرت لي، ربما كان الدارسون المهتمون بالببلوجرافيا أقدر مني على الحصر، إن الذي اختار مجموعة «همس الجنون» هو المرحوم عبد الحميد جودة السحار، لم أكن أريد أن أنشر هذه المجموعة، كنت نشرت قبلها الروايات التاريخية الثلاث، والقاهرة الجديدة، وزقاق المدق، وجاء ليقول لي: لماذا لا تصدر مجموعة قصصية؟ قلت له: «أي مجموعة الآن.. لقد فات أوانها»، أنا لم أكتب القصة القصيرة بهدف كتابة القصة القصيرة، أنا كتبت روايات، ودرت بها على الناشرين الذين رفضوا نشرها، ولأنني كنت أريد أن أنشر فقد كتبت القصة القصيرة، نعم هذا هو الدافع إلى كتابة القصة القصيرة، وهنا لاحظ شيئًا هامًّا، وهو أنني أخذت موضوعات بعض هذه القصص من روايات. بعض الناس قالوا إن قصصي القصيرة تحولت إلى روايات، لكن العكس هو الصحيح، السحار أصر على إصدار مجموعة قصصية، أعطيته عددًا هائلًا من المجلات، مجلات لا أذكر عناوينها، ولكنه عندما لاحظ أنني مستاء، قال: «إذن نكتب تاريخ كتابة القصص الحقيقي. متى طلب منك الزيات أن يصدر لك مجموعة قصصية؟» قلت: عام 1938. قال السحار: «إذن اعتبر هذه المجموعة أول كتبك، ستكتب عليها 1938»، ولهذا قد لا يدري القارئ أن «همس الجنون» نشرت لأول مرة بعد ظهور زقاق المدق، وليس في عام 1938 كما هو مكتوب في قائمة مؤلفاتي التي تجدها في كل كتاب. كنت أخشى أن يحدث نشرها صدمة كبيرة، لكن السحار هو الذي أصر، وهو الذي اختار، وهو الذي طبع. كان المرحوم السحار من شلة العباسية، ولكنه حديث نسبيًّا، وكان قد أنشأ لجنة النشر للجامعيين ونشرت لنا، غير أن أول كتاب نشر لي لم يكن له علاقة بالأدب، كنت طالبًا بالثانوي عندما شرعت في ترجمة كتاب «مصر القديمة» لجيمس بيكي، وذلك بهدف تقوية نفسي في اللغة، ثم أرسلته إلى المرحوم سلامة موسى لنشره كمقالات، وفوجئت في أحد الأيام بأحد الأشخاص يطرق الباب ويسلمني نسخة من الكتاب مطبوعة، كأن سلامة موسى قد طبعه كهدية إلى القراء كبديل عن شهرين تتوقف فيهما المجلة «المجلة الجديدة» التي كان يصدرها. لم أصحح الكتاب، ويذكرني ذلك بواقعة طريفة، فعندما تقرر طبع «عبث الأقدار» طلب مني أن أصححها، كنت أقرأ وأشطب الكلمة وأكتب التصحيح فوقها بدلًا من كتابته في الهامش كما هو متبع. ولهذا عندما نظر عمال المطبعة إلى الهوامش وجدوها نظيفة. فطبعت الرواية بأخطائها المطبعية. عرفت في هذه السنوات سلامة موسى، لكنني لم أرتبط بعلاقة وثيقة به. كنت أرسل له مقالات لنشرها، وطلبني لمقابلته، وعندما ذهبت إليه صدم؛ إذ وجدني تلميذًا بالجامعة، لهذا أصبح نشر المقالات أقل وأصعب، فيما تلا ذلك اللقاء يبدو أنه كان يظنني خريجًا، أو رجلًا كبيرًا، لقد نشرت العديد من المقالات، كان معظمها مجرد تعريف بموضوعات فلسفية، أو تلخيص لبعض ما كنا ندرسه في الجامعة، ولهذا رفضت تمامًا أن أجمعها في كتاب، لقد ألح عليَّ صديقي الدكتور محمد يوسف نجم لإعادة

نشرها في كتاب، بالطبع مثل هذا الكتاب سيوزع جيدًا، لكن القارئ لن يجد فيه جديدًا. خاصة أن كُتابًا كبارًا ظهروا في مجال الفلسفة فيما بعد، وأضافوا إليه. لقد انتهت مرحلة كتابتي للمقالة الفلسفية بعد حسم الصراع بين الفلسفة والأدب بعد تخرجي في الجامعة، وهنا أود أن أحدثك بشكل أكثر تفصيلًا عن المرحلة التي تلت ذلك..

التكوين.. والكتابات الأولى

.. بعد حسمي للصراع بين الفلسفة والأدب، وجدت نفسي في مواجهة مشكلة كبرى، كان عمري وقتئذ خمسًا وعشرين سنة، وعليَّ أن أضع نظامًا لدراسة الأدب، والاستمرار في الاطلاع على الجوانب المختلفة للثقافة العامة، ماذا أفعل؟ هل أبدأ من الأدب الإغريقي وأستمر في القراءة؟ هل أتابع العصر الحديث، وأعود من حين لآخر إلى أدب العصور القديمة؟ كان اطلاعي على الأدب الحديث له أولوية، فبدأت منه، كنت بلا مرشد، طبعًا وجدت صعوبة، ولم يكن هناك حركة ترجمة واسعة، لهذا قرأت الأعمال العالمية في اللغة الإنجليزية، كان الحصول على أحدث المؤلفات الإنجليزية في هذا الوقت أسهل بكثير من وقتنا هذا الآن، كنت تجد كافة ما تريده من كتب، والكتاب غير المتوافر تطلبه فيصلك بعد أسبوع على الأكثر، كنت أقوم بجولة أسبوعية على المكتبات في وسط المدينة، ولا زلت أقوم بنفس الجولة صباح يوم الجمعة، لكن الملاحظ أن الكتب المعروضة الآن فقيرة جدًّا في تنوعها، وحداثتها، بالنسبة للمعروض في الثلاثينيات، والأربعينيات. أذكر خلال الحرب الثانية أن أحد أصحاب المكتبات عرض عليَّ أن يشتري مني ما جمعته من كتب بنفس الثمن الذي دفعته، لكنني رفضت، ساعدني في منهجية القراءة كتاب في تاريخ الأدب يستعرض تاريخه حتى سنة 1930، وأذكر أن اسمه «درنك ووتر»، ساعدني هذا الكتاب في اختيار قراءاتي الأدبية، ولأنني بدأت متأخرًا، لم أدرس أي أديب دراسة متكاملة، كان الكتاب يرشدني إلى الأعمال المتميزة لكل كاتب، قرأت «الحرب والسلام» لتولستوي، و«الجريمة والعقاب» لدستويفسكي، قرأت في القصة القصيرة لتشيكوف، ومومباسان، في نفس الوقت قرأت لكافكا، وبروست، وجويس، أحببت شكسبير، أحببت سخريته، وفخامته، ونشأت بيني وبينه صداقة حميمة وكأنه صديق، كذلك أحببت يوجين يونيل، وإبسن، وسترندبرج، وعشقت «موبي ديك» لميلفيل، أعجبني «دوس باسوس»، ولم يعجبني همنجواي، كنت في دهشة من الضجة الكبيرة المحيطة به، أحببت من أعماله «العجوز والبحر»، وجدت فولكنر معقدًا أكثر من اللازم، وأعجبت بجوزيف كونراد، وشولوخوف، وحافظ الشيرازي، وطاغور، وهنا تلاحظ أنني لم أتأثر بكاتب واحد، بل أسهم هؤلاء كلهم في تكويني الأدبي، وعندما كتبت لم أكن أقع تحت تأثير أحدهم، ولم تبهرني الإنجازات التكتيكية الحديثة، تخيل لو أنني كنت تأثرت بجويس وحاولت أن أنهج نهجه في تيار الوعي، لقد قرأت يوليسيس في أواسط الثلاثينيات.. لكنني عندما بدأت الكتابة كنت أطرح هذا كله، وأنهج منهجًا واقعيًّا..

الواقعي-ة..

.. كنت أكتب طبقًا للمنهج الواقعي، في نفس الوقت الذي كنت أقرأ أعنف الهجوم على الواقعية، كان الأدب العالمي الحديث قدتعرض للواقع عبر مئات الأعمال، ثم انكفأ إلى الداخل، إلى تيارات الوعي، واللاوعي، وما وراء الواقع، لكن بالنسبة لي وللواقع الذي أعبر عنه لم يكن قد عولج معالجة واقعية بعد حتى أقدم على استخدام

الأساليب الأدبية الحديثة التي كنت أقرأ عنها وقتئذ، كيف أغوص إلى واقع لم يوصف في ظاهرة، ولم ترصد علاقاته؟ في «خان الخليلي» ناس أحياء، يعيشون ويتألمون، ويترددون على المقاهي، الغوص إلى الداخل يبدو منطقيًّا مع بطل جويس لأنه منطو ومغلق، المهم أن يدرك الكاتب الأسلوب المناسب للتعبير عن موضوعه وعن نفسه، كنت بلا مرشد، وبلا دليل، وكنت أكتب وفق منهج أقرأ السخرية منه، أقرأ نعيه، لكنني الآن أعتقد أن إدراكي كان سليمًا، وكان مما يزيد الأمر صعوبة أننا نفتقد التراث الروائي في الأدب العربي.

التـــراث

.. كنت أقرأ الكتاب المصريين المعاصرين، لكنني كنت أعرف أن القصة أو الرواية بالنسبة لهم على هامش حياتهم، «عودة الروح» أعجبتني كعمل أدبي، ولكنني وجدت أنها أقرب إلى المسرح منها إلى الرواية..

لا.. لم يكن هناك تراث روائي يمكن أن أرتكز عليه..

كان أصحاب الروايات نفسها لا يعترفون بها، الدكتور طه حسين يكتب رواية في الصيف، لكن من طه حسين؟ إنه المفكر. العقاد يكتب سارة، لكن من هو العقاد؟ إنه المفكر، بل إن العقاد كان يحتقر القصة والرواية. إذا كان هؤلاء بأنفسهم يحتقرون الرواية، فكيف ستلتفت إليها من خلالهم؟

كنت أعمل في أرض شبه خالية، وعليَّ أن أكتشف بنفسي وأمهد أيضًا..

من روافد قراءاتي الهامة: التراث العربي، وقد عرفته في سن مبكرة، عندما درست في المرحلة الثانوية بعض عيون التراث العربي، مثل الكامل للمبرد، والأمالي لأبي علي القالي، وكان ذلك بفضل مدرسي اللغة العربية المعممين، وظهر أثر ذلك في موضوعات الإنشاء، كان مدرس اللغة العربية اسمه الشيخ عبد الهادي، يقرأ موضوعاتي في الإنشاء ويشيد بالألفاظ العربية القديمة «.. شوفوا الأسلوب، شوفوا الكلام اللي ما حدش يقدر يفهمه».. وقرأت الشعر العربي القديم، لكنني يجب أن أعترف أنني لم أقرأ التراث بانتظام..

التـــاريخ

بعد أن حسمت الصراع بين الأدب والفلسفة، كنت أفكر فيما يجب أن أكتبه، وفي هذا الزمن كانت الوطنية متأججة، والدعوى إلى إعادة الأمجاد الفرعونية، كنت قرأت في تاريخ مصر، وكانت هناك كتب قيمة في هذا الوقت، قررت أن أكرس حياتي لكتابة تاريخ مصر بشكل روائي، واستخرجت حوالي خمسة وثلاثين أو أربعين موضوعًا، حتى أن الشيخ مصطفى عبد الرازق قال لي «هذا يشبه ما فعله جرجي زيدان». هذا ما كنت قد خططت له. لكن هذه الرغبة، أو هذا الدافع مات بعد رواية «كفاح طيبة»، ماتت الرغبة كما حدث فيما بعد إثر انتهائي من كتابة الثلاثية، مات التاريخ، ما الذي أحياه، ما السبب في موته؟ لا أدري، استوحيت رواية «رادوبيس» ورواية «عبث الأقدار» من أسطورتين، أما «كفاح طيبة» فكانت انعكاسًا للظروف التي تمر بها مصر وقتئذ، لهذا تجد الجوانب التاريخية عندي ضعيفة، وعندما تقرر منحي جائزة عن رواية «رادوبيس» كلمني في التليفون أحمد أمين، قال لي: أريد أن

أسألك سؤالًا، لماذا وضعت عجلات حربية في رادوبيس؟ قلت: أعرف أن العجلات الحربية دخلت مع الهكسوس، ولكنني أردت استخدام الخيال، وأنا أعرف ما أقوم به..

لقد كان هناك مد فرعوني، وهو مد كانت له مبرراته الموضوعية، إذ إن العصر الفرعوني هو المرحلة المضيئة الوحيدة في مواجهة الواقع المر الذي كنا نعيشه، كانت كفاح طيبة ضد المحتل الإنجليزي، والحاكم التركي القابع في السراي، كنت أغلي ضد الإنجليز، وضد الأتراك، كنت قد درست تاريخ مصر الفرعونية دراسة كاملة، توشك أن تكون دراسة متخصص، وعزمت على كتابة هذا التاريخ في روايات، كان من الموضوعات التي اخترتها، موضوعات عن الرعامسة والتحامسة، وكان لديَّ موضوع مهم عن أخناتون، كنت أواظب على حضور محاضرات قسم الآثار، درست كل ما يتعلق بالعصر الفرعوني، الحياة اليومية، وسائل الحرب، الدين، كيف ألقيت بهذا المجهود الكبير بعد كفاح طيبة، وأكتب «القاهرة الجديدة»؟ ربما لأن التاريخ أصبح عاجزًا عن أن يمكّنني من قول ما أريده. ربما كنت أريد الدخول مباشرة في معالجة الموضوعات الاجتماعية، قد يكون هذا كله صحيحًا، لم أعد إلى التاريخ فيما بعد، بل إنني اعتبرت الجهد الذي بذلته في دراسة التاريخ جهداً ضائعًا لأنني لم أرجع إليه فيما بعد، لم أستفد منه، وإن كان قد ترك أثرًا في تكويني، قد لا أعيه، ولكنه حقيقي، الآن تبدو عودتي إلى التاريخ صعبة، لكن من يدري، قد أعود إلى التاريخ يومًا فكثيرًا ما يستعصى علينا حاضرنا..

الع_لم

إنني شغوف بقراءة العلم.

قراءة هذه الكتب التي تلخص نظريات العلم وتبسطها للناس، بل أقول إن قراءة العلم أهم عندي أحيانًا من الأدب، إن الأدب يمنح المتعة والشكل وخبرة بالحياة، لكن بالنسبة للثقافة العامة تجدها في الفلسفة والعلم، ولاحظ أن القراءة في العلم تختلف عن الإيمان بالعلم، إنني أؤمن بالعلم، ويرجع الفضل في ذلك إلى المفكرين والكُتاب الذين بشروا بالعلم، ومنهم سلامة موسى الذي نبهنا إلى دور العلم في الحضارة الحديثة. ولو أن النظرة الآن إلى العلم تختلف عن النظرة إليه في القرن التاسع عشر، لا شك أنه نزل عن كبريائه إذا صح القول مع أن إنجازاته تعاظمت.

عادات القراءة

إنني أقرأ في العلم إلى جانب الأدب والفن، لهذا تجدني أقرأ أكثر من كتاب في وقت واحد، لديَّ نهم حاد إلى القراءة لم يحد منه إلا مرض السكر الذي حد من نشاطي في العام الأخير عندما اضطررت نتيجة لأوامر الأطباء إلى العمل ساعة والراحة ساعة، ولأنني بدأت دراسة الأدب في سن متأخرة، لهذا لم أعاود قراءة عمل أدبي مرتين، كانت الرقعة واسعة جدًّا، ونهمي إلى الجديد لا يسمح بقراءة عمل مرتين. وإلا.. كان فيه أعمال عزيزة جدًّا على نفسي كان يجب أن أقرأها مرتين، مثل «الحرب والسلام» لتولستوي، و«البحث عن الزمن الضائع»، ولو أنه بتقدم العمر فترت الرغبة في الاطلاع على الأدب، اليوم إذا كان أمامي كتاب فكري يبحث عن الحضارة أو العلم يصبح أكثر جاذبية لي من رواية أو مسرحية، ربما لأن النصف الثاني من القرن

العشرين لم يشهد شوامخ أدبية تناطح القمم الأدبية. بخلاف زمان، يعني عندما تقرأ مثلًا الجبل السحري لتوماس مان، تجد متعة فنية وفكرية، لا يوجد مستوى كهذا الآن، في هذه السنة قرأت رواية «مائة سنة من العزلة» لجرسيا ماركيز، لولا أنك أعرتها لي وزكيتها لي لما كنت قرأتها، يعني لو وجدتها في مكتبة مدبولي ربما كنت لن أشتريها، إن الجديد القادم من أوروبا لا يشجع، ولاحظ أن ماركيز من كولمبيا.. أمريكا اللاتينية. إنني أتابع إنتاج الشبان بدقة، هذا صحيح، ولكن هذا أمر مختلف، هنا إحساس بالواجب والرغبة في معرفة تطور أدبنا، لهذا تجدني أقرأ ما يصلني لأعرف كيف يكتب الشبان، أعرف أن هناك رؤية جديدة، تطورًا جديدًا، ما يصلني من أدب عربي معاصر أقرؤه أيضًا، في الماضي كان الإبداع العربي خارج مصر محدودًا جدًّا وكان في أغلبه أدبًا فكريًّا، قرأت معظم ما أتيح لي الاطلاع عليه، تصور أن ذلك كان أسهل في الثلاثينيات، كنت تجد في المكتبة التجارية كتبًا لمؤلفين عراقيين، أو سوريين، أو مغاربة، الآن.. لا، ليس لدينا سوق مشترك للكتب وهذا مؤسف، معظم اطلاعي على أدب البلاد العربية كان بواسطة أصدقاء، كأن يجيء صديق مسافر ويعطيني كتابًا، أو مؤلف يرسل لي كتابه، لكن السوق شحيح..

العقـــلانية...

.. لاشك أن قراءتي للفلسفة كان لها تأثير كبير فيما بعد، أشعر بهذا بشكل شخصي، بعض النقاد يقولون إن الرؤية الفكرية واضحة في أعمالي، فيها عقلانية، طبعًا تعرف أن الأدب الأوروبي في القرن العشرين غلب عليه الطابع الفكري، لم نصل نحن إلى ذلك في تقديري حتى الآن، إنما لا يخلو أدبنا من فكر، ولكن لا يقارن بأدب سارتر، أو كامي، كان الأدب في القرن التاسع عشر يعكس الواقع بشكل فني، الحياة بكل دوافعها، عواطفها وانفعالاتها، كذلك المتعة في القصص، والحكاية، تغير ذلك في القرن العشرين. هناك روايات تبدو وكأنها كتب فكرية، غلب الطابع الفكري على الخلق..

العبــث

لا.. بالتأكيد، أنا لست عبثيًّا... هل تعرف ماذا يعني العبث؟.

إنه يعني باختصار، أن الحياة لا معنى لها، والحياة بالنسبة لي لها معنى وهدف.. إن تجربتي الأدبية كلها مقاومة للعبث، ربما كنت أشعر بدبيب عبث، لكنني أقاومه، أعقلنه، أحاول تفسيره، ثم إخضاعه، بعض أبطال الحرافيش يبدون وكأن حياتهم ضاعت عبثًا، لكن في إطار العائلة الكبيرة لم تكن عبثًا.

لا ياعزيزي جمال.. أنا لست عبثيًّا، إن أكمل شكل للعبث تجده عند بيكيت، تلك هي النظرة العبثية الحقيقية، إنها فقدان الإيمان بأي شيء، ليس الإيمان بالدين فقط، ولكن أي إيمان من أي نوع، أحيانًا يزحف الشعور بالعبث خاصة في لحظات اليأس والضيق، الحياة من حولنا تبدو قاسية، حياتنا الشخصية في واقعنا المحلي تبدو أحيانًا عبثية، بالضبط.. عبث اجتماعي كما تقول، لا معقول واقعي، لا يضيع العبث إلا انتصار من نوع معين يرد الثقة إلى النفس، إننا نعيش حتى الآن إحباطات داخلية مستمرة منذ أن وعينا، مجرد أن نتنفس نجد من يجثم على أنفاسنا ليكتمها ويفسد حياتنا. وهذا فظيع، لذلك لن تجد نغمة الانتصار الأولى التي كانت في جيل ثورة

1919، نفس هذا الجيل وصلت إليه الإحباطات، لكنه تذوق الانتصار، بدأنا نعي وهذا يتحطم، نعم.. يتحطم، أنا بدأت أقرأ الصحف في سنة 1926، كان عمري أربع عشرة سنة، كانت الثورة قد هدأت، وبدأت التنازلات، ثم الإحباطات، ثم القمع، واستمر ذلك، أتيح لنا التنفس بعد 1952، ولكن سرعان ما انتكس الوضع، وهكذا، على أية حال أعترف لك بأنني سقطت في العبث لدقائق بعد هزيمة يونيو، صحيح أن المقاومة بدأت، لكن كان الواقع يبدو عبثيًّا، فظيعًا..

اللغـــة

لم يكن نهمي إلى القراءة فقط، ولكنني كنت أحب اقتناء الكتب أيضًا، فيما عدا كتب التاريخ النادرة التي كانت في دار الكتب، أو مكتبة الجامعة التي كانت أغنى من دار الكتب. قرأت معظم الأعمال العالمية في اللغة الإنجليزية، وقرأت بالفرنسية أيضًا، ولكن بالإنجليزية أكثر، لم يكن ممكنًا بالنسبة لي قراءة بروست فى الفرنسية، قرأته بالإنجليزية، لكنني قرأت أناتول فرانس في الفرنسية، أصعب شيء قراءة عمل أدبي في لغته الأصلية لأن الأسلوب الأدبي منمق، وأحيانًا يكون صعبًا، قراءة كتاب علمي أسهل، لأن الأسلوب واضح.

المكتبـــة

.. مكتبتي الآن موزعة إلى قسمين..

البيت القديم في العباسية، حيث يقيم ابن شقيقتي المهندس محمود الكردي، وبيتي في شارع النيل، السبب ضيق المكان، بعد زواجي نقلت إلى البيت الكتب الأساسية، ولأن المكان ضيق، والشراء مستمر، أصبحت أمتلك خزانة كتب وليست مكتبة، تصور أنني عندما أريد الرجوع إلى كتاب معين في مكتبتي لا أبحث عنه، الأسهل بالنسبة لي أن أشتريه من جديد، أصبح البحث صعبًا لتكدس الكتب، لديَّ عدد هائل من الروايات، والكتب العلمية، وفي مختلف المجالات، ومجموعة نادرة من كتب الفن، مثلًا مؤلفات هربرت ريد، في كل كتاب خمسون أو ستون لوحة، لا تقدر بثمن الآن..

نعم.. نعم، كنت من الذين اشتروا نسخة من دائرة المعارف البريطانية عندما استوردتها دار المعارف لأول مرة، اقتنيتها لأنها مرجع في أي مجال قد أحتاج إليه، وأحيانًا، بعد تعذر وصول الكتب الأجنبية الجديدة أقرأ في دائرة المعارف، خاصة عندما أفتقد شيئًا جيدًا..

كنت في حالة قراءة مستمرة، ثلاث ساعات يوميًّا، أقرأ بعد أن أكتب لأنني لو فعلت العكس لما استطعت النوم.

كان نهمي إلى القراءة كبيرًا...

لكن جاء الحد من ساعات القراءة في العام الماضي كخبطة موجعة لي..

إنني حقًّا حزين، لكنني.. أحمد الله على أية حال، فلازلت قادرًا على القراءة وإن كان الوقت أقل..

* * *

الخروج من الظل.. إلى دائرة الضوء..

... عدد كبير من القصص نشرته في أوائل الثلاثينيات، معظمه لم تضمه مجموعة، كما أنني نسيت تمامًا المجلات التي كنت أرسل إليها قصصي، في هذا الزمن كان عدد المجلات الجادة في مصر أكثر من مجلات التسلية، بل إن الأخيرة كانت نادرة، كان عدد المجلات الجادة كبيرًا، تقدم التراث العالمي في الأدب، والتراث الحديث، لم يكن هناك أي مشكلة في تتبع مصادر الثقافة، أما المجلات العامة، مثل المصور، آخر ساعة، اللطائف المصورة، فمحدودة العدد والانتشار، ولم تتوسع هذه المجلات إلا بعد الحرب العظمى، كان عدد المتعلمين في مصر محدودًا، لكن من يقرأ يشكلون نسبة عالية، لو استمرت هذه النسبة مع ازدياد عدد المتعلمين، لو ظلت كما هي، لأصبح لك مثلًا مائتا ألف قارئ، نعم.. مائتا ألف قارئ، لك أنت بالذات، كان لكل جريدة صفحة أدبية يومية، ولكل جريدة عدد أسبوعي مستقل، مثل البلاغ الأسبوعي، والسياسة الأسبوعية، بخلاف المجلة الجديدة والمقتطف، والحديث..

أول جنيــه!

لم تربطني أي علاقة بأصحاب المجلات التي نشرت لي، كنت أرسل قصصي أو مقالاتي بالبريد، الوحيد الذي استدعاني سلامة موسى، كانت الكتابة بلا مقابل، ويبدو أنه عندما لاحظ أنني كتبت عنده لفترة طويلة أراد أن يكافئني معنويًّا، ربما كان ذلك هو الدافع لاستدعائي..

استمررت أنشر بلا مقابل، أول قصة تقاضيت عنها أجرًا تقاضيته بعد أزمة تسببت فيها، كنت أنشر في «الرواية» و«الرسالة» مجانًا، المرحوم صلاح ذهني طلب مني قصة لمجلة «الثقافة»، أعطيته قصة ونشرت بالفعل، آخر السنة اتصل بي تليفونيًّا، قال لي: يا أخي أنت سببت لنا مشكلة، قلت: خيرًا.. لماذا؟ قال: لك جنيه مكافأة لم تصرفه. دهشت، سألته: ولكن.. لماذا تعطونني هذا الجنيه؟ قال: إنه مكافأة عن قصة. تزايدت دهشتي، سألت: «هي القصص بفلوس؟».

عرفت أنهم أثناء مناقشة الميزانية العمومية في نهاية السنة وجدوا هذا الجنيه الذي حال دون تقفيل الميزانية.

الكتــاب الشعبي...

في سنة 1943، بدأنا النشر في لجنة النشر للجامعيين التي أسسها المرحوم عبد الحميد جودة السحار، وشقيقه سعيد السحار أطال الله في عمره، كان الكتاب يطبع منه ألفا نسخة فقط، حتى أصدرت روز اليوسف سلسلة الكتاب الذهبي، طبعة شعبية، طلبوني، ذهبت إلى سعيد السحار أخبره، لأنني كنت أخلاقيًّا ملتزمًا بطباعة كتبي عنده، وافق بشيء من الضيق، قال: انظر إلى كتبكم، طبعنا من كل كتاب ألفي نسخة فقط، بعض الكتب مضى عليها عشر سنوات، ولكن ما زال متبقيًّا منها في المخزن ما بين أربعمائة أو خمسمائة نسخة، فما بالك بكتاب سيطبع منه خمسة عشر ألفًا، بالطبع لن تصدر طبعة ثانية منه أبدًا.. المهم أننا اتفقنا، وسلمت روز

اليوسف رواية «خان الخليلي»، وفوجئت بوضع جديد، لأول مرة يعلن عن كتاب لي، إعلانات متوالية، صورة كاريكاتورية للمؤلف وهو يقدم كتابه، شكل جديد من النشر، وإذا بالخمسة عشر ألف نسخة ينفدن في أسبوع، ليس ذلك فقط، ولكن المخزون من الكتب في مخزن سعيد السحار ينفد، ثم يعاد طبع الروايات، وتباع، طبعة ثانية، ثالثة، رابعة، الكتاب الشعبي لم يقتل الطبعات الأخرى بل أحياها، كيف تفسر ذلك؟ لا أدري. كان تفسيري أن عدد القراء كبير، وأن الطبعة الشعبية وصلت إليهم، وصلت إلى قراء كنا نجهل الطريق إليهم. كانت لجنة النشر للجامعيين تعلن بشكل محدود جدًّا، مجرد إعلان صغير، لكن روز اليوسف قامت بحملة إعلانية كبيرة، وهذا وضع مستمر حتى الآن، فرق كبير أن تطبع كتابًا في دار نشر، وأن تطبعه في سلسلة شعبية، إذا كان السحار له الفضل في طباعة كتبي، فإنني مدين بالانتشار إلى الكتاب الذهبي..

انهيار.. بسبب الثلاثية...

سببت لي الثلاثية صدمة حادة، عانيت منها كثيرًا..

بعد أن كتبت عبث الأقدار، وبداية ونهاية، وخان الخليلي، والسراب، ورواياتي الأولى، وبعد أن انتهيت من الثلاثية، ذهبت بها إلى سعيد السحار، كانت الثلاثية رواية واحدة عنوانها «بين القصرين»، أما التقسيم إلى ثلاثة أجزاء فله قصة أخرى سأرويها لك بعد قليل، نظر سعيد السحار إلى الرواية، وتساءل: ما هذا؟ قلت: رواية جديدة.. «بين القصرين»، أمسك بالرواية، قلب صفحاتها الألف، قال.. كيف أطبع هذه؟ إن ذلك مستحيل..

عدت إلى البيت وأنا في منتهى الحزن. شوف.. كان في مكتبي أحيانًا ثلاث روايات لم تنشر، ولكنني لم أضق بذلك أبدًا. ولكن في هذه الليلة حدث لي انهيار.. أبعد هذه السنوات من العمل، أبعد هذا الجهد الشاق لا أستطيع نشر أكبر وأعز عمل؟. مررت بأيام يأس، وفي إحدى المرات كنت في نادي القصة، وتحدثت عن روايتي الضخمة التي فشلت في نشرها، وإذا بالمرحوم يوسف السباعي يطلبها مني، قال: نحن سنصدر مجلة، لا أذكر متى دار هذا الحديث بالضبط، قبل الثورة أم بعدها؟ لقد انتهيت من الثلاثية في إبريل 1952. يوسف السباعي أخذ مني «بين القصرين» كلها، وكانت نسخة مخطوطة، أي لم يكن لديَّ صورة منها، لم أكن قد نسختها على الآلة الكاتبة. نعم.. كان من الممكن أن تضيع، لو أن هذه النسخة الوحيدة فقدت من المرحوم يوسف السباعي لأي سبب لضاعت الثلاثية إلى الأبد، بعد الثورة وتغير الظروف، اتصل بي قال: سنصدر مجلة، وسننشر الرواية. ثم صدرت «الرسالة الجديدة» وبدأ نشر بين القصرين. من الذي شعر بنجاح المسلسلة؟ سعيد السحار، قال لي إن الرواية ناجحة، ولكن صدورها في كتاب واحد مستحيل لأنها ضخمة جدًّا، اقترح تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء بدلًا من ثلاث فترات، سألته: والاسم؟، قال: سمها ثلاثة أسماء. ومن هنا جاء عنوانا «قصر الشوق» و«السكرية»، وأصبحت بين القصرين ثلاثية..

أذكر الفترة التي تلت رفض السحار نشرها بأسى، كانت صدمة فظيعة، بل إهانة، خاصة عندما قال لي لحظة رؤيته لها «إيه الداهية دي؟»..

صدرت الثلاثية، وانتشرت بسرعة، كان أول كتاب يروج لي خارج السلسلة الشعبية: «بين القصرين»، ثم توالت الطبعات، والرواج، حتى بدأ تزوير الكتب في بيروت سنة 1965، منذ 1965 حتى سنة 1970 ضعفت حركة التوزيع ضعفًا كبيرًا، ماتت الكتب، بينما أصدقاء سعيد السحار في الخارج يرسلون إليه النماذج المزورة، ولم يكن هذا بالنسبة لي فقط، إنما لعديدين، التزوير استمر حتى الآن، لكن ربما كان له ما يبرره الآن، أقصد المقاطعة بسبب الظروف السياسية، ولكن في عز ألمي بسبب التزوير كنت أجد عزاء من نوع آخر، إذ أوصلنا الكتاب المزور إلى مناطق لم نصلها، مثل شمال إفريقيا، والسبب: أننا لم نكن نجيد عملية التوزيع.. كان انتشارًا أدبيًّا، وليس ماديًّا، لقد طبع من أعمالي أكثر من مليون نسخة، لم أتقاض حقوقي إلا عند مائة وخمسين ألفًا ومائتين، الطريف أن المزورين كانوا يحتفظون باسم «مكتبة مصر وسعيد السحار» على الأغلفة، نفس الأغلفة ولكنها باهتة قليلًا.

كنت فيما مضى أتخيل نفسي في السن التي أستحق فيها معاشًا كاملًا، وأخطط لإحالة نفسي حتى أتفرغ للأدب تمامًا بعيدًا عن الوظيفة، ولكنني عندما وصلت إلى هذه المرحلة من العمر اكتشفت أنني في حاجة إلى مرتبي كاملًا، أعباء الحياة تتزايد باستمرار، تصور أن المرتب الوحيد الذي كان يكفيني في حياتي منذ بداية الشهر وحتى نهايته، بل وأدخر منه، كان مرتبي الذي تقاضيته عندما التحقت بوزارة الأوقاف في الثلاثينيات، كان صافي ما أقبضه ثمانية جنيهات، وكانت سنوات الأزمة الاقتصادية التي أفلس فيها التجار، ولم ينج من ضنكها إلا أصحاب الدخول الثابتة، أقصد الموظفين. لم أفكر أبدًا في الأدب كمصدر دائم للرزق، إن ذلك مستحيل عمليًّا، لكن هناك فترة كان من الممكن أن أكتفي فيها بدخلي من الأدب، وهي السنوات القليلة التي توالت فيها الطبعات، وانتهى ذلك في سنة 1965، عندما بدأ تزوير الكتب في الخارج..

الآن مستورة والحمد لله.

* * *

الروايات الكبرى... الثلاثية..

.. في الحقيقة أن فكرة الثلاثية جاءتني على دفعات، أستطيع تحديد اللحظات الأولى، كنت أقرأ في كتاب عن أجرومية الرواية، في الواقع أنا قرأت العديد من الكتب عن فن الرواية، أول ما تعرض له هذا الكتاب الرواية التي يسمونها رواية الأجيال، أو رواية الأزمان التي تعرض أجيالًا عديدة متوالية، أعجبني الشكل، هنا كنت أقرأ عن نوع محدد من الرواية، هنا بدأت محاولة التذكر، عما إذا كنت قد قرأت عملًا أدبيًّا من هذا النوع؟.. لا.. لم أكن قد قرأت، بالمناسبة.. هناك أشياء تقرؤها ولا تستجيب لها، وهناك قراءات أخرى تتجاوب معها، ما تردد داخلي بقوة، ضرورة أن أكتب رواية من هذا النوع، ولكنني ترددت، مثل هذه الرواية في حاجة إلى تمرين طويل، وتفرغ كامل، يعني إذا كان لديَّ مشروع رواية أفرغ منه أولًا، مثل زقاق المدق، السراب، وفي هذه الأثناء أصدر طه حسين رواية «شجرة البؤس»، وجدتها قريبة جدًّا من هذا النوع، أقصد رواية الأجيال، ولكنها قصيرة إلى حد ما، في هذه الفترة أخطأت خطأ كبيرًا، لم أكرره فيما بعد أبدًا في حياتي، في هذه الفترة تحدثت كثيرًا عن هذا النوع من الروايات، وأفضت في شرح أفكاري، ونيتي في كتابتها يومًا ما، أحد الأدباء الذين استمعوا إليّ ذهب وشرع في كتابة رواية من هذا النوع، أي رواية أجيال، وأصدرها بعد ستة شهور، منذ هذه التجربة تعلمت ألا أحكي أي شيء، أي تفاصيل عن مشروعاتي، بالطبع لك أن تتخيل قيمة الرواية من الناحية الفنية إذا كانت قد كتبت وصدرت في ستة شهور فقط..

المهم.. أعود إلى طه حسين، كانت شجرة البوس رواية أجيال ولكنها صغيرة، سيطرت الفكرة عليَّ تمامًا، وهنا بدأت أقرأ الروايات الكبرى التي تعرض للأجيال، قرأت «ملحمة أسرة فورسايت» لجولزورثي، و«الحرب والسلام» لتولستوي، و«آل بودنبروك» لتوماس مان، في لحظة معينة شعرت أنني وصلت إلى نقطة معينة امتلكت فيها زمام الموضوع، هنا نقطة لابد من توضيحها وهي أنني لم أعتد قراءة أعمال معينة قبل أن أكتب إحدى رواياتي، ولكن هذه القراءات كانت جزءًا من ثقافتي واطلاعي، إن أعمالي تنتمي إلى المدرسة الواقعية، وهناك روايات لا حصر لها تمت إلى هذه المدرسة، لكن العمل الأدبي الوحيد الذي كتبته ولم أقرأ له شبيهًا، ولم أستطع تصنيفه في مدرسة معينة، هو.. «حكايات حارتنا»..

شخصيات بين الواقع.. والخلق..

.. في السنوات التي سبقت الثلاثية كانت التفاصيل تتراكم من هنا وهناك، من جلسة، من حوار، من سهرة، إن تسعين في المائة من شخصيات الثلاثية لها أصول واقعية، بعضها من عائلتنا، بعضها من جيران، بعضها من أقارب، بالطبع الشخصية الواقعية تنسى، لأن الخلق يحيلها إلى شيء آخر، الأصل في الواقع ينسى، ولا يعرف تاريخيًّا إلا طبقًا لتسجيلك أنت، الأصل لا يهم، وجدت أنها تجربة لا دخل فيها بشخصيتي، إن الثلاثية هي العمل الوحيد الذي يحتوي جزءًا كبيرًا من عقلي وقلبي، بعض الناس يقولون لي: أليس في شخصية أحمد عاكف شيء منك؟ وهذا غير

صحيح على الإطلاق، أحمد عاكف شخصية حقيقية، كان موظفًا في الجامعة، بالتحديد في إدارة الجامعة، قرأ الرواية بعد صدورها ولم يعرف نفسه، لم يعرف أبدًا أنني استوحيت بطل الرواية منه هو، وهذا يدلك على شيء غريب أيضًا، رأي الإنسان في نفسه، ورأي الآخرين فيه، ما أبعدهما عن بعض، كان أحمد أفندي عاكف الذي عرفته مجرد موظف صغير بإدارة الجامعة، كان يظن أنه يعرف كل شيء في مصر، كان لديه البكالوريا فقط ويظن أنه جمع علوم الدنيا كلها، كان أرعن وسطحيًّا، والمخاطرة التي تحملتها أنه لو عرف أنني استوحيته في «خان الخليلي» ربما هدد ذلك حياتي، ربما كان يعتدي عليّ، إذ إنه لم يكن طبيعيًّا بالمرة، وبالمناسبة، تعرضت حياتي مرة أخرى بسبب إحدى الشخصيات التي استوحيتها من الواقع، أقصد بطل «السراب» إنه شخصية حقيقية، كان حاصلًا على» ليسانس الحقوق، اسمه حسين بدر الدين، لم يكن يقرأ أي روايات أو أي نوع من الأدب، أحد أصحابنا من شلة العباسية، لعلك تذكره.. علي محمد علي، ذهب إليه وقال له بسخرية «نجيب كاتب عنك»، عندئذ أخرج مسدسه، وشتمني، بالطبع اختفيت عنه، كان هذا الشخص من الأثرياء، ضيع ثروته حتى تسول، وكان ينام بمقهى الفيشاوي، دخل السجن بسبب المخدرات، كانت العقدة في حياته علاقته بأمه، وكان دائمًا يصاحب العديد من النساء، وفي نفس الوقت لا يمارس أي فعل، كان من الممكن أن يقتلني، مع أنه لم يقرأ الرواية، كان شخصًا شريرًا شاذًا، في الرواية تجد شخصًا آخر، رقيقًا وهادئًا، كاد صديقي علي محمد علي أن يتسبب في مأساة بسبب حبه للسخرية. سافر حسين بدر الدين إلى الكويت، وهناك عمل بمساعدة أحد أصدقاء والده، ثم مات، أما أحمد عاكف الواقعي فلا أدري إن كان على قيد الحياة أم توفاه الله الآن.. أذكر أنه زارني آخر مرة منذ ثلاثين عامًا، ثم اختفى.. والآن.. لنرجع إلى الثلاثية..

الثلاثيــة

.. كتبت الثلاثية وأنا في عنفواني، صبور، جلود، عمل كهذا كان يحتاج إلى صبر، إلى صحة، لو أنك رأيت أرشيف الثلاثية ستدرك مدى ما أقول، ما خططته من أجل كل شخصية، كل شخصية كان لها ما يشبه الملف، حتى لا أنسى الملامح والصفات، خاصة وأنني أعمل في كل سنة من أكتوبر إلى أبريل فقط بسبب مرض الحساسية الذي يصيب عيني، كذلك التخطيط للرواية كلها بحيث تمضي في بناء متماسك، قسم كبير من الأوراق والكراسات، كتبتها في أكثر من أربع سنوات، بدقة، بهدوء، بتأن، تحدوني الرغبة إلى أن أنهي شيئًا جيدًا، ولم يكن صراعي مع اللغة قد بدأ بعد والذي واكب الأشكال الحديثة، كنت أكتبها بأسلوب هادئ، بالمناسبة، فإن أكبر صراع خضته في حياتي كان مع اللغة العربية، منذ أول كتاب، في عبث الأقدار تجد أسلوبًا قرآنيًّا. كما تعلمنا.. إن الأسلوب لا علاقة له بالموضوع، وعندما جئت إلى الأدب الواقعي، كان الأمر صعبًا، كان الأسلوب لا يمشي في يدي، لا يطاوعني، دخلت في صراع بلا شعور بيني وبين اللغة، ربما لو كنت أدري أنني في صراع كنت فقدت الاتجاه، لكن الخناقة دارت في اللاشعور، كيف أذلل اللغة؟ كيف أطوعها؟ كيف يكون الحوار مقبولًا مع أنه فصيح، ولذلك إذا استعرضت بعض القصص الأولى ستجد أشياء مضحكة، على سبيل المثال ربما تجد شخصية في مقهى بلدي وتتحدث بأسلوب فصيح متقعر، لم يكن هناك مثال أحتذيه. كل العباقرة الذين سبقونا لم

يكتبوا عن أحياء شعبية، وإذا كتب، فإنه يكتب الحوار بالعامية، ليست هنا مشكلة، وإنما أن تطور اللغة كي تصبح فنية وواقعية، فتلك مشكلة، وهذا أصعب ما وجدته، أو صادفته في حياتي الروائية، لم يكن هناك نموذج يحتذى، ومما يلاحظ على كتاب الدكتور عبد المحسن طه بدر «نجيب محفوظ.. الرؤية والأداء»، أنه لم يتكلم عني في موقعي، لم يقل كيف وجدت الرواية، كيف تطورت بها، وإلى أي حد وصلت، لم يراع الظروف التي كانت محيطة بي في البداية، لقد تحدث حديثًا مطلقًا، كأنه يتكلم عن أديب إنجليزي، لو رجع إلى اللحظة الزمنية التي بدأت فيها الكتابة وعرف المتاعب التي واجهتني، لما جاء بحثه مجردًا، بحثًا عقلانيًا.

معايشــة دائمــة

.. نعود إلى الثلاثية، إن مادتها يمكن القول إنها عاشت معي منذ الطفولة، الناس الذين كتبت عنهم عايشتهم على فترات زمنية مختلفة من حياتي، الحكاية هي.. كيف كان يمكن أن أصب هذه التفاصيل في عمل واحد، الحقيقة من الصعب القول أن أقول لماذا خرجت بهذا الشكل، ولم تصدر بشكل آخر، كان من الممكن أن تخرج في النهاية بأشكال عديدة، كيف تكون في خلايا مخي بهذه الطريقة بالذات، فهذا ما لا أستطيع أن أجد له تفسيرًا واضحًا، كانت الثلاثية شاغلي طوال السنوات التي عملت خلالها على إنجازها، وهنا أود أن أقول لك ملاحظة هامة، إذا كان عندك موضوع معين فلا تؤجله. لماذا؟ كان عندي موضوع عن مصر الحديثة بعد الثورة، لم أفكر فيها كثلاثية مع أنني كنت أخطط لها على هذا الأساس، في هذه الفترة لم يكن لديَّ الصبر أو الجلد أو الثقة بأن العمر سيسمح بإنجازها، أثناء كتابتي للثلاثية كان عندي إحساس يقيني أنني سأنهيها، طبعًا من الممكن أن يموت الإنسان في أي وقت، ولكن هذا الإحساس أفتقده الآن، لا أعتقد أنه يمكنني المجازفة بعمل ضخم كهذا في مثل عمري الآن.. لا.. الحرافيش استغرقت في كتابتها سنة، فكرت فيها حوالي سنة، واستغرقت كتابتها سنة أخرى، وكانت دفقة خيال، لا يحتاج إلى جهد كبير مثل الذي احتاجته الثلاثية، العمل الواقعي الذي يحتاج إلى رصد وتجميع، أمَّا وقت الحرافيش فكان ملمومًا .. بخلاف الثلاثية، كانت شخصيات الثلاثية لا تبرح فكري إطلاقًا، ومن هنا حافظت على وحدة الاتجاه في الرواية، حتى فترة الإجازة، أو في فترات الانقطاع بسبب شغلي في وزارة الأوقاف، حتى في السينما، كنت أعايش الشخصيات والأحداث، وعندما كنت أستأنف الكتابة بعد انقطاع لم أكن أعيد قراءة ما سبق أن كتبته، الله يرحمه محمد عبد الحليم عبد الله قال لي إنه حريص على قراءة ما سبق أن كتبه، إنني أقرأ العمل بعد أن أعيد كتابته، بعد التبييض أنتظر فترة، ثم أعيد قراءته، وفي جميع الحالات أشعر بعدم الرضا، أشعر بالفرق بين التصور المبدئي وبين ما أنتجته فعلًا، بين الطموح وبين ما تحقق، ولكنه عدم رضا لا يؤدي إلى إلغاء ما كتبته، المرة الوحيدة التي اضطررت فيها إلى إلغاء عمل كتبته حدثت بعد انتهائي من رواية «ما وراء العشق» وقد كتبتها خلال السنوات الأخيرة، بعد انتهائي منها شعرت بعدم رضا نهائي، من الصعب أن أقول لك ما الذي أثار ضيقي منها، كنت مطمئنًا إلى القسم الأول منها، لكن القسم الثاني أشعرني بعدم ارتياح، ولكن هذا نوع مختلف عن عدم الارتياح الذي ينتج بسبب ما كان في خيالك، وما تحقق بالفعل، لقد كان لديَّ ثلاث روايات «أفراح القبة» و«ألف ليلة وليلة» وتلك الرواية، دفعت

بالروايتين الأوليْين إلى النشر، واحتجزت «ما وراء العشق» إلى السنة القادمة، كي أعيد فيها النظر..

كيف أنظر إلى الثلاثية الآن؟

الحقيقة أنني لم أعد النظر فيها، لم أقرأها مرة أخرى، لكن يمكن القول بأن الثلاثية وأولاد حارتنا والحرافيش، هي أحب أعمالي إلى نفسي... في الثلاثية كما قلت جزء كبير من نفسي، يتمثل في شخصيةكمال عبد الجواد، وكمال لم يدخل إلى الثلاثية اعتباطًا، وليس لأنه جزء مني، ولكنه ظهر بهذه الصورة لأنه جزء لا يتجزأ من موضوع الرواية. الرواية قادمة من عصر كلاسيكي، ومتوغلة في عصر رومانتيكي، ومتجهة إلى عصر تحليلي، وفيها تلاقي الشرق بالغرب، ولكن ليس من خلال رحلة كتلك التي قام بها توفيق الحكيم، أو يحيى حقي، أو الطيب صالح، إنها تمثل الذي وجد الغرب وهو في الشرق، جاءت إليه مظاهر الحضارة فكان لابد من شرح هذه التغيرات في النفس وفي الروح وفي العقل، ولما كنت قد عانيت بسبب ذلك تجربة ضخمة، فكان من الضروري أن تنعكس في الرواية، وجدت أن أفضل من يمثلها جيل الوسط، بالطبع كان من المستحيل أن تجدها عند ياسين، كان من الممكن أن يمثلها فهمي، ولكن فهمي مات، إن أزمة كمال هي أزمتي، وجانب كبير من معاناته هي معاناتي، من هنا يجيء حبي للثلاثية، وحنيني إليها..

الأدب العظيم.. ينبع من الذات..

.. مع تقدم العمر يشعر الإنسان ويدرك أن منشأه هو المأوى!

كأنه يعيد دورة الحياة، إنه يقابل بعالم جديد يبدو لأول وهلة أنه ليس عالمه، لا يكفي أن تفهم عالمًا ما حتى يصبح عالمك الذي يخصك، إن المعايشة أعمق من ذلك، نحن نتجه إلى عالم جديد، هذا العالم يقينًا لن أعايشه، أنا في نهاية مرحلة، أقول عمر، ما هي التجربة الحية المكتملة التي عشتها؟ ستجد أنها تتمثل في القديم، ليس بمعنى الرجوع إلى قيمه، أو بمعنى رفض الجديد، ولكن باعتباره المأوى الخاص بك، لأنك عايشته وفهمته، أما الجديد، الآتي، فأنت تتمنى له الخير ولا شيء غير ذلك، لأنك لن تشارك فيه بنفسك، على سبيل المثال أنا عندي أولاد الآن، أدرك تمامًا أنهم سيعيشون حياة مختلفة، أدرك أنني لن أشارك فيها. لذلك في هذا الاضطراب، في هذه الدنيا الغريبة، يركن الإنسان إلى طفولته، إلى العمر الآمن الذي انقضى، من هنا قد أكون أجبت عن سؤالك حول حنيني إلى الحارة، ومصادر رواية الحرافيش، والقدرة على استعادة واقع انقضى.. يخيل لي أن الإنسان كلما تقدم في العمر يتذكر طفولته أكثر، ويستعيد تفاصيل كان يخيل إليه أنها اندثرت، لماذا؟ لأن هذه الفترة عاشها حياة كاملة غير مرسومة. حدث لي أن كل التجارب الروائية الأولى كانت نتيجة حياة عاشت بدون تخطيط، الذي كان يتحكم في علاقاتها العلاقة الإنسانية، أنت تعرف الإنسان كإنسان.. وبس.. فيه مودة، نفور، حب، كله طبيعي، مع تقدم العمر تبدأ في مراقبة الناس وتحولهم إلى أشياء ومواضيع، عندئذ يضيع منهم جانب كبير، يعني أنا أتصورك مثلًا وأنت تلعب في الحارة، تعرف ناسًا معرفة طبيعية، بخيرها وشرها، يصح أنك أصبحت اليوم بدون تلقائية الزمن الماضي، لا.. لك فلسفتك ونظرتك، ربما تنظر إلى الناس من جانب الطبقات، هنا فقدت الإنسانية جانبًا منها، في الصغر كنت أشوف أحد الفقراء، أرثي له، أحزن، أشوف واحدًا ثريًّا أنفر من جانب فيه أو العكس، في الكبر بدأت أضع هذا في جانب، وذاك في جانب، هذا معي، وهذا ضدي، هذا يفقد جوانب، الحياة الأولى هي التلقائية والطبيعية، وتمدك بالإنسان في كامل أبعاده، ولا تعوض، كلما تقدمت في السن، وأصبح لك فلسفة، ورؤية، تتغير الأبعاد، يصبح عندك منظور يرى الأشياء أكثر من غيرك، وأشياء يعمى عنها لا يراها، ولهذا التجارب الأولى، عندما بدأنا الكتابة كنت لا أتخيل مطلقًا أنني سأصل إلى نقطة معينة ولا أجد عندها ما أكتبه، لماذا؟ لأن كل ما أراه جدير بالكتابة، كان ذلك يبدو مستحيلًا، لكن بعد التقدم في العمر، واكتساب رؤية وخبرة، يبدأ في انتقاء موضوعات معينة، تتفق مع رؤيته، من هنا قد تمضي سنوات وهو لا يجد ما يكتبه، كثير من الحوادث قرأتها في الصحف ولم أتأثر بها، حتى قرأت حادثة محمود أمين سليمان في الصحف، من هنا ولدت اللص والكلاب، لقد حدثت لي هوسة بهذا الرجل، أحسست أن هذا الرجل يمثل فرصة تتجسد عبرها الانفعالات، والأفكار، التي كنت أفكر فيها دون أن أعرف طرق التعبير عنها، العلاقة بين الإنسان والسلطة، ومجتمعه، طبعًا بعد أن كتبت عنه، لم أكتب قصة محمود أمين سليمان، أصبح

الموجود هو سعيد مهران، في فترة بدائية قبل ذلك، كانت كل حادثة تستحق أن تكتب، الآن كم من الحوادث تمر بي ولا تستحق أن تكتب من وجهة نظري، إن المنجم الحقيقي في الماضي البعيد، ستجد أنك تحب كل من عرفت، وترغب في الكتابة عنهم، أما الآن فالأمر عكس ذلك..

الشــكل والمضمـون

.. حنيني إلى الحارة جزء من حنيني إلى الأصالة، عندما بدأنا نكتب الرواية كنا نظن أن هناك الشكل الصح والشكل الخطأ، أي أن الشكل الأوروبي للرواية كان مقدسًا، بتقدم العمر تجد أن نظرتك تتغير، وأنك تريد أن تتحرك من كل ما فرض عليك، ولكن بطريقة تلقائية وطبيعية، وليس لمجرد الخروج أو كسر الشكل عمدًا، تجد نفسك تبحث عن النغمة التي تستخرجها من أعماقك، أيًا كانت هذه النغمة، سواء عادت بك إلى القديم، أو قادتك إلى المودرنيزم، أو عادت بك إلى الحدوته، يعني كأنك تقول، ما هي الأشكال التي كتبوا بها؟ أليست طرقًا فنية خلقوها هم؟ لماذا لا أخلق الشكل الخاص بي الذي أرتاح إليه؟ بالنسبة لي فيما يتعلق بالثورة على كل ما هو أوروبي أو تقليدي ازدادت خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة، أصبحت ثقتي في نفسي أكثر، أصبحت أبحث عن النغمة التي أكتب بها من داخل ذاتي أكثر، اتجاهي إلى الحدوته أحد معالم هذه المرحلة أخص بالذكر الحرافيش، بعد الحرافيش حاولت أن أستوحي عملًا قديمًا، وهو ألف ليلة وليلة، وهي رواية لم تنشر بعد، لكن يجب أن أوضح لك شيئًا مهمًّا، وهو أن تقليد القديم مثل تقليد الحديث كلاهما أسر، المهم أن تبحث عما يتفق مع ذاتك، طبعًا الكاتب الأوروبي الذي بدأ معي يبحث عن ذاته من أول يوم، ليس لديه عقد، ولأنه لا يأخذ ثقافته من الخارج، ولكن بالنسبة لنا نحن الكتاب الذين ننتمي إلى العالم المسمى بالنامي أو المتخلف فقد كنا نعتقد وقتئذ أن تحقيق ذاته الحقيقية الأدبية لا يجيء إلا بإلغاء ذاته، يعني أن الشكل الروائي الأوروبي، مقدس، والخروج عنه كفر، لهذا خيل لي في لحظة معينة أن دور جيلنا هو أن يكتب الرواية بشكل صحيح، لأنني كنت أتصور أن هناك رواية صح، ورواية غير صح، الآن.. تغيرت النظرية، الرواية الصحيحة هي النابعة من نغمة داخلية، فلا أنا أقلد المقامة، ولا أقلد جويس، يعني الحقيقة أنا حاليًّا لا يثير أعصابي إلا التقليد، حتى القديم، وما أرجوه حقيقة من الجيل الذي يلينا، والذي قد يصل بنا إلى العالمية أن يكون أكثر إخلاصًا بالنسبة لهذه النقطة، الإخلاص للذات، لأنه لا يجب أن يكون الموضوع فقط محليًّا، ولكن الشكل أيضًا، يوم أن نحقق هذا، يمكن القول عندئذ إننا قدمنا أدبًا عربيًّا صحيحًا إلى العالم..

.. ربما كانت ثرثرة فوق النيل، واللص والكلاب، محاولة لكسر الشكل التقليدي في الرواية كما تقول، ولكن لاحظ أن ذلك في إطار الشكل الأوروبي، الحقيقة أن الإنسان فيه قدر من الأصالة مهما حاول التقليد، لذلك تيار الوعي في أيدينا لم يعد هو تيار الوعي هناك، كذلك اللا معقول بين أيدي كتابنا أصبح لا معقولًا مختلفًا، لا معقولنا يؤدي إلى المعقول، لم يكن الأمر مجرد محاكاة فقط، إنما خلق شيئًا مختلفًا.

.. لكل كاتب نوعية من الشخصيات يفضل التعامل معها، لكن المسألة لا تجيء بتخطيط، الموضوع يجيب صاحبه معه، أحيانًا الواحد يكون قد عرف شخصيات

وينساها، ثم يطغى فجأة في فترة معينة، بعد أن يعرف الإنسان طريقه، ككاتب مسرح، أو رواية، يكون غالبًا في العشرينيات عنده مخزون تجارب لا حصر له، تؤثر في الوجدان ومتراكمة، تصبح المشكلة الأولى بأي شيء تبدأ، لذلك كانت الإلهامات سريعة، بعكس الحال بعد تقدم السن، ويكون قد تحرر من ضغوط الوجدانات الكثيرة التي صاغ منها سلسلة أعماله، الاختيار مع تقدم العمر يصبح أصعب، في البداية تكون أشبه بأنك عندك مخزون سلعي كبير، ثم تخلصت منه، بعد ذلك يكون الانتقاء، ما يثير سخريتي، أن بعض الناس يقولون «الكاتب ده قال اللي عنده» ماذا يعني الذي عنده، إننا هنا لسنا أمام فيلسوف، أو مفكر، بالنسبة لهؤلاء كتاب أو كتابان وقد ينتهي الأمر، لكن بالنسبة للأديب فإن الحكاية تشبه الغريزة الجنسية، طالما فيها حيوية تحتاج إلى الخروج، هذا هو الأساس، إذا ذهبت هذه القدرة انتهى الأمر حتى ولو كانت الدنيا كلها مواضيع، هو ده الأساس، مش واحد يقول لك، دا عنده حاجة عايز يقولها، عايز يقول إيه؟ لذلك لما تقول على أي أديب، دا عاوز يقول إيه، من الصعب، لكن من السهل أن تجيب على سؤال كهذا بالنسبة لشوينهاور أو نيتشه، من أغرب الأسئلة التي أسمعها، واحد يسأل «إنت عاوز تقول إيه في القصة دي؟»، طيب ما أنا لو عاوز أقول حاجة معينة أقولها في جملة أو مقالة، وخلاص.

* * *

السياسة.. والثورة.. لست معاديًا لثورة يوليو..

.. دخلت السياسة حياتي منذ الطفولة، عندما كنت أرى المظاهرات في ميدان بيت القاضي، في المنزل كان الوالد والوالدة متعاطفين مع الوفد، وإذا ذكر اسم سعد زغلول فإنه يذكر باحترام، وتقديس، وعندما بدأت أقرأ الصحف، كنت أجري بعيني على السطور حتى أجد اسم الزعيم فأتوقف عنده، لكن ما زرع في أرواحنا الوطنية، وعلمنا أصولها، فهم المدرسون، خاصة أولئك المعممون من أساتذة اللغة العربية، كانوا يتوقفون خلال الحصص عن الدروس ويبدءون أحاديثهم عن الوطنية، وكانوا يوبخون الطلبة الذين لا يشتركون في المظاهرات أو يتهربون منها، كانت اللي ماسكة غطاء حلة، أو إيد هون، أو عصا، النساء المحجبات كن ماشيين بوقار منظم، صحيح.. كتر خيرهم، لكن المظاهرات الحقيقية كانت في الأحياء الشعبية.. كانت الإضرابات تبدأ بعد الطابور مباشرة، يعلو التصفيق، ثم نلقي بالملاعق لأن المدارس كانت تقدم لنا طعام الغداء، وكان المدرسون يشجعوننا على الخروج في المظاهرات، ما أذكره ويهزني حتى الآن مظاهرات النساء في ميدان بيت القاضي وشوارع الجمالية، كتب التاريخ تحدثك عن مظاهرات المحجبات من سيدات المجتمع، وخروج طالبات مدرسة السنية، لكنها لا تذكر مظاهرات نساء الحواري والأزقة، لقد رأيتهم بعيني، وكان شيئًا لا مثيل له.. في صور المظاهرات ترى النساء المحجبات زوجات الباشوات، ويقولون.. المرأة المصرية، مرأة مصرية مين؟ أنا شفت آلاف النساء في الجمالية فوق عربات الكارو.. نساء الحواري..

ملحوظة

نستعيد الفصل الخاص بالشيخ هجار المنياوي في رواية المرايا:

كان الشيخ هجار المنياوي مدرس اللغة العربية في مدرستنا الابتدائية، ولحق بنا في المدرسة الثانوية، وكان من أهل الصعيد، ينطق بلهجتهم، قوي البنيان طويل القامة غامق السمرة، قليل العناية بمظهره، فعمته أصغر مما ينبغي، ولا ذوق له في اختيار ألوان الجبة والقفطان، ولكنه كان يفرض الاحترام بقوة شخصيته والتمكن من مادته وشجاعته الفائقة، ولم يكن متزمتًا، كان يحب النكتة، ويروي لنا جميل الأشعار، ومرة تبارى في فناء المدرسة مع مدرسي الرياضة البدنية في التحطيب، فلعب بعصاه برشاقة أذهلتنا وانتصر على خصمه وسط تصفيق حاد. ومرة دخل جعفر خليل الفصل متأخرًا بعد أن انتظمنا في مجالسنا، وكعادته في حب المزاح قلد أستاذنا فقال له:

- ع-م صب-احًا

وضحك الفصل وانبسط جعفر، وتركه الشيخ هجار حتى جلس، ثم ناداه:

- جعفر خليل..

فوقف، فقال له بهدوء:

- أعرب «عم صباحًا».

وعجز جعفر عن إعرابها، ففتح الشيخ دفتر يومية التلاميذ وأعطاه صفرًا، فاحتج جعفر قائلًا:

– إنها صعبة!

فقال الشيخ بهدوء:

– ولم تستعمل ما لا تفهمه؟

أما جانبه الجاد فكان فذًّا لا يتكرر، كان في المدرسة الابتدائية –عصر الثورة– مدرسًا للغة العربية والوطنية. فلدى أي مناسبة يفتح باب الحديث الوطني، يستعيد الذكريات المجيدة. ويشيد بالأطفال، ونحن نتابعه والدموع في أعيننا، وكان يحدث عن سعد زغلول وكأنه ولي من أولياء الله أو صاحب معجزات، معتبرًا زعامته رسالة سماوية ومعجزة تاريخية، ومنه عرفنا ما لم نكن نعرف عن نشأة سعد، ومهارته في المحاماة، ومواقفه في نظارة المعارف ونظارة الحقانية، وزعامته، وتحديه لقوة الإنجليز، وسحره وبلاغته، وما ينتظر البلاد على يديه، وكان يقول:

– ببلاغته عبأ الشعور، وباسمه قامت الثورة..

وكان يعرف التلميذ الكامل فيقول:

– هو من يحصل العلم ويثور على الطغاة.

وكنا نحبه بقدر ما نجله، ونتلقى عنه الوطنية والأصالة، وبفضله أحببنا اللغة العربية وعشقنا أشعارها.

وفي المدرسة الثانوية تغير مذاق الجهاد، فتوارت عنا وجوه الإنجليز وبرزت في الصورة وجوه المصريين الموالين لهم، واحتلت الحزبية المكان الأول في الصراع، وخاض الشيخ المعركة الجديدة بنفس القوة والصلابة، وكان يقول:

– المعركة هي المعركة، ولكن الأعداء ازدادوا عددًا، فوجب علينا مضاعفة الجهاد.

ويوم أضربنا على عهد محمد محمود، اليوم الذي استشهد فيه بدر الزيادي، أخرجه ناظر المدرسة فطالبه بأن يخطب التلاميذ حاثًّا إياهم على الانتظام في الدراسة. وكان في طبعه حدة تثور على التحدي وتنفجر غضبًا أعمى، فاعتلى المنصة أمام حجرة الناظر وصاح بصوت رهيب:

– العلم يطالبكم بالنظام والوطن يطالبكم بالجهاد، وليس لكم إلا ضمائركم فارجعوا إليها..

وكتب الناظر تقريرًا عنه فرفعه إلى وزير المعارف، وسرعان ما تقرر فصله، ويوم غاب عن الدراسة وانتشر الخبر هاجم الطلبة حجرة الناظر حتى اضطر إلى الفرار من المدرسة، واضطرت الوزارة إلى نقله حماية لحياته. وقد عاد الشيخ إلى المدرسة في عهد الوفد، ولكنه فصل مرة أخرى في عهد صدقي، فعمل في مدرسة بين الجنائن الأهلية التي كان يملكها رجل وفدي معروف. وفي حكومة المعاهدة تعين مفتشًا بالوزارة وسويت حالته تسوية عادلة. وفي انتخابات 1942 رشح نفسه على مبادئ الوفد فنجح. كما نجح مرة أخرى عام 1950. وقد التقيت به مرات في بيت رضا حمادة، كما عرفت بعض أبنائه. ولما صدر قرار حل الأحزاب –بعد ثورة يوليو–

رجع إلى قريته في الصعيد فلم يبرحها، ولا أدري إن كان مازال على قيد الحياة أم انتقل إلى جوار ربه. ومما يذكر أنه في سبتمبر عام 1952 أو 1953 وكنت مارًّا أمام نادي الجيش القديم بالشاطبي، رأيت بعض أعضاء الوفد واقفين في فناء النادي يحيط بهم جند، وسمعت من بعض المارة بأنهم اعتقلوا وسيرحلون إلى القاهرة، ورأيت بين الضباط الذين يشرفون على الإجراءات الضابط محمد هجار ابن شيخنا القديم هجار المنياوي. تأملت الموقف، نظرت طويلًا إلى الابن، تذكرت الأب، ثم خيل إليّ أني أسمع هدير الزمن وهو يتدفق حاملًا متناقضاته المتلاطمة.

كدت أفقد حياتي

اشتركت في جميع المظاهرات التي جرت، أذكر أنني أمشي مع عدد من الأصدقاء في شارع محمد علي، فجأة رأينا أحد أبناء البلد يحمل حجرًا كبيرًا ويضرب رأس كونستابل إنجليزي فيصرعه. في نفس اللحظة رأينا عددًا من الخيالة قادمين من ناحية العتبة الخضراء، نظرنا إلى الخلف لنستدير ونجري، فوجئنا بقوات من الجيش، كنا محصورين، ولا أحد سوانا في الشارع، وجثة القتيل الإنجليزي ملقاة أمامنا، أما ابن البلد فقد هرب، تعرف أن بعض حواري شارع محمد علي منحدرة إلى أسفل، تؤدي إليها سلالم، صاح أحدنا..

اجر... اجر...

جرينا، جريت بأسرع ما يمكن أن أجري به، من حارة إلى حارة، حتى فوجئنا بحارة سد لا تؤدي إلى أي منفذ، أدركنا يأس قاتل، فجأة أطلت امرأة من إحدى الشرفات، وأشارت إلى باب البيت، دخلنا، أغلقنا خلفنا، نظرت إلينا من فوق السلم، اطلعوا...

طلعنا إلى السطح، عبرنا إلى السطح المجاور، نزلنا في بئر السلم، انتظرنا حوالي نصف ساعة، خيم فيها صمت فظيع، ثم خرجنا، ومشينا حتى شارع عبد العزيز، ثم إلى العتبة الخضراء..

المظاهرة التي مات فيها فهمي عبد الجواد في الثلاثية مظاهرة حقيقية من الناحية التاريخية، لم أستوح هذه الحادثة في الثلاثية، أما مظاهرة فهمي فكانت عند حديقة الأزبكية، مظاهرة مسموح بها، وكان فيها الطلبة والعمال والقضاة، وفجأة أطلق الإنجليز النار وقتلوا عددًا من الناس، لا أدري لماذا اخترت هذه المظاهرة بالذات ليموت فيها فهمي، هذه ناحية لا أستطيع تفسيرها..

الكفر...

كان الوفد هو حزب الأمة بلا جدال، وكان من يقول إنه ليس وفديًّا يبدو في نظرنا كأنه كافر، كان الوفد يعبر عن القضية الوطنية والاجتماعية، كان أول انقلاب على الدستور مصيبة، بعده كنت أمشي أكلم نفسي من الضيق والقهر، ثم بدأت المشكلة الاجتماعية تلفت النظر، أضف إلى ذلك تأثير سلامة موسى، لهذا وجدت أن أنسب شيء هو الجناح اليساري للوفد، لهذا عندما جاءت ثورة يوليو وأعلنت مبادئها خيل إليَّ أن هذه هي مبادئ الجناح اليساري الوفدي لو أنه حكم، لهذا، رحبت بها حقيقة، بل إنها تجاوزته إلى تغيير الملكية وهذا ما لم يكن سيحققه يسار الوفد، لقد رحبت

بالثورة فعلًا، طبعًا كنا نتمنى لو أن الثورة اتخذت قاعدتها من الوفد أساسًا باعتبار أنه القاعدة الشعبية القديمة، لكن ما يحدث دائمًا عكس ذلك، لأن للثورة شعبية أيضًا وستصبح مهددة، لسوء الحظ عادت الثورة الوفد، وكان يمثل قاعدة شعبية، ومن هنا بدأ ضرب الديمقراطية، كان من الممكن في رأيي أن تمضي المسيرة الديمقراطية إذا ما اعتمدت الثورة على إنجازاتها كضرب الإقطاع وإنهاء الاحتلال، كان سينضم إلى الثورة أنظف من في الأحزاب، لكن ضاعت الفرصة، لهذا وقعت في إطار الحكم العسكري، صحيح أنها أنجزت إنجازات هامة، لكن غياب الديمقراطية يهدد الإصلاحات، وإذا تأملت الآن ما تم، فستجد أنه أضير بسبب غياب الشورى والديمقراطية، معظم الأخطاء التي وقعت كان سببها الانفراد بالرأي والقرار، الحكم الفردي يصبح كالقضاء والقدر، وأنت وحظك..

الزعيم..

.. لم أر سعد زغلول بعيني، يوم أن ذهبت إلى عابدين لأراه، جاء في سيارته لمقابلة الملك، ولكن الكتل البشرية حالت دون رؤيتي له، عيني لم تقع عليه، رحت بيت الأمة أيام النحاس، من المشاهد التي لن أنساها، جنازة سعد زغلول، طبعًا من الصعب مقارنتها بجنازة جمال عبد الناصر، لأن القاهرة في الوقت الأول كانت مليونًا فقط، ولكن المؤكد أن المشهدين من أجلّ الحوادث التي شهدتها القاهرة في هذا القرن، كان سعد محبوبًا إلى درجة غريبة، لَي صديق قبطي، أطلعني منذ سنة أو سنتين لا أذكر على دعوة زفاف أخته، أنت تعلم أن دعوة الزفاف تكون مبهجة، هذه الدعوة كانت مجللة بالسواد، كان مكتوبًا فيها «فلان وفلان يدعونكم إلى كنيسة كذا لحضور إكليل.. والبقية في حياتكم لموت زعيم الأمة»، طبعًا في ظروف عادية هذا يثير التشاؤم، هل رأيت أو سمعت عن دعوة زفاف بهذا الشكل؟!

إنها فترة لا توصف، حتى المؤرخ الذي كتب عن هذه الفترة يختلف عن الذي عايشها بنفسه، هناك ناس يستكثرون هذا الحب بالنسبة لسعد، ولكن هذا الحب كان مدرسة للوطنية، كانت مصر تقاطع البضائع الأجنبية لأي موقف، كنت تشوف المحلات الكبرى الأجنبية فارغة تمامًا من الزبائن، أما شركة بيع المصنوعات؛ فالزحام فيها لا يطاق، أي حاجة مصرية حتى لو رديئة جدًّا كانت تثير الفخر.

لست معاديًا للثورة..

.. في جميع ما أكتب ستجد السياسة، من الممكن أن تجد قصة خالية من الحب أو أي شيء، إلا السياسة، لأنها محور تفكيرنا كله، الصراع السياسي موجود، حتى في أولاد حارتنا التي يمكن أن تصفها بأنها رواية ميتافيزيقية ستجد الصراع على الوقف، بعد ثورة يوليو 1952 تناولت موضوعات حساسة جدًّا، مثل ميرامار أو ثرثرة فوق النيل، الحقيقة أنت قلت كلمة صادقة جدًّا منذ أسبوعين، قلت إن نجيب محفوظ عندما يكتب لا يعبأ بشيء، وينسى كل شيء. هذا حقيقي، كنت أحيانًا بعد أن أسمع ردود الفعل أتوقع أشياء مرعبة، خاصة بعد قصة مثل «الخوف»، في الشارع مرة أجد واحدًا يسألني عن معناها، ربما تكون حاجة بريئة، لكنني كنت أخاف، لكن لاحظ أنا كنت أنقد الواقع نقد المنتمي إليه، أنا لم أرفض ثورة يوليو مطلقًا، ولم أكتب أي عمل ضدها، أنت تعلم أن هناك روايات معادية للثورة، كنت أوجه النظر

إلى سلبيات تسيء إلى الثورة، لن تجد كلمة بالإشارة أو التلميح ضد الإصلاح الزراعي، أو مكاسب العمال والفلاحين، في ميرامار انتهازية الاتحاد الاشتراكي، هذا كان حقيقيًّا، ربما كان ذلك سببًا في عدم البطش بي، أيضًا فإن إحساسك بالبراءة يمنحك الشجاعة، بمعنى أنني لم أكن منضمًّا إلى جماعة سرية، أو متصلًا بسفارة ما، ليس معقولًا أن أكون معاديًا للثورة ثم أكتب في الأهرام، وأُمنح كل هذه الفرص التي حصلت عليها..

ابنتي تسأل: من هو سعد زغلول؟

.. لم أعرف أي شخص من زعماء الوفد معرفة شخصية، كل الوفديين الذين أحببتهم، عرفتهم في جلسة توفيق الحكيم خلال السنوات الأخيرة، هل تذكر محمود غنام؟ قابلته عند توفيق الحكيم، وقال لي إنه شافني في التليفزيون، وسمعني أقول إن أحب زعيم إلى نفسي هو سعد زغلول، قام نط مفزوعًا من الكرسي، قال لي: أنا افتكرت إنه حيقبض عليَّ أنا مش انت، ورحت أسأل، مين ده؟ بعد ظهور الثلاثية، كثير من الوفديين وجدوا فيها أول كلام جيد عن الوفد، حتى الذين خرجوا عن الوفد قبل الثورة قرأوها وشافوا روحهم فيها، يعني مثلًا إبراهيم عبد الهادي كان يقرؤها ويحض الناس على قراءتها، كثير من التاريخ الذي حفلت به الثلاثية كان مات، واسم سعد زغلول لم يكن يذكر في المدارس، بعد ظهور الوفد الجديد منذ ثلاثة أعوام أرادوا أن يحيوا ذكرى سعد والنحاس، بنتي الصغيرة سمعت اسمًا جديدًا، فسألتني عن سعد زغلول وهل لا يزال يعيش.. من أين هذا؟ طبعًا صدمت صدمة كبيرة..

مصر الفتاة والإخوان

..كنت أعرف الإخوان المسلمين، ومصر الفتاة، وأتابعهما، مصر الفتاة بدأت كنشاط شبابي، ومشروع القرش لصناعة مصنع للطرابيش، لكنها كانت تخفي هدفًا سياسيًّا، وكان زعيمها انتهازيًّا، أعلن تأييده لمحمد محمود، كيف تؤيد اتجاهًا معتدلًا وأنت تعلن التطرف؟ وفوجئنا بهم وقد أصبحوا فاشيست، عاديناهم، ولم أتعاطف معهم أبدًا، أما الذين كرهتهم منذ البداية، فهم الإخوان المسلمون، الإخوان في البداية كانت جمعية دينية تضم وفديين وغير وفديين، ولكن عندما وجدناهم بدأوا ينافسون الوفد، عاديناهم، كنا نعتبر أي منافسة للوفد بمثابة إضعاف لقوتك الضاربة، لم يكن الوفد فى الانتخابات يرشح أمام مرشحي الإخوان إلا الأقباط، وكان مرشحو الوفد يكتسحون.

لم يكن لي أصدقاء من الاتجاهات الأخرى إلا استثناءات محدودة جدًّا مثل عبد الحميد السحار، الذي كان يميل إلى الإخوان، كان يقول لي تعال قابل الشيخ البنا وبعدين احكم. لكنني لم أكن أطيق هذه السيرة أبدًا..

عبد الناصـــر..

.. لم ألتق بعبد الناصر في لقاءات خاصة، إنما رأيته ثلاث مرات عندما حصلت على وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى، طلعت وسلمت عليه ونزلت، المرة الثانية سنة 1957، كان هناك عدد من الأدباء العرب، التقى بهم، وكنت أحد الذين ذهبوا إلى اللقاء، المرة الثالثة كانت في الأهرام، عندما زاره في سنة 1969 إذا لم تخني الذاكرة،

كان يتحدث إلى كل شخص، قال لي:

إزايّ ناس الحسين بتوعك.. بقالنا زمان ما قريناش لك قصة..

هيكل قال له:

– لا.. دي بكرة طالعة له قصة.

كان يوم خميس، هيكل قال:

– نعمل إيه.. ما هي قصصه تودي الليمان..

عبد الناصر قال له:

– لا.. دي تودي رئيس التحرير..

طبعًا عبد الناصر وسعد زغلول طوران مختلفان، عبد الناصر أنجز أشياء بارزة للبلد لا يمكن أن تغفل، من الصعب المقارنة، سعد زغلول كان الشرارة الأولى، كان يريد الاستقلال، عبد الناصر جاء إلى البلد وهو شبه مستقل، وأنجز ثورة اجتماعية حقيقية، للأسف الثورة اتخذت موقفًا معاديًا من سعد زغلول، حتى منع اسمه من الكتب والأفلام إلى آخره، ثم دار الزمن دورته، منذ أيام كنت أشاهد فيلمًا عن وفاة تيتو، وظهر جميع زعماء العالم الذين عرفوا تيتو، ما عدا صورة عبد الناصر، مع أنك تعرف إلى أي مدى كانت علاقة عبد الناصر بتيتو!

التاريخ والمأســاة..

كنت عزوفًا عن إقامة أي علاقة مع المسئولين أو السياسيين، لم أسع لمقابلة أحدهم، للأسف تاريخنا الحديث ثورات ونكسات، لو أن الأمور مضت بشكل سليم منذ عهد محمد علي لأصبحنا مثل اليابان الآن. السياسي العبقري هو الذي يفهم الظروف، ثم يتخذ القرار المناسب، إلى أي حد يجب أن يخوض المعارك مع القوى الأجنبية ومتى؟.. لو.. ولكن التاريخ لا تصح فيه كلمة لو.. والإنسان لا يتذكر التاريخ إلا بعد أن يصبح الأمر مأساة..

الفتـوات.. والمقـاهي

.. ترجع ذكرياتي عن الفتوات إلى منطقة الحسين، كان من المعروف في صغري أن لكل حارة، أو حي، فتوة، شفت الفتوات في نوعين من الحوادث، أولًا.. الزفة، كانت الزفة تبدأ بعد منتصف الليل، أصحى من النوم على واحد بيغني والصهبجية يردوا وراءه، وحملة الفوانيس، يمرون من أمام قسم البوليس في ميدان بيت القاضي، يظهرون من حارة معينة، غالبًا في الزفة يحدث أن يعترضها فتوات، لأنه لو فيه ثارات قديمة، تصبح هذه أحسن فرصة للثأر، الفرح ينقلب إلى نكد، شفت زفة تنقلب إلى خناقة دموية أمام القسم. النوع الثاني، كان الفتوات يتفقون على الخروج إلى الخلاء، فتوة العطوف مثلًا مع فتوة قصر الشوق، للخناق لكل فتوة رجاله، يشيلوا المقاطف المليئة بالطوب والزجاجات، ويتجهون كلهم إلى الخلاء، خلاء كان اسمه أرض المماليك، وبعد أن يحطم كل منهم الآخر، كنت أرى النتيجة، السيارات تحملهم إلى قسم الجمالية، تحرر لهم المحاضر ثم تجيء عربات الإسعاف لتشيل الجرحى، فيه منظر ثالث شفته، لكن لا يمكن أن تسميه فتوة، كان رجلًا هائل الحجم، عملاقًا

أعمى، عادة كان يمشي في حاله، ولكن إذا استفز فإنه يصبح قوة مهولة، رأيته بعيني يقهر فرقة بوليس كاملة، كان الأمر بالقبض عليه مهمة عسيرة جدًّا، الحقيقة أنني منذ خمسة عشر عامًا قرأت عنه ريبورتاج إما في آخر ساعة أو المصور، كان بدون صور، ذكريات يبدو كتبها أحد أبناء المنطقة.

ملحوظة

نستعيد هنا الحكاية رقم «41» من حكايات حارتنا.

إبراهيم القرد أضخم بناء إنساني تشهده عيناي، لا أتصور أن يوجد بين البشر من هو أطول أو أعرض منه. مئذنة، يتحسس طريقه بنبوت رهيب، تحمله قدمان حافيتان كأنهما سلحفتان، يقول أهل حارتنا إنه من لطف الله أن يخلق إبراهيم القرد ضريرًا. وهو الشحاذ الوحيد في حارتنا، فمنذ احترف التسول لم يتجرأ آخر على ترديد «لله يا محسنين».

يقعد الساعات متربعًا عند مدخل القبو، معتمدًا على نبوته، يصمت طويلًا، ينفجر بصوت كالرعد «يا أكرم من سئل»، يجيئه الطعام في أوقاته، تتراكم الملاليم في جيبه، يتبادل التحيات مع السابلة.

وبسبب من حدة التناقض بين قوته الخارقة وبين حرفته المستضعفة فإنه مثار للابتسام، ولكن بلا حنق أو حقد، فحسبه أنه ابن حارتنا وحسبه أنه لا يستثمر قوته في العدوان!

ويشاء الحظ أن أشهد معركته الكبرى.

ففي أحد المواسم يهبط حارتنا زلومة -شحاذ ضرير أيضًا- من القبو راجعًا من القرافة مثقلًا بالفطير والتمر، فيختار مجلسًا غير بعيد من القرد ليستريح من عناء يوم مظفر.

ها هما الشحاذان الضريران يجلسان على جانبي مدخل القبو كأنهما حارسان. ويتلقى القرد بأذنيه الحادتين رسائل خفية من حركات شفتي زلومة، كما يتلقى أنفه رسائل مغرية من جراب الأغذية، يتجه رأسه نحو الرجل باهتمام وتساؤل وتحفز.

ويهتف زلومة في غبطة:

- يا حسين يا حبيب النبي يا سيد الشهداء.. مدد.

فيقطب إبراهيم القرد ويتساءل بغلظة:

- حـــن؟

فيجيبه زلومة ببراءة:

- سائل على وجه الكريم!

- وماذا جاء بك إلى هنا يا ابن الزانية؟

فيسأل زلومة بحدة:

- أملكت أرض الله؟

- ألا تراني؟

– إني أرى بنور القلب.

فيتمتم إبراهيم القرد:

– عظيم.

يتمطى بنيانه قائمًا ويمضي نحو زلومة وكأنما يراه، يقبض على منكبه، لا أدري ماذا يفعل به، ولكني أرى الرجل وهو يصرخ ويتلوى ويستغيث. ويتجمهر أناس كثيرون. يخلصون بينهما بعناء شديد، يبدو من البعض كلمات غاضبة:

– افتراء وظلم.

– أنت وحش.

– أنت لا تخاف الله!

ويصيح إبراهيم القرد:

– عليكم اللعنات.

ويغضب أحدهم فيرميه بسلة محطمة ملقاة.

ويثور القرد. أجل يثور ثورة أكبر من ثورة مظاهرة زاخرة. كأنما هرست له دملًا. يجن جنونه، يهدر بأقذع الشتائم، يشهر نبوته ويدور به ويضرب به كل مكان فيرتطم بالجدران والأشياء، وينشر الفزع في دائرة آخذة في الاتساع. يتفرق الرجال، يركضون، يتلاطمون، يعثرون فيسقطون، يصيحون، يستغيثون، القرد ينقلب قوة عمياء مدمرة تجتاح الحارة، يلوذ الناس بالأزقة الجانبية، تغلق الدكاكين، تتحطم الكراسي والسلع وتنقلب السلال والمقاطف.

وتتدفق قوات الشرطة على الحارة. يذهل الضابط عندما يدرك أن المعتدي ما هو إلا شحاذ ضرير، ثم يأمر جنوده بإلقاء القبض عليه.

وتتجدد المعركة بين القرد والجنود، يخوضها الجنود عزلًا من السلاح بأمر من الضابط، ولكنهم لا يلبثون أن يتطايروا في الهواء كاللعب، إنه قوة لا تغلب.

ويتجمع الغلمان في الأطراف ويشجعون القرد بهتاف صاخب. الحق إنني لم أر رجال الداخلية من قبل على حال من التعاسة كما أراهم الآن، ويصيح الضابط من داخل بدلته البيضاء ذات الشريط الأحمر:

– يا قرد. ستضرب بالرصاص إن لم تسلم نفسك في الحال.

ولكن القرد يتمادى في التحدي منتشيًا بثوران القوة والنصر.

ويرحمه الضابط فلا يأمر باستعمال هراوة أو بندقية ولكنه يستدعي بعض رجال المطافئ.

ويتدفق الماء من الخرطوم كالشلال فيصب قوته التي لا مفر منها على القرد. يرتبك القرد ويتعثر ويدور حول نفسه مترنحًا منهزمًا حانقًا قاذفًا بسيل من السباب المقذع، ثم يتهاوى فوق أديم الأرض بلا حول فينقض عليه الجنود بالأغلال.

ويغيب القرد عن حارتنا فترة من الزمن، ولكنه يرجع ذات يوم ببنيانه الضخم وهامته المرفوعة فيلقى استقبالًا حميمًا وتحيات حارة... فيواصل حياته السابقة

متعملقًا عند مدخل القبو مثل أسطورة.

عرابي وسعد

انتقلت إلى العباسية. اشتبكت صورة الفتوة مع صورة الشجيع الذي رأيته في السينما، كنت أرى أفلام الشجيع في سينما الكلوب المصري وعمري أربع سنوات، سينما الكلوب أقدم سينما في القاهرة تقريبًا، في العباسية كنا نسكن في حي متوسط لكنه يقع بين منطقتين شعبيتين، الحسينية وكان لها فتوة، والوايلي وكان له فتوة، الأحياء الراقية طبقيًّا والتي كان من غير الممكن ظهور فتوة منها، كانت تتبع فتوة أقرب حي شعبي، يعني العباسية مثلًا كانت تتبع عرابي فتوة الحسينية، ومصر الجديدة تقع في نطاق فتوة الوايلي، بدأنا نسمع عن عرابي الأساطير، في هذه الفترة رأيت اثنين من أعوانه، وكان من الممكن تأجير بعضهم لضرب شخص معين أو ما يشابه ذلك، وكنا نسمع عن مغامراتهم، ويبدو أثرهم أيام الانتخابات، طبعًا أثرهم في الثورة سنة 1919 كان معروفًا، قادوا المقاومة ضد الإنجليز، وفي الانتخابات كان تأثيرهم مماثلًا، عرابي هو الذي ضيع فرصة نجاح سليم بك والد كمال سليم المخرج السينمائي، مع أن عرابي كان وفديًّا وسليم بك وفدي أيضًا، ولكن أسقطه لحساب وفدي آخر، وهو عبد الحميد البنان ابن الحسينية، كانت له سراي في الحسينية نفسها، سليم بك رشحه الوفد، والبنان رشح نفسه على مبادئ الوفد، سليم شكا من حي الحسينية والجمالية لانحيازهما إلى البنان، سمعنا أن سعد زغلول قرر أن يذهب بنفسه إلى سرادق سليم بك لمساندته، جاء موكب سعد زغلول واخترق الحسينية، كان يومًا لا مثيل له، عند رأس الحسينية كان عرابي وعصابته في انتظار موكب سعد زغلول، بمجرد ظهور الموكب علت صيحاتهم، يحيا سعد، يحيا سعد، ومبالغة في الإكرام، شالوا الأتوموبيل ودخلوا به سرادق البنان، الخبر مشي في العباسية زي النار، سعد زغلول في سرادق البنان.. سليم بك خسر تأمينه ولم تقم له قائمة..

الأت-وبي-س

.. في العشرينيات بدأت شركة الأتوبيس في تسيير خط يمر بالحسينية، ولكن سرعان ما حدثت متاعب، إذ إن صبية عرابي كانوا يتصدون للركاب والأتوبيسات، كان من الممكن أن تكون جالسًا في العربة وتفاجأ بأحدهم قد صفعك على قفاك، حارت الشركة، ماذا تفعل؟ أخيرًا لجأت إلى عرابي، وتم تعيين عدد من الصبية كمسرية في الشركة، أو عمالًا يرتدون الزي الأصفر ويمسكون الصفارات، ويقفون في الطريق لتأمين العربات والركاب.

أما نهاية الفتوات، فجاءت نتيجة لحادثة وقعت سنة 1930، وسمعنا بها ونحن في مصيف إسكندرية، إذ حدث أن عرابي ضرب ضابطًا إنجليزيًّا، وجرده من ثيابه تمامًا، وذهب الضابط عاريًا كما ولدته أمه إلى الداخلية، وسرعان ما تم تجريد قوة قبضت على عرابي، وضربوه في الداخلية ضربًا مفزعًا، كسر الرجل وأنهى سطوته، وتحول عرابي من رجل كان يحمي مأمور قسم الظاهر إلى رجل يمكن اعتقاله في أي لحظة لو شكاه أي إنسان، مجرد شكوى صغيرة، ظل عرابي طول عمره تحت المراقبة، هل تذكر المقهى الذي كنا نلتقي فيه مساء كل خميس، كان اسمه مقهى أحمد عطية مع أن صاحبه في الأصل عرابي، لأن عرابي لم يكن يستطيع أن يضع

اسمه على أي شيء، أحيانًا كانت تعاوده العنجهية فيهب في الزبائن، وسرعان ما يمضي إليهم ويطلب الصفح، في أيام انكساره تلك رأيته، أنت لم تره، لأنك بدأت تزورني بعد وفاته، كان منظره جليلًا، يشبه زعيم حزب، أو قائدًا كبيرًا، شخصية! وكان شهمًا جدًّا، وشخصيته جذابة، فارس.

.. وفي الأدب كتبت عن الفتوة الواقعي قصة قصيرة واحدة، لم أضمها إلى أي مجموعات قصصية، نشرت في الثلاثينيات، استخدامي للفتوة بعد ذلك يشبه استخدامي للحارة، يعني في أولاد حارتنا كان الفتوات رمز القوة الغاشمة، في الحرافيش مثل الحكام، الظالمين، والصالحين استخدام رمزي، في قصة «الرجل الثاني» يشبه الفتوة القدر، في الحارة ستجد شخصيات تقليدية لها دلالة، مثل الفتوة، والمؤذن، وشيخ الحارة، وكما عرفت الفتوات من الرجال، فقد عرفت فتوات من النساء، شفت فتواية، أنا أول من قدم إحداهن في الفيلم المصري، كانت بائعة فراخ في الحسينية، الفتواية التي شفتها كانت ذات قوة مهولة، بضربة ذراع تطيح برجل جامد، أنا شفت نساء يتشاجرن، أذكر خناقة نسائية في محطة الرمل، ربطن الملاءة حول خصورهن، ودخلن ضرب لبعض، وقف الميدان على رجل، لكن هذا ليس من علامات الفتواية، الأخرى امرأة يرتعش أمامها أي رجل، المرأة المعلمة تعتبر درجة أقل، الظروف ربما دفعتها إلى السوق، ولكن الفتواية التي أذكرها كانت شيئًا مهولًا.. المق-اه-ي..

.. المقهى يلعب دورًا كبيرًا في رواياتي، وقبل ذلك في حياتنا كلنا، لم يكن هناك نواد، المقهى هو محور الصداقة، البيوت لا تسمح بالزيطة، في البداية اتسع لنا الشارع، حتى تجرأنا على المقهى، عرفت المقهى في سن مبكرة، منذ أوائل الثانوي بفضل سيد الشماع صديقنا في الغورية، كان لنا مقهى في الدراسة، في كل حتة لكن أشهر مقهى جلسنا فيه الفيشاوي ثم عرابي ومقهى زقاق المدق، والفردوس وركس، ولونا بارك، لونا بارك افتتحناها، أول ناس دخلوها أثناء الفتح، كان فيها شيشة معتبرة، كنا نشرب الشيشة، ونحتسي بعض كؤوس الويسكي، ونستمع إلى أم كلثوم، آه.. ذكرتني بمقهى أحمد عبده الذي ذكرته في الثلاثية، وكان كمال يلتقي فيه بصديقه فؤاد الحمزاوي، هذا المقهى كنت أحبه، كان تحت الأرض، تنزل سلم، تجد دائرة، في الوسط فسقية، وتحيطها مقاصير صغيرة، ومشهورة بالشاي، أحسن شاي، الحقيقة أنا سميته قهوة أحمد عبده، لا أذكر اسمها الحقيقي، ألم يحدثك عنها أحد من أهالي الحسين؟ آه.. نسيها الناس إذن، هدمت منذ سنوات بعيدة، كان مقهى جميلًا، وكان أحب المقاهي إلى نفسي..

ملحوظة

أذكر في مقهى عرابي، أن لفت نظري في أحد الأيام رجل أبيض الشعر، أبيض الوجه، عيناه جاحظتان، جاحظتان إلى الخارج، أصابعه نحيلة مدببة الأطراف، جاء، جلس، لاحظت أن الجرسون يناديه أهلًا بحمزة باشا..

ثم جاء بشطرنج ونرجيلة موصى عليها، سألت عن الرجل، قيل لي إنه حمزة البسيوني، مدير السجن الشهير بفظاعته.. التفتُّ يومها إلى نجيب محفوظ وقلت له: هل تعرف من يكون هذا الشخص؟ هز رأسه نفيًا، قلت: إنه حمزة البسيوني..

ميلاد الكرنك

.. آه.. طبعًا أذكر تلك اللحظة، في هذه الجلسة ولدت رواية الكرنك، لم أر حمزة البسيوني إلا في هذه المرة، ثم قتل في حادث بعد ذلك بأسبوعين، كان جلوسي بمقهى الفيشاوي يوحي لي بالتفكير، كل نفَس شيشة كان يطلع بمنظر... كان خيالي يصبح نشيطًا جدًّا أثناء تدخين الشيشة، كان معظم وقتي أقضيه في الفيشاوي أيام العطلات، المقهى عالم من الأنس، ملتقى الأصحاب، أما ندوة مقهى الأوبرا فبدأت عام 1943، بدأت مع تكوين لجنة التأليف والترجمة والنشر، كنا نجلس أولًا بمقهى عرابي، لكن شلة الأدباء الجدد لم تنسجم مع شلة عرابي من أصدقاء العباسية، فانتقلنا إلى كازينو الأوبرا، استمررنا فيه حتى طاردنا البوليس في بداية الستينيات، أظن 1961، 1962، التاريخ راح من ذهني، فيها عرفت عددًا كبيرًا من الأدباء، جاء سلامة موسى، ولويس عوض، جاء وكان يعرض فكرة إنشاء مجلة، كان يعتقد أن السحار بإمكانه أن يمول مجلة، وجاء إلينا شكري عياد، وبدر الديب، وفتحي غانم، معظم أدباء الجيل التالي لنا، في الآخر أصبح فيها عمل، كنا نقرأ فيها أعمالًا أدبية، وعندما قررت إنهاءها، الضابط قال لي أرجوك أبق على الندوة.. إنها مفيدة لنا، طبعًا كانوا يكتبون منها التقارير، المهم أن الندوة اكتشفت صدفة، في إحدى المرات كان موكب لعبد الناصر يمر في الشارع، لاحظ رجال الأمن أن عددًا يصعدون إلى المقهى، صعد أحدهم، أطل، فوجئ بعددنا، عاد وأجرى تحقيقًا سريعًا، من أنتم؟ لماذا تجلسون هنا؟ وقال: إن هذا اجتماع، وطلب منا أن نأخذ إذنًا من البوليس كل أسبوع، وبدأ أحد رجال البوليس يحضر إلى الندوة، كان يتتبع المناقشات الأدبية بدهشة، ويصغي إلى أسماء مثل كافكا، وبروست، ومصطلحات كالواقعية والمودرنيزم وخلافه، طلب مني أن أساعده في تلخيص ما يجري، يعني بالعربي أكتب أنا محضر الجلسة للبوليس، لكن ذلك كان أمرًا لا يطاق.. وانتهت الندوة.. بعدها انتقلنا إلى مقهى سفينكس أمام سينما راديو، كنا في البداية ثلاثة أصدقاء أو أربعة، ثم بدأ توافد الأدباء، في هذا المقهى تعرفت إلى جيل الستينيات، المقاهي بالنسبة لي ذكريات لا تنتهي، وكلها ذكريات غالية ترتبط بالأصحاب والشباب وأحلى أيام العمر..

* * *

الإسكندرية أخيرًا..

الإسكندرية قطر الندى، نفثة السحاب البيضاء، مهبط الشعاع المغسول بماء السماء، وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع.

ميرامار

المكـــان..

.. إسكندرية.. وتوفيق الحكيم..

.. الإسكندرية هي المكان الوحيد الذي أسافر إليه بانتظام خارج القاهرة، بدأت علاقتي بالإسكندرية منذ انتقالنا إلى العباسية، أول مرة ذهبت مع شقيقتي في

الصيف، وفي مرحلة الدراسة الثانوية، اعتدت الذهاب إلى الإسكندرية في الإجازات الصيفية، كلما نجحت، كافأني والدي وأعطاني عشرة جنيهات، وكان هذا المبلغ يكفيني لمدة شهر كامل بالإضافة إلى ركوبي الدرجة الثانية في القطار خلال الذهاب والإياب، كان عمي يقول لوالدي، أنت تفسده لأن نجيب عندما يتوظف لن يحصل على العشرة جنيهات، مما أذكره، أننا كنا نتناول الغداء، بالمناسبة كان زميلي في السفر صديقي إبراهيم فهمي من شلة العباسية، أصبح فيما بعد من الضباط الأحرار، ثم رئيسًا لشركة، كنا نتغدى عند حميدو، في هذا الوقت لم يكن الكورنيش قد بني، وكان فيه بلاجان فقط، إما الشاطبي أو الأنفوشي، كان حميدو عندما يجد مصيفين يترددون عليه يوميًّا، يعتبرهم زبائنه، كنا نطلب مثلًا خضارًا وأرزًا أو سمكًا، ولأننا زبائن دائمون يقدم لنا طبقًا هدية من المحل، هل تعرف هذا عبارة عن إيه؟ عبارة عن سمكتي بوري من الحجم الكبير، أذكر أنني دخلت مطعمًا ألمانيًّا في الإسكندرية، مطعمًا فخمًا جدًّا، كان فسيحًا ومن طابقين، مكانه الآن معرض عمر أفندي في شارع صلاح سالم، وكان المطعم فيه جرسونات يرتدون أزياء مهيبة، جلست، فوجئت بأربعة، واحد وضع أمامي الطبق، الثاني وضع الفوطة، الثالث قدم إليَّ قائمة الطعام، الرابع...، عندما وجدت هذا الاحتفاء، انتهزت فرصة ابتعادهم عني وانسحبت، خرجت بسرعة إلى الشارع، كانت الأكلة ستكلفني جنيهًا في وقت كنت أقضي فيه شهرًا كاملًا بعشرة جنيهات، لهذا جريت.

بيتـــرو..

.. لم أنقطع عن الإسكندرية أبدًا منذ ذلك الحين إلا في أيام الحرب العالمية الثانية، لم يكن أحد يغامر بالذهاب، كان لنا فرع من عائلتنا في أحد أحياء الإسكندرية، قصف الحي بالقنابل، ومات كل أفراد العائلة، أو بمعنى آخر أبيد هذا الفرع منا، عدت إلى الإسكندرية في أول سنة بعد الحرب، وكان يصحبني عادل كامل ومحمد عفيفي، وكنت خلال سنوات الحرب أقضي وقت الإجازة بمقاهي القاهرة، تسألني عن بيترو، المقهى الجميل الذي كنت أرتاده في الإسكندرية، للأسف هدم الآن، أزيل في العام قبل الماضي، تعرفت بالأستاذ توفيق الحكيم سنة 1947 بعد صدور زقاق المدق، الأستاذ محمد متولي الذي كان مديرًا للأوبرا قال لي إن الأستاذ توفيق الحكيم يريد أن يلتقي بك، إنه يقعد في المقهى المواجه للبنك الأهلي، ربما كان هذا سنة 1948، رحت قابلته، سألني.. إنت بتروح الإسكندرية؟ قلت نعم، قال لي إنه يقعد بمقهى سيدي بشر، في هذه الفترة كانت الحساسية في عيني قد اشتدت، كان أصحابي ينزلون البحر وأنا أبقى على الشاطئ، أثناء اتجاهي إلى الأستاذ توفيق الحكيم شفت مقهى بيترو، كان المقهى الآخر مطلًا على الرصيف مباشرة، عرضة لإزعاج المارة، قلت له، أنا شفت مقهى هادئًا ومعزولًا، تستطيع أن تخلو فيه إلى نفسك أنت وأصحابك، والمقهى قريب، منذ ذلك الحين بدأ جلوسنا بمقهى بيترو، أنا الذي اكتشفت بيترو، وبعد أن قامت الثورة ظهر الباشوات في المقهى وشفتهم في حالة الخوف الشديد التي كانوا عليها، من الذكريات الطريفة أن أحدهم كان في حاله، فيه شخص دمه خفيف كان يتكلم عن فيلم بينما الباشا سارح بنظره في البحر، قال هذا الشخص «.. دا حتى من رأي سعادة الباشا..» الكلام عن الفيلم. لكن الباشا فزع فجأة وصاح «أنا ماليش رأي ولا بتكلم في السياسة»، قال له «دا احنا بنتكلم في

الفيلم»، الباشا قال له «أنا عارف موضوعه إيه.. أنا ماليش دعوة».. كان هناك باشا آخر، المرجوشي طول عمره تاجر، قبل الثورة بشهور صفى تجارته، وقال إنه اكتفى بالتجارة، وأن أولاده تخرجوا في الجامعات وأنه يحب الريف، باع كل شيء واشترى عزبة خمسمائة فدان، قامت الثورة، أممت العزبة بعد تحديد الملكية، طبعًا أنت تعرف أن الثورة لم تمس التجار.. حظ.. لم يكن المرجوشي زراعيًّا ولا فلاحًا، طول عمره تاجر، لكنها مداعبة الحظ، بدأت علاقتي بتوفيق الحكيم من هنا، طبعًا هو حديثه ممتع جدًّا، وكثيرًا ما أكون مستمعًا إليه..

الخـارج..

.. فيما عدا الإسكندرية التي أسافر إليها بانتظام، لم أسافر إلى الخارج إلا مرتين، مرة إلى يوغسلافيا، ومرة إلى اليمن، إنني أكره السفر بطبيعتي، ولكنني استمتعت بالرحلتين، وحتى الآن أحن إلى المناظر التي رأيتها سواء في يوغسلافيا، أو اليمن، لم أكتئب هناك. بالعكس، استمتعت، علاقتي بالسفر غريبة، إذا قلت لي سافر، فكل شيء يضطرب، كأنك طربقت الدنيا فوق دماغي، ولكن إذا سافرت أستمتع حقيقة، لم أكن أضيق بالسفر في صدر شبابي، والدليل على ذلك أنني رشحت لبعثتين، بعثة لدراسة الفلسفة، وأخرى لدراسة اللغة، قل إن بعثة الفلسفة ربما غيرت حياتي، لكن بعثة اللغة كانت ستفيدني بلا شك، كنت سأدرس اللغة الفرنسية بعمق، وكنت سأرجع مدرسًا بالجامعة بدلًا من الوظيفة، وكنت سأنتهز فرصة وجودي في باريس لأدرس الأدب والفن، لم أكن كارهًا للسفر، ربما كانت كراهيتي للسفر الآن جاءت من عدم المرونة نتيجة للنظام الذي أخذت به نفسي منذ تفرغت للأدب، السفر يكسر هذا النظام، كنت أتمنى أن أشوف هذه الدنيا، طبعًا أنت تعرف لماذا حرمت من البعثتين.. كان الفائز الأول والثالث قبطيين، وكان ترتيبي الثاني، ظنوا أنني قبطي أيضًا بسبب اسمي نجيب محفوظ، واستكثرت اللجنة سفر ثلاثة أقباط، وهكذا حرمت من رؤية الدنيا.. في الإسكندرية كنا نسهر مع الشلة، في الصباح يذهب أصدقائي إلى البحر، وأمشي أنا على الشاطئ، أبدأ رحلتي مشيًا على الأقدام حتى الشاطبي، وفي اليوم التالي أبدأ من الشاطبي إلى الإبراهيمية، وفي اليوم الثالث أمشي من الإبراهيمية إلى كليوباترة.. وهكذا، واستمر هذا حتى تعرفت بتوفيق الحكيم..

ملحوظة

معظم روايات نجيب محفوظ تدور أحداثها في القاهرة، لا يمتد المكان خارج القاهرة إلا فيما ندر، ولكنْ هناك مكان آخر يبدو قويًّا، وبنفس درجة الحضور، إنه الإسكندرية، خاصة في «ميرامار» و«السمان والخريف»، وبعض القصص القصيرة، وهناك قصة قصيرة واحدة تجري أحداثها خارج مصر كتبها نجيب محفوظ بعد عودته من اليمن.

روض الفرج.. وأم كلثوم..

.. نعم، يظهر روض الفرج كمكان له ملامحه الخاصة في عدد كبير من أعمالي، أذكر أن والدي صحبني إليه، كان هناك عدد كبير من المسارح تعيد الموسم كله، يعني تجد مسرحًا يقلد الكسار، وآخر يقلد الريحاني، كله مقلدون، كل روايات الريحاني القديمة شفناها بواسطة ناس آخرين، طبعًا كان هناك مسارح راقصة،

وفرق فنية، أما أم كلثوم فلم أسمعها في البداية هناك، سمعناها في أسطوانات سنة 1926، تصور أنني تشاجرت مرة مع واحد لأنه قال إن أم كلثوم أحسن من منيرة المـ كنت من عشاق منيرة المهدية.

ملحوظة

كتب نجيب محفوظ في جريدة الأيام في 21 ديسمبر 1943 مقالًا عن أم كلثوم قال فيه:

«وما من جمود مثل أن تقارن أي صوت من الأصوات المصرية بهذا الصوت المتعالي، فقل في غناء أسمهان وليلى مراد ونور الهدى ما تشاء، إلا أن تقارنه بصوت أم كلثوم فتضره من حيث أردت أن تنفعه، وتهينه من حيث أردت أن تكرمه، وتمرغه في التراب وقد أردت أن تسمو به للسماء».

وبمناسبة أم كلثوم فإنني أميل إلى الموسيقى الشرقية، تربيت عليها، وكان لدينا فونغراف في بيتنا بالجمالية، حفظت وأنا صغير في بيت القاضي أغاني سيد درويش من الشوارع، لم يكن هناك راديو أو أسطوانات، لكنني حفظتها بدون أن أعرف صاحبها حتى تقدم بي العمر وسمعتها في الإذاعة، كانت مفاجأة لي.. الله دا أنا كنت باغني الحاجات دي، درست الموسيقى الكلاسيك من الكتب، وكنت أحضر السهرات التي تقيمها الفرق الزائرة، أما عن حبي لآلة القانون، فلأنه أحب الآلات إلى نفسي، كان التخت زمان محصورًا جدًّا، عواد، وكمانجاتي، ورقاق، وقانون، كنت أفضل هذه الآلة، ودخلت معهد الموسيقى، تعلمت لمدة سنة، كنت في الجامعة، وكان لا يوجد امتحان بين السنة الثالثة والرابعة، في هذه السنة دخلت المعهد، وكنت أدرس فلسفة الجمال، وظننت أن هذا المعهد يدرس الفلسفة الجمالية في الموسيقى، الفن التشكيلي عرفته من الكتب، لكن الموسيقى كيف أعرف الجانب الجمالي فيها، قلت سأجده هنا.. في المعهد.. وطبعًا لم أجده..

السينما.. أثمرت في سنوات اليأس الأدبي..

.. السينما دخلت حياتي من الخارج، لم أكن أعرف عنها شيئًا، نعم كنت أحب أن أشوف سينما، لكن كيف يعد هذا الفيلم؟ لا أدري.. كل ما أعرفه أن هذا الفيلم لرودلف فالنتينو، لماري بيكفورد.. إلخ، لا أعرف أن هناك كاتب سيناريو أو غيره، في سنة 1947، صديقي فؤاد نويرة قال لي: صلاح أبو سيف المخرج عاوز يقابلك، في هذه الفترة كانت لي عدة روايات آخرها زقاق المدق، رحت مع فؤاد، كنا في الصيف، قابلنا صلاح أبو سيف في شركة تلحمي السينمائية، قال لي: الواقع أنا قرأت لك عبث الأقدار وتبينت منها أنك من الممكن أن تكون كاتب سيناريو كويس، قال لي: إنه لديه قصة عنترة وعبلة، قلت له: أنا ليس لديَّ أي فكرة عن الموضوع، قال: معلش ستعرف السيناريو، فؤاد شجعنى على قبول العرض بدأ أبو يوسف يطلب مني حاجة، حاجة مثلًا، يقول لي: موضوع عنترة وعبلة كذا أو كذا، اكتبه لنا في عشر صفحات، أكتب القصة، أذهب لتسليمها وأنا أظن أن مهمتي انتهت، يقرؤها، يوافقون، وإذا به يقول لي: لا.. نحن لم نبدأ بعد. إن هذه هي فكرة الموضوع، نريد تحويله إلى سيناريو، تخيل الفيلم، أي نقطة سنبدأ بها؟ وبدأ يشرح لي الموضوع وأنا أطبق ذلك عمليًّا، بعد المعالجة، علمني تقسيم المناظر، وبعد أن قرأ نتيجة عملي أهدى لي كتبًا في فن السينما، واشتريت أنا بعض الكتب الأخرى. حقيقة، تعلمت السيناريو على يدي صلاح أبو سيف.. المهم أنه طلب مني أن أعمل معه باستمرار، لكنني اعتذرت لأنني متفرغ للأدب، قال لي: إنه يعمل في الصيف فقط، وقال لي.. إذا كانت حساسية عينيك تعوقك، يمكنك أن تملي على كمال عطية، بدأت أكتب سيناريوهات، أما أن أكتب القصة والسيناريو، أو أعد السيناريو لقصة، أود أن أقول لك إن السيناريو كتبته في الفترات التي كنت أتوقف خلالها عن الكتابة الأدبية، ولو أنه عطلني لحظة واحدة لتركته بدون تردد، كثيرًا ما طلب مني مخرجون آخرون أن أعمل معهم لكنني اعتذرت، صلاح أبو سيف كان مقلًّا، كان يعمل فيلمًا في السنة، كان مريحًا معي، لم أعمل باندماج إلا في سنوات اليأس الأدبي التي تلت كتابة الثلاثية، ذهبت وسجلت نفسي في النقابة، وأصبحت أعمل مع أي مخرج، توقفت عن كتابة السيناريو مرة أخرى عندما عينت مديرًا للرقابة، وكنت متعاقدًا على سبعة سيناريوهات، كان ذلك في 1959. الحقيقة أنني لم أكن سعيدًا بكتابة السيناريو، أنت كروائي رب عملك، ولكن هذا نوع من الخلق الجماعي، تقول يمين، تجد من يقول لك شمال أحسن. بعض هذه الآراء تكون وجيهة فنيًّا، آخر يبدي آراء من وجهة نظر تجارية، واحد يبدي رأيًا لأنه يحب الممثلة، لم أكن سعيدًا بهذه العملية، ترْك السيناريو بعد النجاح فيه تضحية لا مثيل لها، تضحية مادية طبعًا، مجموع ما أنتجته حوالي ثلاثين فيلمًا..

السينما والتركيز

.. الغريب أنني كتبت هذا العدد كله من الأفلام وقصصي لم تجد من ينتجها، كنت أجد من يقول لي إنها صعبة، حتى أعد أحمد عباس صالح رواية «بداية ونهاية»

لإذاعة صوت العرب، وعندئذ التفت إليها أهل السينما وقالوا هاتوا الرواية دي.. الله، طيب ما الرواية موجودة من الأول.. ثم أنتجت كل الروايات ونجحت، أول فيلم أعد لي «بداية ونهاية».. نعم أوافقك على ما تقوله، بالفعل المسلسلات التليفزيونية تمثل اليوم بالنسبة للأديب إغراء كبيرًا، المسلسل يساوي ثروة، وكانت السيناريوهات في الخمسينيات تمثل إغراء ضخمًا، لكنني لم أكتب سيناريو إلا في الوقت الذي كنت غير مشغول فيه بالأدب، أو خلال فترة اليأس التي حدثتك عنها، كثيرًا ما رفضت عروضًا مغرية، ولو أن ظروفي في العمل مع صلاح أبو سيف كانت ملائمة لي لما دخلت هذا المجال أبدًا، ومما لا شك فيه، بالقطع، أنني لم أكتب أي شيء في حياتي وعيني على السينما، لم يحدث هذا إطلاقًا، الأدب أدب، والدليل أن الروايات التي تحولت إلى أفلام، تحولت بصعوبة ومعجزة. هل ممكن لمؤلف أن يكتب ثرثرة فوق النيل وعينه على السينما؟ لا بالقطع، لكن السينما تؤثر من ناحية أخرى، الإيقاع سريع التركيز، وهذا تأثير عام للسينما في الأدب إننى أتساءل: لماذا اتجهت إلى التركيز بعد الإسهاب؟ هناك جملة أسباب، على رأسها الزمن وإيقاعه، يعني لو أنا في عمر مناسب، لا يمكنني كتابة الثلاثية الآن مع هذا الإيقاع، وتلك الظروف المحيطة بنا الآن، أضف إلى ذلك تأثير السينما والتليفزيون، وما يتميزان به من تركيز، وهذا يؤثر في أذواق الناس، وبالتالي فإن القراءة تتأثر أيضًا. إن الجملة التي تغني عن صفحة هي الأفضل الآن، فضلًا عن ذلك فإن أدبي كان طبيعيًّا، وأصبح الآن فكريًّا، والفكر لا يحتاج إلى إسهاب، كل العوامل أدت إلى التركيز، أفادتني السينما في التركيز، فيه ناس يقولون إن المونتاج أخذه الأدب من السينما، لكن هذا غير صحيح، إنه في الأدب قبل أن يكون في السينما، كذلك الرجوع إلى الماضي، على أية حال فإن الفنون تؤثر في بعضها.

.. لا.. لم تمثل السينما إغراء ماديًّا في أي يوم من الأيام، سأقول لك ما هو أكثر، الأستاذ مصطفى أمين أهداني آخر كتاب له وقد صدره بإهداء قال فيه: «إلى الكاتب الذي أردته أن يكتب يومًا في أخبار اليوم فرفض»، ولهذا الإهداء قصة، إذ كنت موظفًا في الأوقاف سنة 1944، كان مرتبي ثمانية جنيهات، أرسل إليَّ مع إحدى قريباتي التي كانت تعمل في أخبار اليوم، وطلب مني أن أكتب قصتين في الشهر مقابل خمسة عشر جنيهًا، كنت في أشد فترات حياتي إرهاقًا من الناحية المادية، مرتبي ضئيل، مسئول عن البيت بعد وفاة الوالدة، كان إغراء ماديًّا قويًّا، خاصة أنهم لم يطلبوا قصة قصيرة ذات مواصفات معينة، رفضت. لماذا؟ لأنني لم أكتب القصة القصيرة بدافع كتابة القصة القصيرة إلا في الستينيات بعد «أولاد حارتنا»، وكنت في هذه الفترة مشغولًا بكتابة الرواية. الأستاذ مصطفى أمين لم يصدق أنني رفضت العرض لرغبتي في التفرغ إلى الرواية، ففسر الأمر على أنني وفدي، وأخبار اليوم كانت تهاجم النحاس وقتئذ.. لم أعرف بهذا التفسير إلا منذ شهر عن طريق صديقي محمد عفيفي..

ملحوظة

الطريف أنني سألت مصطفى أمين في هذه الواقعة فذكر أنه قرأ لنجيب محفوظ عام 1943، وأن رواياته لفتت نظره، فأرسل إليه مع قريبة له كانت تعمل بأخبار

اليوم يطلب منه أن يكتب قصتين في الشهر، أن يكتب بالتبادل مع توفيق الحكيم، وكان الحكيم اسمًا كبيرًا في هذا الوقت، ويتقاضى أربعين جنيهًا في الأسبوع الواحد. وعندئذ اقترح مكافأة لنجيب محفوظ عشرين جنيهًا في القصة الواحدة، لأن اسم نجيب محفوظ لم يكن ذائع الصيت كتوفيق الحكيم، وهكذا يكون المبلغ الذي عرض على نجيب محفوظ أربعين جنيهًا، وليس خمسة عشر جنيهًا، أيهما نسي؟

هل نسي نجيب محفوظ الرقم مع الزمن؟

أم أن الوسيط لم يبلغ الرقم الحقيقي إلى نجيب محفوظ؟

* * *

.. رفضت العرض لأنه كان سيعطلني عن الرواية، أما القصص القصيرة التي نشرتها قبل ذلك فقد كان معظمها قصصًا قصيرة عبارة عن ملخصات لروايات قديمة لم تنشر، أما القصة القصيرة فلم أكتبها نتيجة رغبة حقيقية إلا في الستينيات.. لم أضحّ بأي شيء يعطلني عن الأدب، ولهذا فإن السينما لم تجرفني أبدًا بعيدًا عن الأدب، ولم أوقف كتابة عمل أدبي لأكتب سيناريو أو أي شيء آخر.. لم يكن هناك أي شيء يعطلني عن الأدب، عن الكتابة..

توقف

.. حدث أن توقفت مرتين في حياتي عن الكتابة، المرة الأولى سنة 1952، بعد الثلاثية، كان لديَّ موضوعات لا ينقصها إلا الكتابة، وماتت الرغبة، المرة الثانية بعد الخامس من يونيو 1967، رغبة وانفعال شديد، ولا موضوعات، لهذا كنت أبدأ من الصفر ولا أدري كيف سأنتهي..

لماذا هذا الموت في كلتا الحالتين؟

كنت دائمًا أقول تفسيرًا لمن يسألني عن الفترة الأولى، كنت أقول إن الثورة حققت الأهداف، وإن المجتمع لم يعد فيه القضايا التي تستفزني، كان سببًا يبعد عني الشبهات، خاصة أن السؤال حول أسباب التوقف له جانب سياسي، بدا لي أن إجابتي هذه سبب معقول، لكن هل هذا حقيقي؟ إنه مجرد تفسير. إنني توقفت أربع أو خمس سنوات، ما هي الأسباب؟ لا يمكن أن أقول وأنا في راحة ضمير ما هي الأسباب؟ لا أستطيع التفسير، مرة أخرى توقفت بعد أكتوبر 1973 لمدة سنة، ولكنني أستأنف العمل.. بعد فترة توقفي الأولى لم أكتب أي أدب، ولا حتى قصة قصيرة، وعندما استأنفت الكتابة بدأت في «أولاد حارتنا»، لكنني أعود فأتساءل عن سبب التوقف. ربما كانت الثلاثية هي السبب، إذ يمكن القول إنني أشبعت من خلالها رؤيتي، ولكنني لا أستطيع الجزم بذلك، خاصة أنه كان لديَّ سبعة موضوعات، أذكر أنني عرضتها مرة على عبد الرحمن الشرقاوي عندما كنت أعمل موظفًا في مصلحة الفنون، وأعجبه موضوع كان عن العتبة الخضراء، لقد ظننت أنني انتهيت وقتئذ، وخاصة أن لكل كاتب عمرًا فنيًّا، رامبو توقف وهو عنده اثنتان وعشرون سنة، قلت أشوف شيئًا آخر، وكان السيناريو عزاء محدودًا، وشغل الوقت مع السينمائيين، لكن هذا كله لم يغرني عن الأدب، كنت في أسوأ حالات عمري، لدرجة أنني كنت أشتهي

الموت!

أول قصص قصيرة أكتبها برغبة

«دنيا الله» تضم أول قصص قصيرة كتبتها في حياتي برغبة، رغبة في كتابة القصة القصيرة، كثير منها كان عن الموت، الحقيقة أنني لم أنتصر على فكرة الموت إلا بعد أن كتبت عنه، لا شيء يحررك من حاجة معينة مسيطرة عليك إلا الكتابة، أوافقك أيضًا على أن الإنسان حين يفكر كثيرًا في الموت فإن هناك موضوعًا آخر يكون مسيطرًا عليه، أو أزمة كبرى يمر بها..

النقــد

.. أول من كتب عني سيد قطب، وأنور المعداوي، كان هذا أول ما يكتب عني في عام 1948 و1949، منذ أن بدأت الكتابة عام 1929، بعد ذلك تعرضت لهجوم منتظم في جريدة الجمهورية، الحقيقة لا أدري سببه، بعد ذلك تغيرت الآراء، أصبحت أديبًا اشتراكيًّا، الأدب البورجوازي أصبح اشتراكيًّا، وبعد رواية الكرنك أصبح أدبي رجعيًّا، على أية حال، أنا لي رأي في النقد، كما يكون الأديب حرًّا، فإن الناقد هو الآخر حر، الناقد يكتب طبقًا لوجهة نظره، والكتاب لا تتم دراسته إلا إذا انعكست فيه جميع الآراء، لكن هناك أساس هو النقد الفني، مثلًا.. كأني أقول لك هذه الساعة من الذهب، تقول لي: إن لبسها حرام.. قد يصح هذا، ولكن قبل ذلك: عيارها كم؟ جاءت فترة غلبت عليها السياسة، والسياسيون محرومون من التعبير عن رأيهم السياسي، فالشيء الذي كان لا يقال مباشرة كان يقال عن طريق النقد، كذلك النقد الفني صعب، يحتاج إلى دراسة، وذوق، وجهد، ولا يقدر عليه أي كاتب، لكن النقد ذا المضمون السياسي سهل.

..كان انفعالي بأول مقالة كتبت عني كبيرًا، جاءت بعد صمت طويل، أذكر أنها كانت لسيد قطب، طبعًا الصمت مؤلم، لكن إذا حصرت نفسك في حب العمل فإن في ذلك عزاء كبيرًا، يمكن القول إن النقد أفادني، لكنه يربك في البداية، على سبيل المثال كتبت زقاق المدق ببراءة تامة، جاء أحد النقاد وكتب أن حميدة تعني مصر، كنت في دهشة، أحيانًا يفتح النقد أبعادًا كبيرة، لكن كل اهتمامي كان في البداية، اليوم قد أجد مقالة في مجلة أقرؤها بسرعة، في البداية كان النقد ممكنًا أن يفيد، لكن الآن هل تنتظر من النقد أن يغيرني؟ أعتقد أنك غدًا ستجرب ما أقوله.

ما تبقــى..

.. الآن، أصبحت أعمالي الأدبية مستقلة عني، لم أقرأ رواية مرة أخرى، ما هو إحساسي بالروايات الأولى؟ لا أدري، الطبعات الجديدة تصحح في المطبعة ولا أعرف بصدورها إلا آخر العام، لكن إذا فكرت في أعمالي الآن فسيقفز إلى ذهني -كما قلت لك- الثلاثية، الحرافيش، أولاد حارتنا وحكايات حارتنا، نعم.. حكايات حارتنا، تقول إن السبب ارتباطها بالطفولة، ربما كان هذا صحيحًا، ولكن معظمها خلق بحت، فيها حاجات بدأت فيها كأنه واحد سبور في طياته ثم أفلتت منه، أتفق معك، ربما كانت تمهيدًا للحرافيش، «المرايا» بدأتها عدة بدايات، خطر لي أن أكتب عن الناس الذين مروا بحياتي ولم يلحوا عليَّ فنيًّا، ثم جاءت فكرة أخرى، أن أكتب عن الناس الذين

عرفتهم بشكل واقعي، كلا المشروعين لم يتم، إذا التزمت بالحقيقة وجدت أن المحصول محدود جدًّا، تحولت في الكتابة إلى الرواية، مع أنني بدأتها بنية الكتابة عن أشخاص محدودين بشكل واقعي، أحيانًا يخيل إليك أنك تعرف كل شيء عن شخص معين، وإذا قررت الكتابة عنه تجد أنك لا تعرف عنه شيئًا، لكن عندما يتعلق الأمر بالخلق توجد شخصيات مختلفة.. وجديدة!

الوظيفـــة..

.. دخلت الوظيفة سنة 1934، وجدت انقسامًا حادًّا في حياتي، الوظيفة شيء، والأدب شيء، أحببت الوظيفة، وكنت أنوي عند بلوغي السنة التي أستحق فيها معاشًا كاملًا أن أحيل نفسي إلى التقاعد، لكنني عندما وصلت إلى هذا اليوم كانت المتطلبات المادية أكثر، فبقيت في الوظيفة حتى بلوغي السن القانونية، منذ سنة 1955 وحتى سنة 1965، كان الأدب ممكنًا أن يفي بحاجاتي المادية ولكن بعد انتشار ظاهرة تزوير الكتب في الخارج أصبح ذلك مستحيلًا، رفضت دائمًا أن أتفرغ للعمل في الصحافة خوفًا من الضياع، لأنه مجال مختلف عني ولم أعد نفسي له، لم تكن الوظيفة مملة، كنت أتعامل يوميًّا مع العديد من الناس، ونماذج لا حصر لها، من أخصب فترات الوظيفة المرحلة التي عملت خلالها في وزارة الأوقاف، الأوقاف عدة وزارات في بعض، صحة، زراعة، دين، كنت ترى المستحقين، ونوعيات مختلفة بدءًا من حفيد السلطان عبد الحميد إلى فلاح فقير له حصة في وقف، كان فيها حاجات عجيبة، عاصرت الوظيفة في أطوار مختلفة، لم تكن هناك قوانين تحمي الموظف، أول قانون عمله أمين عثمان في وزارة النحاس سنة 1942، عدا ذلك لم يكن يتقدم في الحكومة إلا أوباشها، كان هناك من يبيعون أعراضهم، كنا نعرف أن مدير مكتب أحد الوزراء أعد شقة خاصة للوزير، أضف إلى ذلك انتشار الشواذ، يعني نموذج محجوب عبد الدايم، ورضوان بن ياسين في الثلاثية كان منتشرًا جدًّا، كانت أيامًا شبيهة بأيام المماليك، جهاز إداري فاسد، لكن بالنسبة لمسألة الرشاوي كان الحال أفضل من الآن، كان فيه انضباط وإدارة قوية، في إدارة الجامعة مثلًا كان فيه موظف واحد مرتشي، وكان معروفًا، طبعًا مصادر الرشوة كانت اختصار الإجراءات، نفس الإجراءات يمكن أن تستغرق شهرًا أو تستغرق يومًا، والسبب صياغة معينة في المذكرة، مثل «أفيدونا عن الشيء الفلاني».. إلخ.. تعاقب الوزارات المختلفة كان يصبح له انعكاس على الوزارات، الكبار يذهبون، عامة الموظفين متفرجون، كان هناك ترحيب دائمًا بوزارات الوفد، لأنه جرت العادة على أن ينال صغار العاملين بعض الفائدة، عندما نقلت إلى مكتبة الغوري كان ذلك بسبب تغيير وزاري، كنت على صلة بأحد الوزراء، لم تكن صلة عميقة، وعندما حدث تغيير طلبوا مني أن أختار مكانًا آخر، طلبت النقل إلى قبة الغوري، ظنوا أنني أحتج، ولكنني قلت لهم إنني سأكون سعيدًا جدًّا، طبعًا أنت تعرف أن القبة تضم مكتبة ضخمة، في هذه الفترة قرأت مارسيل بروست، عملت أيضًا فترة في مشروع القرض الحسن، فترة ممتعة، كانت النساء يجئن ليَرْهَنَّ الحلي والمصاغ، طوال النهار أتحدث وأرغي مع النساء القادمات من الحواري، والأحياء الشعبية.

اســتثناءات..

.. عندما التحقت بوزارة الأوقاف، كان يزاملني المرحوم كامل كيلاني، حذرني من إظهار أي نشاط أدبي، طلب مني أن أخفي هويتي كمؤلف، قال لي إنهم لو عرفوا فسيضطهدونك، لأنني عانيت من ذلك معاناة شديدة، أخفيت الأمر، السبب أن بعض الوزراء كانوا يتولون الوزارة فيكرمون كامل كيلاني، عندئذ تحدث ضجة في الوزارة، يقولون «إيه ده.. هو كل واحد كتب كلمتين إنشاء يأخذ علاوة أو ترقية، أمال فين المذكرات القانونية..»، لم يعترفوا إلا بهذا، لكن تأليف الكتب لم يكن له مجال، لهذا أرهقوا كامل الكيلاني، كان معي محمد مصطفى الماحي الشاعر، ومن قبلنا عمل العقاد في وزارة الأوقاف. استوحيت الكثير من الموظفين، وعدد كبير منهم دخل في رواية المرايا..

ملحوظة

راجع الفصول الخاصة بـ «ثريا رأفت»، «شرارة النحال»، «صبري جاد»، «صقر المنوفي» ،«طنطاوي إسماعيل»، «عباس فوزي»، «عدلي المؤذن»، «عبد الرحمن شعبان»، «عبده سليمان»، «فتحي أنيس»، «كاميليا زهران»، «وداد رشدي».

رواية «المرايا»...

الحب الأول.. والكبير...

«عايدة، يا قضائي وقدري..»

«ولو لم أعرف عايدة لكنت إنسانًا

غير الإنسان، ولكان الكون غير الكون»

كمال عبد الجواد ـ قصر الشوق

.. خبا حبي الأول منذ زمن بعيد، لا أستطيع تتبع أخبارها الآن، لأنها ابنة عائلة اندثرت منذ مدة، قصرهم أصبح عمارة، كانت سراياهم في شارع بالعباسية اسمه حسن عيد يصل بين شارع العباسية وشارع الملكة نازلي، أصبح مكان السراي الآن عمارتان حديثتان، لا أعرف مصيرها، أو أين هي الآن، في مصر، خارج مصر، حتى إخوتها انقطعت أخبارهم عني، فيه حاجات غريبة، أحيانًا يقولون إن الدنيا تلف وتدور ثم تشوف، لكن هذه انقطعت أخبارها كلها عني بالمرة، الغريب أن البيت الصغير الذي أسكن فيه بالإسكندرية تعيش به قريبتها، في الطابق الذي يقع تحتي، ابن عمها دكتور، قابلني وتذكرني، لكن ليس من المعقول أن أسأله عنها، معقول أن تكون ماتت، معقول جدًّا، لو أنها تعيش فهي الآن فوق الثمانين، أظن أنها تزوجت مهندسًا، قيل هذا في الزمن البعيد، لا أذكر، بعد زواجها لم أرها إلا مرة واحدة في ميدان الإسماعيلية، واسمه الآن ميدان التحرير، تمكن مني هذا الحب في شبابي إلى حد كبير، الغريب أنك تجد أحيانًا وجهًا ما يخيل إليك أنك على موعد معه، لماذا هذا الوجه بالذات؟ لا أدري، لماذا هذا التكوين بهذا الشكل بالذات يؤثر في الإنسان هذا التأثير بالذات؟ أيضًا لا أدري، هذا شيء غامض لا تفسير له عندي..

ملحوظة

نستعيد هنا فصل «صفاء الكاتب» من المرايا:

كان بيت الكاتب من أعرق البيوت في العباسية القديمة، وكان يقع في الحي الشرقي بمبناه الشامخ وحديقته المترامية ما بين محطتي ترام. وكثيرًا ما سرنا بحذاء سوره ونحن في طريقنا إلى الصحراء للعب الكرة فلم أر منه إلا رءوس الأشجار وخمائل الياسمين والستائر المسدلة. وذات يوم وكنت ماضيًا نحو الصحراء رأيت حنطورًا ينحدر من الطريق الشرقي نحو الشارع العمومي، في صدره جلست عجوز تلوح من وجهها عينان ناعستان فوق حافة اليشمك. وإلى جانبها فتاة تتألق بنور الشباب. وبمجرد أن وقعت عيناي على وجه الفتاة عانقت سرًّا من أسرار الحياة المتفجرة، تفتحت بها أبواب السماء فأغدقت عليَّ فيضًا من بركان الحب. وقال شعراوي الفحام وكان أكثرنا خبرة بالحي الشرقي:

هي صفاء ابنة صاحب القصر.

وقال خليل زكي وكان يسطو على حدائق الحي الشرقي كلما وجد غفلة ليخطف عنقود عنب أو ثمرة من المانجو:

وهي في العشرين من عمرها.

وعند ذلك همس جعفر خليل في أذني وقد لحظ تغيري:

أما أنت ففي الخامسة عشرة!

ومن عجب أن صورتها -رغم العاطفة التي ابتعثتها- اختفت تمامًا وراء سحب الماضي، بل تعذرت على الوضوح حتى وأنا فريسة لسحرها. لا أعرف لون شعرها ولا تسريحته ولا لون عينيها أو رسمها ولا طول قامتها أو درجة امتلائها. ذاب ذلك في سائل سحري، وكنت إذا تذكرته -أو خيل إليَّ ذلك- فعن طريق غير مباشر وبإيحاء عفوي كشذا الورد الذي يباغتك من وراء سور وأنت ماض غارق في أفكارك. وكأن قلبي لم يكن يحركه شيء إلا إذا انتمى إليها بسبب خفي. ولذلك همت في أزمنة متأخرة نسبيًّا بقسمات وملامح وسمات ولفتات لنجوم توهمت أنها تذكرني بما غاب عني منها، بل ما أحببت صفة في وجه إنساني إلا وكانت هي وراءه حقيقة أم وهمًا. وبسبب ذلك الحب الخاطف عانت حياتي العاطفية من أزمات متواصلة معقدة كأنها السحر الأسود. والعجيب أنه كان حبًّا بلا مواقع ولا مواقف ولا تاريخ يذكر. رأيتها في الحنطور ثواني ليس إلا ففقدت إرادتي وألقي بي في طور جديد من أطوار الخلق.. وكنت قريب عهد بحب حنان مصطفى، فأدركت خطئي وآمنت بأنني أحب لأول مرة. وعرفت كيف يغيب الإنسان وهو حاضر ويصحو وهو نائم، كيف يفنى في الوحدة وسط الزحام ويصادق الألم، وينفذ إلى جذور النباتات وموجات الضوء. وجعلت أحوم حول سراي الكاتب وهو قصر مغلق النوافذ مسدل الستائر لا يرى به إنسي سوى البواب والبستاني وبعض الخدم. وسمعت مرة صوتًا ناعمًا ينادي البواب فاهتز قلبي وافترضت في الحال أنه صوتها ثم آمنت بذلك. ورأيتها للمرة الثانية في مناسبة حزينة جدًّا. في نافذة بيت أثري بشارع محمد علي احتشد فيه نفر من النساء لمشاهدة جنازة سعد زغلول. ولم أنتبه إليها عقب مرور النعش فرأيت من خلال دموعي وجهها المشرق وهي تجفف عينيها مادة عنقها وراء النعش المبارك. خفق قلبي خفقة مباغتة ولكنني لم أنعم بالرؤية وفقدت النشوة في قلب كسير محزون، واجتاحتني عواطف متناقضة كما اجتاحني تيار الخلق المتلاطم الباكي. لم أرها بعد ذلك إلا ساعة هبطت أدراج السلاملك في ثوب العرس لتستقل سيارة إلى بيت العريس، وكنت ضمن حشد وقف على الطوار المواجه للقصر للفرجة. وكانت مدة ذلك التاريخ الذي مر بلا أحداث عامًا إلا قليلًا، ولكنه كان أعجب عام في حياتي.

وانكشف أمري لأصدقائي جميعًا، أما المهرجون فسخروا مني وأطلقوا عليَّ «مجنون صفاء»، وأما الآخرون فحذروني من التمادي في عاطفة لا جدوى منها البتة. وكنا صغارًا وكانت أفكارنا ساذجة مستعارة من الروايات وما عرفناه من تاريخ الأدب العربي، فقال لي سرور عبد الباقي:

- لا تستسلم وإلا جننت كمجنون ليلى..

وقال لي رضا حمادة:

- إن حبك هذا يقطع بأنك أحببتها في تاريخ سحيق مضى، ربما في عصر الفراعنة، كما يقول ريدر هجارد..

وتمثل ذلك الحب في صورة قوة طاغية متسلطة لا تقنع بأقل من التهام الروح والجسد. قذف بي في جحيم الألم، وصهرني، وخلق مني معدنًا جديدًا تواقًا إلى الوجود، ينجذب إلى كل جميل وحقيقي فيه. وبقي الحب -بعد اختفاء خالقه- ما لا يقل عن عشرة أعوام مشتعلًا كمجنون لا علاج له، ثم استكنَّ على مدى العمر في أعماقي كقوة خامدة -ربما حركتها نغمة أو منظر أو ذكرى فتدب فيها حياة هادئة مؤقتة تقطع بأنه لم يدركه الفناء بعد. وكلما تذكرت تلك الأيام أذهلني العجب، وتساءلت بدهشة عن سر الحياة التي عشتها، وهل كان أصابني مس من الجنون، وأسفت غاية الأسف أنه لم يقدر لحبي أن يخوض تجربته الواقعية، وأن تتلاقى في دوامته العنيفة السماء والأرض، وأن أمتحن قدراتي الحقيقية في معاناته ومواجهة أسراره على ضوء الواقع بكل خشونته وقوته. وما أحكم رضا حمادة حين قال لي يومًا وقد بلغنا درجة من النضج والتجربة:

- صفاء ألقيت في حياتك كمثير.. لم تكن إلا «شفرة» تشير إلى شيء، تعيَّن عليك أن تحل رموزها للوصول إليه. قلت له:

- لقد تحللت حياتنا إلى سخريات ولكني أكره أن أذكر تلك الأيام باستخفاف..

- استخفاف؟!. كيف يستخف إنسان بأروع سني العمر؟!

ومررت بقصر آل الكاتب في الستينيات فوجدته قد هدم ورفعت أنقاضه، مخلفًا أرضًا فضاء تحفر تمهيدًا لإقامة أربع عمارات سكنية. ابتسمت وأنا أنظر إلى الأرض الفضاء، وعبرني إحساس بالأسى، فتذكرت صفاء التي لم أرها منذ هبوطها في ثوب العرس، التي لم أدر عنها شيئًا، حية كانت أم ميتة، سعيدة أم شقية، وكيف غيرها الكبر بعد بلوغ السنين؟ وأيًّا كان خبرها، ورأي الآخرين فيها، ألم يكن من حقها أن تعرف أنها عبدت في محراب كإله، وأنها فجرت في قلب حياة ما زالت تنبض بين الحين والحين بذكراها؟

* * *

.. كتبت الكثير من أعمالي تحت تأثير حالة حب، ليس من الضروري وأنا أعيش التجربة، لكن بعد مرورها، وأعتقد أن الأديب يبدع أفضل ما عنده وهو يحب، ولما كان حب المرأة غير متاح دائمًا، فقد كان حب أي شيء محل حب المرأة، إن التعبير عن تجربة حب بعد الانتهاء منها يظهر كل أبعادها ويبرئها من التحيز، ويساعد على خلق عمل جديد.

.. نعم، عبرت في قصصي عن كثير من المنحرفات، البعض يستبشع هذا، لكن ما هو موجود في الواقع أفظع بكثير، أعتبر رواياتي حشمة بالنسبة للواقع، أعرف عن الواقع الإحصائي حقائق مخيفة، ما عرفته بالمشاهدة بسيط لأنه لا يؤدي إلى الحقيقة بالضبط، في أحد الأيام تعرفت إلى ضابط بوليس بمكتب حماية الآداب، كان شقيقه موزع أفلام، جاء إليَّ في ريش، وبدأ يحكي عما يشاهده، أشياء فظيعة، الحياة الاجتماعية التحتية مرعبة، لماذا نتجاهلها؟ إن سبب معظم حالات الانحراف الحاجة، معظمهن انحرفن نتيجة ظروف ساحقة، إن حياة الانحراف كريهة، إن لم تكن المرأة مصابة بانحراف في عقلها فإنها لا ترضى بهذه الحياة، إن الرجال مسئولون في معظم

الأحيان عن انحراف المرأة، إن المنحرفة في القاهرة الجديدة عندما تضعها بجانب المسئول الكبير، الوزير، فإن المسئولية تقع على عاتق الوزير.

.. عرفت النساء في الأحياء الشعبية من المعايشة المباشرة، يكفي جلوسي أمام بيتنا في الجمالية، كن يجئن إلى أمي، إحداهن تبيع الفراخ، أخرى تكشف البخت، دلالات، منهن نساء واظبن على زيارتنا في العباسية، كنت أصغي إليهن في أحاديثهن مع الوالدة، وهن يروين لها الأخبار، وعرفت نماذج عديدة منهن في روايات فيما بعد.

.. بالنسبة لإشراك زوجتي في قراءة أعمالي، فإن المبدأ أوسع من ذلك، يوجد كُتاب تعودوا اشتراك الآخرين في عملية الإبداع الفني بمعنى أنه يعرض أعماله على زوجته أو شقيقه، أو صديقه، وإذا وجد مثل هذا المبدأ، تصبح الزوجة لها الأولوية بالطبع، خاصة إذا كانت لها اهتمامات أدبية. وهناك كاتب يعتبر عمله سرًّا حتى يرى النور، وأنا أنتمي إلى هذا النوع، إذ إنه في رأيي لا يوجد اثنان يمكن أن يتفقا في الرأي حول عمل أدبي أو فني.

.. أرقب ابنتى ربما بدهشة، أم كلثوم كان لديها استعداد للفن التشكيلي، ظننت أنها ستتجه إلى دراسة الرسم، ولكن هذا لم يحدث، لماذا لم تتخصص في هوايتها الوحيدة، بدلًا من ذلك التحقت بالجامعة الأمريكية؟ أم كلثوم تبدو عصرية المظهر، متدينة، قبل أن تنام تقرأ القرآن، عرفت صدفة أنها تصلي، إلى جانب ذلك تحب الغناء الإفرنجي، مرة دفعتُ ابنتي سنتين من عمرها بعد حصولها على الثانوية العامة نتيجة تدخلي، كنت أود أن تلتحق بكلية الآداب، قسم اللغة الإنجليزية، وكانت تريد أن تدخل الجامعة الأمريكية، أصررت على الآداب، لكنها لم تستطع الاستمرار بعد أن التحقت بها لمدة عام بالفعل، قدمت في الجامعة الأمريكية، وكانت شروط الالتحاق قد أصبحت أصعب، ثم اشترطوا عليها سنة لدراسة اللغة، ابنتي الصغرى فاطمة تدرس السكرتارية في الجامعة الأمريكية أيضًا، طبعًا مزاجهما يختلف عني، هما تحبان الموسيقى الغربية، أنا أحب الموسيقى الشرقية، الغريب أنهما لمدة قريبة كانتا منطويتين، من المدرسة إلى البيت، ودائمًا معنا، كان المفروض أن تتشبعا بروحي، لكنهما نقيضي في كثير من الأشياء، أتساءل من أين جاءتهما هذه المؤثرات على الرغم من انطوائيتهما وعدم الاختلاط بالخارج لمدة كبيرة، فيهما نفس سمات الجيل، الذوق الغنائي، الاهتمام بالعالم، وليس بالواقع المحلي، ولكنني سرعان ما أتذكر أنني نشأت في بيت لا أحد يقرأ فيه، ومع ذلك قرأت وعشقت الأدب، هن أمامهن مكتبة ضخمة، وأسطوانات لا حصر لها لأم كلثوم، لكن لا المكتبة تعنيهما، ولا أم كلثوم، حقًّا.. ولى زماننا، وهذا زمان مختلف، زمان غيرنا!!

* * *

.. الزواج.. والأسرة..

.. الحقيقة أن المرأة في حياتي وأدبي شيء واحد، لعبت المرأة في حياتي دورًا كبيرًا إن لم يكن مثل السياسة فهو يفوقها، أثر الوالدة في التربية، ونوع الثقافة التي منحتها لي على الرغم من أنها لم تكن مثقفة، ثم تجربة الحب الأولى الذي سيطر على حياتي إلى درجة كبيرة، وبعد ذلك تجارب الحب، يمكن أن تسميه، حبًّا طياريًّا، لكن كان له أثره الكبير في تعرفي إلى عدد كبير من النساء والفتيات، نماذج عجيبة وغريبة، ظهرت فيما بعد في أعمالي كلها، ثم تجيء قصة زواجي الغريبة، إذ إنني تزوجت بدون أي تخطيط، وبعد فترة من الصراع، هل أتزوج أم لا أتزوج؟ تمامًا كالأزمة التي مررت بها في الثلاثينيات، الأدب أم الفلسفة؟ ثم حسمت الصراع بقراري، ألا أتزوج، وكانت أمي تلح عليَّ في الزواج، رتبت لي مشاريع زواج عديدة، زيجات معقولة ولا بأس بها، وأرفض.. كيف تزوجت إذن؟ كنت أعرف صديقًا كما أعرفك، وفي أحد الأيام يعرفني بزوجته، وأخت زوجته، وأجد نفسي أتزوج شقيقة امرأته.. هكذا! هكذا تم الزواج، على الرغم من تعقيدات عديدة في الأسرة، حتى أن خبر زواجي لم يعرف به إلا عدد قليل من الأسرة، أشفقت على الوالدة لأنها كانت تجهز لي ترتيبًا مختلفًا، نفس أخي وأختي نصحاني بتكتم الخبر، وكانا على علم بزواجي، لقد أفضيت بزواجي إلى أمي على درجات حتى لا أحدث لها صدمة، وهناك شيء على جانب كبير من الغرابة..

فتـــرة اليـــأس

.. تزوجت في عام 1954، خلال توقفي عن كتابة الرواية في فترة اليأس الأدبي، تزوجت وأنا سينارست أكتب للسينما، من الممكن أن يكون الفراغ الذي كنت أعانيه قد لعب دورًا كبيرًا في دفعي إلى الزواج، وإلا.. فما الذي كان يخيفني من الزواج قبل ذلك؟ إنه الأدب، وهذا تصور خاطئ، وتفاصيله مكتوبة في يومياتي التي كنت أدونها يومًا بيوم، ثم توقفت عن الاستمرار في كتابتها، وعندما أعود إلى قراءتها الآن، أجد ما يدهشني، لم يكن تصوري صحيحًا، كنت أناقش نفسي في يومياتي، هل أتزوج أم لا؟ وكنت أقول إن الزواج سيحطم حياتي الأدبية، وأنتهي إلى قرار برفض الزواج، فيما بعد، بعد أن استعدت حياتي الأدبية واستأنفت الكتابة، أعتقد أن حياتي الزوجية قد ساعدتني، وليس العكس.

الواجبات الاجتماعية

معروف أن الزواج يفرض نوعًا من الواجبات الاجتماعية، وهذا يؤدي إلى تبديد الوقت، لكن زيجتي كان لها ظروف خاصة، كانت أسرة زوجتي محدودة، حتى شقيقتها وزوجها سافرا إلى ليبيا، كان لها خال عجوز يعيش دائمًا في البلدة، ولا يجيء إلى مصر إلا نادرًا، كان ذلك بخلاف مشاريع الزواج الأخرى المعدة لي، إذ إنها كانت تقع في بؤرة علاقات اجتماعية متشابكة، وكنت مضطرًّا في حالة ارتباطي بعلاقة منها إلى تبديد وقتي في المجاملات والزيارات، أو أن أصبح مثيرًا للاستنكار كأن يقال مثلًا «هذا زوج لا يزور.. ولا يحب الزيارة» إلى آخر هذه الأمثلة، وكنت

عندما أزور شقيقي إبراهيم، أو أخي محمد، أشوف إلى أي حد الحياة الزوجية حياة اجتماعية، لا تسأل عن أحدهما يومًا إلا وتجده في حفلة شاي هنا أو عيد ميلاد هناك، ومثل هذه الأمثلة كانت تخيفني من الزواج.. بالطبع طرأ تغيير على حياتي بعد الزواج بالنسبة لنظام عملي، يوم الجمعة صباحًا خصصته بأكمله للعائلة، نخرج فيه إلى الحدائق، في الإجازات الصيفية كنا نقضي معظم الوقت معًا، أما عن فترة الطفولة الأولى بالنسبة للأولاد فلم تكن معطلة بالنسبة لي، العبء الأكبر حملته عني زوجتي.. عرفت مع الوقت مزاجي، ونظام حياتي، وكانت متفهمة دائمًا ومعاونة لي، يجوز لو زوجة أخرى كانت قرفتني، لكن هذا لم يحدث، إن التجربة بالنسبة لهذه الناحية موفقة، كذلك من ناحية العلاقات الاجتماعية، حتى عندما كانت شقيقتها تجيء إلى مصر، كنت أذهب إليها نادرًا، ليس هذا فقط، ولكن عندما يجيء أشقائي لزيارتي لم أكن أجلس معهم معظم الوقت، كانوا يصافحونني، ويخرجون مع زوجاتهم ليجلسوا مع العائلة. اعتاد أشقائي ذلك، كانوا يعرفونني، أذكر أن أخي محمد – الله يرحمه – عندما كان يجيء إلى زيارتنا بعد الغداء، أجلس إليه قليلًا لكنه يقول لي، قم إلى شغلك، أنا أعرفك.. إنما جئت لأقعد مع الأولاد.. أعترف أنني لم أكن موفقًا في حياتي الاجتماعية، العلاقات والزيارات وما إلى ذلك، لكنني كنت حريصًا ألا أبدد وقتي أبدًا..

البـدائـل

كيف كانت ستمضي حياتي لو ارتبطت بإحدى الزيجات التي كانت تعد لها الوالدة؟ سؤال قد يبدو صعبًا، ومما يساعدني على الإجابة أنني تتبعت بعض النماذج التي كان من الممكن أن أرتبط بها، تتبعت الأخبار بالطبع، كانت والدتي تركز على إحدى قريباتي، كانت ثرية، وكانت أمي تتصور أنها ستسعدني، أم قريبتنا رحبت بي لسبب غريب جدًّا، البنت عادية الشكل، ليست قبيحة، وليست جميلة جدًّا، لكنها تصورت أن من سيتزوج ابنتها سوف يسرق ثروتها، ثروة تقدر بربع مليون جنيه، تصور.. أيام الرخص، أبوها رجل جمع ثروته بمختلف الطرق، كان مشهورًا بخراب الذمة، مات وترك العائلة هكذا، البنت وشقيق مستشار، وأخ طيار، الأولاد على خلق عظيم، لكن الأب حرامي كبير، وطبعًا كان محترمًا جدًّا تقف في المجتمع، رأيته في بعض المآتم، إذ يدخل كل الناس تقف له، كان متزوجًا من إحدى قريباتي، إذا حوسب على عمله فالبصق عليه قلة، ولكن تجاه المال والثراء تضعف النفوس، لن أقول لك إنني رفضت البنت بسبب أبيها، أمها كانت سيدة على خلق، وحريصة عليَّ جدًّا، لأن إحساسها أنني الوحيد الذي لن يمد يده إلى ثروة ابنتها، لن يسرقها، يعني كنت مجرد موظف صغير في وزارة الأوقاف، ولو أرادت أن تزوج ابنتها إلى وزير لاستطاعت، لكنها كانت تريد زوجًا لا يطمع في أموال ابنتها، ووجدت فيَّ ضالتها، زوجها ملأها بفكرة سيئة عن الرجال، وتحولت الفكرة إلى خوف على البنت، لم أتزوج الابنة، ومع الأيام تزوجت شابًّا على خلق، أعرفه، ظل يتردد عليَّ في نادي القصة، وكان دائم الشكوى، لأن مرتبه صغير، وأمها تريده هو أن يصرف.. انظر إلى الخوف على الثروة، كان يقول لي.. يا فلان، يعني حالي يرضيك، مرتبي لا يكفي، وزوجتي لديها كل هذا المال؟ كلامه معقول، لكن عقدة الثراء فظيعة، وسطت أحد أقاربي ليتحدث إلى الوالدة.

ليس من المعقول أن يكون لابنتك كل هذا المال، وتعيش مع زوجها في ضنك، حرام.. وابنتك ليست في مستوى مرتب قدره أربعون أو خمسون جنيهًا فقط..

أمـي.. وأبـي

أوافقك على أن أمينة فيها ملامح كثيرة من الأمهات المصريات، لكنها ليست أمينة الأم في الثلاثية، أمينة فيها من أمي القليل، والدتي برغم جيلها كانت منطلقة، يعني من تتصور أنها قادرة على الخروج من منطقة الحسين لتزور الأهرام، والمتحف المصري، وقسم المومياءات، حتى الآن لا أعرف كيف، ولم أكن في سن تسمح لي بتوجيه أسئلة الاستفسار، كنت أمشي في يدها.. وخلاص، كانت والدتي – رحمها الله – عصبية إلى حد ما، والدي كان «دقة قديمة» لكن لطيف ومحبوب، معظم أيامه في البيت، لا يسهر في الخارج إلا مرة كل أسبوع، سواء في أيام وظيفته، أو عندما أصبح تاجرًا، نعم.. كان والدي موظفًا، وعندما وصل إلى مدة الخدمة التي يستحق عنها معاشًا كاملًا أحال نفسه إلى التقاعد. له أحد الأصدقاء، صاحب متجر كبير وفابريكة، كان يذهب دائمًا إلى بور سعيد، قال له: لماذا لا تأتي وتعمل معي؟إنني في حاجة إلى من أثق به، وهكذا تجمع بين المعاش والمرتب، وأطمئن أنا إلى تجارتي في يد صاحبي وأعرف أن أسافر وأتفرغ لشغلي، والدي ضربها في دماغه، كان موظف حسابات، والعمل عند صاحبه أقل تعقيدًا.. قبل.. لم يكن هناك شبه بين أمي وأمينة في الثلاثية، كذلك بين أحمد عبد الجواد ووالدي.. رحمهم الله أجمعين!

* * *

الأماكن الحميمة بين القاهرة والإسكندرية

في السبعينيات، بالتحديد عام ثمانية وسبعين، صحبت محفوظًا في جولة جسنا معًا خلال أماكنه الحميمة في القاهرة القديمة، إنها إحدى المرات القليلة التي قام فيها بهذه الجولة الواسعة في ذلك العمر المتقدم. ومنذ حادث عام أربعة وتسعين لم يطأ أرض الجمالية ومواقع صباه.

المكـان..

لم أر إنسانًا ارتبط بمكان نشأته الأولى مثل نجيب محفوظ. عاش في الجمالية اثني عشر عامًا، هي الأعوام الأولى من عمره، ثم انتقل إلى العباسية، لكنه ظل مشدودًا إلى الحواري والأزقة والأقبية.. إلى الحسين، إلى الجمالية، إلى الناس الذين عرفهم وعرفوه، ثم كان المكان محورًا لأهم وأعظم أعماله الأدبية، ومع بداية الصيف يتوقف نجيب محفوظ عن الكتابة طوال العطلة وحتى بداية الخريف، وذلك بسبب مرض عينيه بالحساسية. وفي الأسبوع الأول لعطلته، ذهب إلى الحسين، إلى الجمالية وكنت معه، لقد صحبته كثيرًا إلى الحسين، وهناك راقبت انفعالاته، وتجولت معه في الحواري والشوارع التي عشت فيها ثلاثين عامًا..

البداية من ميدان الحسين.. في قلب الميدان توقفنا للحظات... بدا وجه نجيب محفوظ هادئًا، مستكينًا لتأثير الذكريات التي كانت تتوالى عليه، تطلع إلى مبنى إدارة جامع الأزهر، قال:

– هنا كانت مدرسة خليل أغا الثانوية..

قلت له: إن معالم الميدان تغيرت عدة مرات خلال السنوات القريبة، منذ أن أقدم أحد المحافظين على استصدار قرار بهدم الفيشاوي ومجموعة المباني القديمة التي كانت تجاوره، في وسط الميدان كانت ساعة الميدان، ثم أقيمت نافورة، عدلت، ثم أحيطت بحديقة، وفي نفس هذا المكان منذ حوالي ثلاثين عامًا، كان موقف عربات سوارس التي تجرها الخيول، وتتجه إلى الدرب الأحمر، إلى الحسينية.

أشار نجيب محفوظ إلى عمارات الأوقاف القائمة في الجهة الغربية من المسجد، قال:

– كان هنا الباب الأخضر، فهو قبو كبير يؤدي إلى حارة ضيقة وكانت هذه الحارة مقرًّا للدراويش ومجاذيب الحسين، على الصفين كنت تجدهم جالسين..

وتذكرت بدوري، المارشال علي، هذا المجذوب الذي كان يرتدي بزة عسكرية، وعلى كتفه العديد من الرتب العسكرية، أما صدره فقد كان محلًّى بالأوسمة القديمة، تتخللها بعض أغطية البيبسي كولا، ويمسك بعصًا، ومن حين إلى حين ينحي بها الناس. ضحك نجيب محفوظ، إنه يذكره جيدًا..

من ميدان الحسين نمضي إلى واحد من الأمكنة التي استوحى منها نجيب محفوظ رواية من أجمل رواياته «زقاق المدق»..

لكي نصل إلى زقاق المدق من جهة الأزهر.. لا بد من المرور أولًا بشارع الصناديقية، القذارة تغطي الأرض، مخلفات الدكاكين، والبيوت.

قال نجيب محفوظ متأسفًا:

– كانت هذه الشوارع والحواري تكنس مرتين في اليوم الواحد وترش بالماء. ما زلت أذكر بغل البلدية الشهير، ومخزن العربات، وإسطبل البغال، كان قريبًا من بيت

القاضي..

ويشير نجيب محفوظ إلى بعض المباني التي شيدت في الثلاثينيات، تحدث عن بيوت قديمة، كانت تحيطها الحدائق، تصل إلى زقاق المدق، الزقاق ضيق جدًّا، لا يتجاوز طوله اثني عشر مترًا، وعرضه خمسة أمتار، المقهى مغلق، فاليوم يوم أحد، وثلاثة دكاكين إلى الجانب المقابل، يقول:

– أذكر أنه لم يكن بالزقاق إلا المقهى، لا أذكر ذلك البيت، في صدر الزقاق دكان عطارة، يجلس أمامه ثلاثة من العجائز المسنين، سأل نجيب محفوظ:

– ما زال الفرن في الداخل؟

قال الرجل الأكبر سنًّا:

– نعم.. يبدو أنك واعٍ على الزمن البعيد..

يرتقي نجيب محفوظ السلالم المؤدية إلى الفرن، هذه السلالم حديثة أقيمت على المدق الترابي الذي وصفه في روايته، يتأمل الفرن حيث عاش زيطة صانع العاهات، أهمس في أذن أحد الرجال الثلاثة المسنين:

– إنه نجيب محفوظ الكاتب الكبير.

يقول بعد لحظة:

– أهو الذي أظهر الزقاق في السينما؟

أومئ مجيبًا.. يقول:

– أهلًا وسهلًا..

ثم يعود إلى صمته ..

نفارق الزقاق والمقهى، حيث كان نجيب محفوظ يأتي ويجلس إلى أصحابه في الزمن القديم، وفي لحظة ما ولدت فكرة «زقاق المدق» وفي أيام بعينها، في نفس هذا المكان تكونت الرواية، منظرًا في إثر منظر، وحدثًا إثر حدث حتى اكتملت، ومنحت هذا المكان الضيق المنسي، الشهرة والصيت. أذكر أنني صحبت مستشرقًا ذات يوم أراد أن يرى زقاق المدق، جاء إلى المكان، وقف ينظر إليه، ثم قال ضاحكًا:

– إذا كان نجيب محفوظ قد كتب هذه الرواية الرائعة الضخمة عن هذا المكان المحدود الضيق، فماذا كان سيفعل لو أنه كتب عن شارع بأكمله مثل شارع الأزهر؟

الأس–واق...

إلى الحمزاوي، سوق الحمزاوي.. حيث الدكاكين الصغيرة. دكاكين العطارين والعطور، حيث السوق لا يزال محتفظًا بمكانه القديم، وبهيئته الأولى، وبشكل المتجر المصري في القرن التاسع عشر، حيث لم يكن هناك حاجز بين البائع والمشتري، لو أن هذا السوق في أى بلد أوروبي لبذل الكثير من أجل الحفاظ عليه وترميمه وجلب السائحين إليه، نمضي إلى الصاغة، يتوقف نجيب محفوظ عند مدخل حارة الصالحية، فوق البوابة القديمة تنتصب مئذنة الصالح نجم الدين أيوب، واحدة من أقدم مآذن القاهرة، وأكثرها تفردًا، إذ تتوجها مبخرة وهي تعد بذلك أول أشكال

المئذنة المصرية عندما بدأت تكتسب خصوصيتها..

يتوقف نجيب محفوظ لحظات أمام باب مغلق، يسأل:

– ألا يزال هذا المكان مقهًى؟

يجيبه أحد المارة:

– نعم.. ولكن اليوم أحد..

يقول:

– إنه أغرب مقهى، ممر ضيق طويل، وعلى جانبيه تصطف المقاعد بحيث إن من يجلس يلامس المواجه له، هكذا كان الحال على أيامنا..

نعود إلى شارع المعز لدين الله، يشير ضاحكًا إلى بيت متهدم قديم، يقول ضاحكًا:

– في هذا البيت كان يسكن عدد من الفتيات الجميلات جدًّا، وكان بعض الرجال من الأعيان يجيئون ويجلسون ، ويرفعون عيونهم، ويلعبون حواجبهم للبنات ويبرمون شواربهم.. وهكذا كان الغزل في العشرينيات والثلاثينيات..

ونمضي عبر «سوق النحاسين» حيث تخيل نجيب محفوظ موقع دكان أحمد عبد الجواد في الثلاثية، لاحظت أنه يطيل النظر أحيانًا إلى بعض المواضع، ويتمهل عند أماكن أخرى، ويرفع رأسه في معظم الأحيان ليتأمل ويرى، ولم أشأ أن أزعج ذكرياته بالسؤال والاستفسار..

مررنا أمام مجموعة قلاوون الأثرية، والبيمارستان، والحمام، والمسجد، والقبة، ومسجد الناصر قلاوون، ومسجد برقوق، المآذن تنتصب سامقة، مرتفعة، خاصة مئذنتي قلاوون وبرقوق، قلت لنجيب محفوظ:

– لقد وصفت موقع بيت أسرة أحمد عبد الجواد في الثلاثية، وطبقًا لوصفك فإن المكان الذي وصفته لا يوجد فيه بيت، إنما قصر الأمير بشتاك..

وافقني نجيب محفوظ، مررنا أمام حمام السلطان الشهير. قال:

– ألا يزال موجودًا؟

قلت:

– ويعمل أيضًا.. معظم حمامات الجمالية لا تزال تعمل..

وصلنا إلى «سبيل عبد الرحمن كتخدا»، توقف نجيب محفوظ لحظات، أشار إلى «حارة التمباكشية»..

– كان هذا الجانب كله سوقًا للتجار الشوام، كانوا يجلسون أمام متاجرهم، يرتدون عمامات صفراء عالية، ويدخنون النرجيلة، ويعرضون «النقل» أي قمر الدين والبندق واللوز والجوز..

ثم أشار إلى بقايا بناء فسيح قديم، قال:

– كان ذلك بيت المهيلمي، أسرة كبيرة، واشترك عدد من أفرادها في ثورة 23 يوليو..

قلت لنجيب محفوظ:

– سنتجه الآن إلى ميدان بيت القاضي، يمكننا أن نمر بقبو قرمز، أو قبو حارة بيت القاضي..

قال:

– لقد جئت إلى هنا منذ أسبوع ومررت..

قلت:

– إذن إلى القبو الآخر..

الكُتــاب..

بدأنا السير في «حارة بيت القاضي»، قال نجيب محفوظ:

– كنا نسميها حارة الكبابجي..

مررنا بالقبو الأثري القديم، حيث اختبأت أسرة «أحمد عبد الجواد» أثناء غارة جوية في الحرب العالمية الثانية، وعلى أثرها لفظ بطل الثلاثية أنفاسه، تتعرج الحارة.. أشار نجيب محفوظ إلى بعض البيوت المرتفعة، قال إنها كما هي لم تتغير، وفجأة أسرعت خطاه، سبقني عند المنحنى، حيث يقوم سبيل أثري قديم، لحقت به، بدا عليه النشاط..

قال:

– هذا هو الكُتاب الذي تعلمت فيه.. السبيل باق، لكن الكُتاب أزيل للأسف..

كان في الطابق العلوي.. إنه رقم (9)..

أشار إلى الطابق العلوي المتهدم، دخل من الباب، عاد ليقول إن السلم باق كما هو لكنه يؤدي إلى لا شيء، في هذه اللحظة اقترب منا رجل عجوز ردد:

– إنتم مين؟ عاوزين مين؟

قلت له:

– نحن زوار..

ولكنه راح يردد:

– إنتم مين؟ وعاوزين مين؟

فأدركت أنه لا يسمع، وتذكرت «الشيخ عبد الصمد» في ثلاثية نجيب محفوظ، فارقنا الكُتاب، واقتربت خطانا من حارة بيت القاضي، ومن المكان الذي ولد فيه نجيب محفوظ..

البيت القديم

.. اتسعت خطا نجيب محفوظ، اتجه إلى الناحية المؤدية إلى درب قرمز..

قال:

– أذكر أن بيتنا كان رقم (8)..

نظرت إلى البيت القائم عند الناحية، قلت:

– إنه يحمل رقم (8) أيضًا..

قال محمد عبد الرحمن:

– أرقام البيوت لا تتغير..

لكن البيت نفسه تغير، لقد أزيل البيت الذي ولد فيه نجيب محفوظ، كان يتكون من ثلاثة طوابق، بيت رأسي وليس أفقيًّا، وتحوي «حكايات حارتنا» وصفًا دقيقًا له، ولكن البيت الموجود الآن يتكون من طابقين، الأول مسكون، أما الثاني فمن طوب أحمر، لم يكتمل بعد، البيت قبيح، أبدى نجيب محفوظ أسفًا وحزنًا، قال:

كانت شبابيك بيتنا من خشب الخرط، وكان البيت يطل على درب قرمز من ناحية، وعلى ميدان بيت القاضي من ناحية أخرى، كان الميدان مليئًا بالأشجار، كنت أمد يدي فأمسك بأوراق الشجر، كان شجرًا نسميه شجر دقن الباشا..

دار حول الشجرة الوحيدة المتبقية بجوار دورة المياه التي تتوسط الميدان والتي بنيت منذ زمن ليس ببعيد، وكان إلى جوارها حوض مستطيل تشرب منه الحمير والبغال، أزيل الآن. قال:

– لا أعرف نوع هذه الشجرة، ولكنها بالتأكيد ليست «دقن الباشا». كان إلى جوار بيتنا في الميدان منزل الدكتور عبد العزيز، كان مدخله فخمًا، به عيادة، ثم يليها حديقة كبيرة، وفي الداخل المنزل نفسه، أما من ناحية درب قرمز، فكان بيت السكري يحتل كل هذه المساحة، لم تكن هناك هذه البيوت، وإلى جوار بيت السكري، كان فيه تكية للدراويش، كانت الحارة في زمني القديم يوجد بها البيت الضخم كالسراي وإلى جواره بيت يسكن فيه الفقراء..

سكت لحظات، ثم قال:

– كنت أتفرج على الفتوات الذين يجيئون بعد معاركهم في الخلاء إلى قسم الجمالية، ومن حجرة صغيرة في السطح، كنت أرى مظاهرات ثورة 1919، ومظاهرات النساء من بنات البلد فوق العربات الكارو، وضرب الرصاص، وكانت المشاكل تبدأ بيني وبين أمي، كانت تشدني بعيدًا عن النافذة، وكنت أريد الفرجة، خاصة على ضرب الرصاص.

أشار إلى بوابة «بيت القاضي» وقال:

– كثيرًا ما رأيت المظاهرات والجنود الإنجليز يتصدون لها هنا.. ما أكثر ما رأيت!

استدار ليلقي نظرة على الميدان، على مقعد القاضي ماماي الأثري القائم في صدر الميدان، أشار إلى عمارتين مرتفعتين.. قال:

– بنيت هاتان العمارتان ونحن هنا، كان لهما زيطة وضجة، لأنهما عاليتان بمقاييس زماننا..

أثناء مرورنا تحت بوابة بيت القاضي، قال:

– كان يقعد هنا واحد بتاع كراملة، اسمه الشابخورلي..

ضحك نجيب ضحكته العالية المجلجلة:

– هل تستطيع أن تدلني على معنى لهذا الاسم.. الشابخورلي؟ وغادرنا بيت القاضي، حيث ولد نجيب محفوظ في المنزل رقم (8)..

مررنا بمدرسة خان جعفر الابتدائية، وفندق الكلوب المصري الذي شهد فيه نجيب محفوظ أول عروض السينما في مصر، أصبحنا في شوارع المشهد الحسيني، حيث مسجد مولانا الحسين، في مواجهته سبيل عثماني أثري، وفوقه مدرسة بين القصرين الابتدائية:

– درست هنا لعدة سنوات..

تأمل نجيب محفوظ واجهة المدرسة لفترة طويلة، ثم مضينا إلى مقهى الفيشاوي القديم، والذي هدم في عام 1969، ولم يعد منه إلا بقايا، في المقهى أمضى نجيب محفوظ سهرات طويلة، وقضى ساعات أطول يدخن النرجيلة، ويستوحي أحداث وأبطال رواياته عندما كان موظفًا في قبة الغوري، وفي القرض الحسن التابع لوزارة الأوقاف، وهنا دخن النرجيلة، لكن نرجيلة زمان كانت فاخرة، وكان التنباك أنواعًا وأصنافًا. يقول نجيب محفوظ بلهجة أسيانة تعكس حنينه إلى الزمن القديم:

– يا سلام.. زمن!

ولا أدري ماذا يجول في عقل كاتبنا الكبير، وأي صور بعيدة يستدعيها. أعرف أن هذا المكان يوحي إليه بالكثير، وأنه ما من مكان ارتبط به في حياته، مثل الجمالية والحسين وهذه المنطقة، وعلى الرغم من سكنه في مناطق أخرى من القاهرة، العباسية، وشارع النيل، فإنه لم يعكس هذه المناطق بنفس القوة التي صور بها الجمالية، وما تزال الحارة محور عالمه.

الحـارة..

... في عام 1924 ونجيب محفوظ يبلغ من العمر اثني عشر عامًا، انتقلت أسرته من البيت القديم بميدان بيت القاضي، إلى بيت العباسية، الذي اشتراه والده بألف جنيه.

وظل نجيب محفوظ مشدودًا إلى الجمالية، يتردد على مقهى زقاق المدق، ومقهى الفيشاوي، وأحد أصدقائه وكان تاجرًا بالغورية.

وفي منتصف الخمسينيات تزوج، وانتقل إلى شارع النيل بالعجوزة، شقة صغيرة بالطابق الأرضي، مطلة على النيل، ولم ينقطع عن الجمالية، ظل حنينه إلى القاهرة القديمة قويًّا، جارفًا، وأصبح هذا العالم القديم، وتلك الحواري العتيقة بمثابة القلب لكل أعماله، واستطاع أن يعكس روحها بقوة وصدق، وأن يكسبها الخلود. أذكر أنني كنت مسافرًا إلى المغرب منذ عامين، وفي الطائرة جلست بجوار مدرس مغربي بجامعة محمد الخامس، كان يرتدي الزي المغربي الشهير، العباءة البيضاء ذات القلنسوة، وكان إنسانًا ودودًا خفف عني بحديثه طول الرحلة التي تستغرق حوالي خمس ساعات، وكان عائدًا من زيارة للقاهرة قضى خلالها إجازته، كان الباعث الأول على الزيارة، التوجه إلى القاهرة المعزية، حيث يمكنه أن يرى الأماكن التي كتب عنها نجيب محفوظ، وأن يرى المنابع الأولى للشخصيات التي قرأها في الثلاثية، ولكم كان سعيدًا بزيارته تلك! ومنذ أسابيع دعاني المستشار الثقافي الفرنسي

إلى حفل عشاء مع عدد من زملائي بمناسبة ترجمة بعض أعمالنا إلى الفرنسية، وهناك التقينا بعدد من المثقفين الفرنسيين القائمين على هذه الترجمة، والعاملين بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية الفرنسي الذي أنشئ مؤخرًا بالقاهرة، أخبرني أحدهم، وهو روائي، يتقن اللغة العربية، أنه استأجر غرفة في فندق الحسين المطل على الميدان والمجاور لحي خان الخليلي الشهير، وقضى شهرين في المنطقة، درسها حجرًا حجرًا، وعاشها من خلال شخصيات عديدة تعرف بها هناك، وكانت أعمال نجيب محفوظ في خلفية ذهنه باستمرار..

حتى الأعمـاق..

غاصت الأعوام الاثنا عشر التي قضاها نجيب محفوظ في الجمالية إلى أعماقه، وانعكست بقوة في عالمه الروائي، ولم تظهر ضاحية العباسية التي عاش فيها شبابه كله وصدر رجولته إلا كمكان ثانوي، يكون الذهاب إليه انطلاقًا من الجمالية، كما نجد في الثلاثية عندما كان يسعى كمال أحد أبطال الثلاثية لزيارة قصر آل شداد، أما منطقة العجوزة، أو شارع النيل، فلم تنعكسا في أعماله قط، لم تشده الشوارع الحديثة والمباني الشاهقة، واعتقد أنه مجرد مكان للإقامة، للنوم وللعمل، ونفس الأمر بالنسبة لي، فقد عشت في حواري الجمالية لمدة ثلاثين عامًا متصلة، وعندما تزوجت، اضطرتني ظروف أزمة الإسكان إلى السكن في حلوان، وابتعدت عن الجمالية جسدًا، لكنني لم أبتعد عنها روحًا وقلبًا، وأعترف أنني ما زلت عاجزًا عن التواصل مع ضاحية حلوان، فلا أنا قادر على إقامة علاقات بها، ولا أنا قادر على الشعور بها، ولا أكلف نفسي عناء استكشافها، ويخاطبني إحساس دائم أن إقامتي فيها مؤقتة، وأنني يومًا ما سأعود مع أسرتي إلى الجمالية.

والحارة التي عاشها نجيب محفوظ في عشرينيات هذا القرن، تختلف عن الحارة التي عشتها حتى منتصف السبعينيات، كانت القاهرة القديمة في زمن نجيب محفوظ مركزًا لسكنى الطبقة المتوسطة والتجار الكبار، وكبار الموظفين، وكانت حواري الجمالية ذات تركيبة اجتماعية غريبة، في الحارة الواحدة نجد قصرًا به حديقة غناء، وإلى جواره نجد بيتًا متوسطًا تسكنه أسرة تاجر، وإلى جواره نجد ربعًا ضخمًا، تسكنه عشرات الأسر الفقيرة. كانت الحارة تضم مختلف المستويات الاجتماعية، ولا تزال هناك بقايا هذا النظام في حارة درب الطبلاوي بقصر الشوق التي كنت أسكنها، يوجد قصر المسافرخانة الشهير، أو قصر الضيافة الخاص بأسرة محمد علي باشا والذي ولد في إحدى حجراته الخديوي إسماعيل، ما زال هذا القصر باقيًا حتى الآن، ولكن كمتحف ومقر لبعض الفنانين التشكيليين، ومن الدور الكبيرة الباقية حتى الآن في الحارة، منزل آل شمس الدين، وفيهم شيخ الطريقة الأحمدية المرزوقية، ويقع إلى جوار سيدي مرزوق، وفي نفس الحارة توجد عمارات حديثة يسكنها بعض أبناء الطبقة المتوسطة، وتوجد بيوت قديمة تسكنها عائلات فقيرة، في حارة الدرب الأصفر، كان يوجد حتى مطلع الخمسينيات عدد من الدور الكبيرة التي تحوطها الحدائق، أقدمها بيت السحيمي القائم حتى الآن باعتباره متحفًا، وبيت مصطفى جعفر، الذي تتخذه هيئة الآثار مقرًّا لمكاتبها، أما بقية البيوت فقد اندثرت، منذ الثلاثينيات بدأت البيوت ذات الحدائق في الاندثار، وبدأت هجرة العائلات الكبيرة

من الجمالية إلى الأحياء المستحدثة في القاهرة، تحولت بعض الحواري الآن إلى وعاء للحضيض الاجتماعي، كما أن يد الإهمال بسطت أصابعها فوق المكان كله، وأذكر أن حارتنا «درب الطبلاوي» كانت تكنس وترش في اليوم الواحد مرتين، كان الكناس يأتي في الصباح، وعند الظهيرة يجمع البقايا إلى جوار الجدران، ثم تأتي عربة الزبالة فتزيلها، ثم تجيء عربة الرش، أما الآن فلكم أشعر بالحزن والأسى عندما أرى مياه المجاري طافحة، بحيث تجعل دخول المساجد القديمة والبيوت الأثرية، والتجول أمرًا صعبًا، ومعظم حواري الجمالية كانت مبلطة بالحجارة، تمامًا كشوارع باريس القديمة، والآن قصر النظر الحضاري أصاب موظفي محافظة القاهرة، فقد استبدلوا بهذه الحجارة الأسفلت، وسرعان ما دبت الحفر، والمطبات، هذا ما حدث في حارة درب الطبلاوي على سبيل المثال، ناهيك عن تغيير بعض معالم المنطقة، وكان من أبرزها هدم مقهى الفيشاوي القديم، هذا القرار الغبي الذي أجهز على واحد من أرق وأعرق مقاهي القاهرة القديمة، ولم يتبق منه إلا شظايا مكان.

ونعود إلى حوار نجيب محفوظ..

الواقــع والرمــز...

في أعمال نجيب محفوظ الأدبية نجد الحارة على مستويين.. الأول واقعي والثاني رمزي، نجد المستوى الأول في أعمال نجيب محفوظ الواقعية، في زقاق المدق وخان الخليلي ثم الثلاثية، بين القصرين، قصر الشوق، السكرية، في هذه الأعمال نلتقي بحارة محدودة الملامح والسمات، خاصة إذا طابقناها بالواقع، في هذه الروايات تتحرك الشخصيات في حارات محدودة، التزم نجيب محفوظ بتضاريس الواقع في منطقة الجمالية، والمتتبع لحركة الشخصيات في الروايات إذا طابقها بالمكان الواقعي فسيجد أنه التزام مدهش بطوبغرافية المكان ومعالمه، حتى يمكن بحق اعتبار الثلاثية وخان الخليلي وزقاق المدق، مراجع دقيقة لمعالم المكان خلال الزمن الذي دارت فيه الأحداث، بعكس هذه المعالم المندثرة مثل مقهى سي عبده الذي كان يقع تحت الأرض، وكانت تتوسطه نافورة مياه تحيط بها المقاصير، وكان يجتمع فيه بطل الثلاثية كمال عبد الجواد بصديقه فؤاد الحمزاوي، لقد تتبعت على الواقع حركة الشخصيات التي رسمها نجيب محفوظ فوجدت تطابقًا دقيقًا بين الوصف وبين معالم المكان، وإذا ذهبنا اليوم إلى زقاق المدق فسنجد المقهى ودكان الحلاق، ودكانًا آخر مغلقًا. ويقول أبناء الزقاق إنه كان هناك رجل بدين يبيع البسبوسة بالزقاق وهو الذي ظهر في الرواية باسم عم كامل. أما المدق نفسه فما زال موجودًا، كذلك الفرن.

في هذه المرحلة الواقعية كانت الحارة انعكاسًا أمينًا للمكان كما عايشه نجيب محفوظ..

أما المستوى الثاني الذي نجده في أعمال كاتبنا الكبير للحارة، فيمكن اعتباره المستوى الرمزي، ونجده في أولاد حارتنا والحرافيش وحكايات حارتنا والعديد من قصصه القصيرة. هنا تصبح الحارة مزيجًا من الواقع والحلم، واقع مقطر، كما نجد في «حكايات حارتنا» وهذه الحارة الخاصة لها وجود مستقل، ولها مفرداتها، ورموزها، التي تتكرر من حين إلى آخر، نجد البيوت، وشجر اللبلاب، والمقهى،

والقبو والخلاء، والسكينة، حيث رجال الله القابعون المتفرغون لذكره دائمًا لا يسفرون، ولا يظهرون، ولكن تتردد أصداء أدعيتهم الغامضة، حينًا بالتركية، وحينًا بالفارسية، أما الخلاء فهو نهاية هذا كله، منطلق وفسيح حدود الدنيا، يوحي بالعدم، وعند الأفق تبدو القباب والمآذن، وفي الزوايا يقوم شجر التوت.

في حواري نجيب محفوظ تتوالى الأيام معبقة بأسرارها وتظهر شخصيات، وترحل شخصيات، ويختفي البعض إلى الأبد، وتنشب خناقات، وتشج رءوس، وينصب فتوات، ويهزم فتوات، ويحل الجيل مكان الجيل، وتنقضي الأعمار، وتبقى أسوار التكية عالية تتردد من خلفها أصوات الدراويش، تبدو حواري نجيب محفوظ هنا شفافة تلخص كل ما في الحياة وتعكس ملامح الإنسان في أطواره المختلفة، إنها باختصار صورة مقطرة لعالمنا ودنيانا، صاغها أديبنا الكبير في شاعرية وحساسية مرهفة، وحب هائل لقلب قاهرتنا القديمة، يدعو إلى الإعجاب.

العباسية والمقهى...

اتسعت العباسية، وتغيرت عما كانت عليه في عشرينيات وثلاثينيات هذا القرن، كانت الصحراء تبدأ عند نهاية شارع السرايات وكانت تنقسم إلى قسمين، العباسية الشرقية حيث القصور التي تحيطها بها الحدائق الوارفة، وبرغم تغير معالم المنطقة، فإن الصورة التي رسمها قلم نجيب محفوظ للمنطقة في الجزء الثاني من الثلاثية لا تزال بالنسبة لي مسيطرة على العباسية، لا أمضي إليها إلا وتهب عليَّ نسمات هذا الزمن البعيد، عندما كان كمال عبد الجواد يمضي من بيته بين القصرين إلى سراي آل شداد، حيث يخفق قلبه، وتثور عواطفه، لأنه ماض إلى بيت المحبوبة عايدة شداد، في شارع السرايات عاشت، وهلت عليه في الحديقة، واضطربت عواطفه، وتحت شجرة في هذا الشارع وقف كمال يرقب النافذة المضيئة في سراي آل شداد ليلة زفاف عايدة، كان يرتجف بردًا وألمًا، وكان هذا الحب تجربة امتزج فيها الألم بالعشق، لقد أثرت فيَّ هذه التجربة تأثيرًا كبيرًا، وحاورت نجيب محفوظ مرات عديدة، أسأله عن ملامح عايدة في الواقع، وشخصيتها، كانت تكبره سنًّا، أي أنها لو كانت تعيش الآن فهي في حدود الثمانين، والغريب أن إحدى قريباتها تسكن الآن في شقة تقع بنفس البيت الذي يسكنه نجيب محفوظ في الإسكندرية، يقول نجيب محفوظ في الثلاثية:

– عايدة يا قضائي وقدري..

ولو لم أعرف عايدة لكنت إنسانًا غير الإنسان..

ولكان الكون غير الكون.

وعندما أسأله عن عايدة التي أحبها في الواقع، فإن وجهه يرق، وتبدو ملامحه غارقة في الذكريات، الذكريات التي أصبحت بعيدة ونائية. فقد مضى ما يقرب من خمسين عامًا على هذا الحب الذي عصف بنجيب محفوظ في بداية شبابه، كان هذا الحب هو التجربة العظمى في حياته حتى الآن، لقد أثرت فيَّ هذه العلاقة تأثيرًا عميقًا، إلى الحد الذي دفعني في مطلع عشرينيات عمري أن أحب نموذجًا مماثلًا، وأن أعيش تجربة مشابهة، حيث الحب من أجل الحب، لا أمل في وصال، أو حياة

مشتركة..

في العباسية عاش نجيب محفوظ شبابه، حيث انتقلت الأسرة من الجمالية في سنة 1924 ، ولم ينتقل منها إلا بعد زواجه، وكان ذلك في الخمسينيات، واستمر يتردد على العباسية يومًا واحدًا في الأسبوع، يوم الخميس، هناك يتناول الغداء، ويقضي يومه كله مع والدته، وفي الساعة السادسة مساء يتجه إلى مقهى عرابي القديم حيث أصدقاء الطفولة، وفي هذا المقهى كنت أرى نجيب محفوظ منذ نهاية الستينيات ..

المقهى القديم...

كان مقهى عرابي من أشهر مقاهي القاهرة في النصف الأول من هذا القرن، كان صاحبه من أشهر الفتوات في القاهرة، ويصفه نجيب محفوظ بأنه كان مهيب الطلعة، وكأنه خلق ليكون زعيمًا، وبلغ من سطوته أن مأمور قسم الظاهر لجأ إليه يومًا يطلب حمايته، ولكن عرابي أقصي عن عرش الفتونة بعد أن ضرب كونستابل إنجليزيًّا وجرده من ثيابه تمامًا، وذهب الكونستابل الإنجليزي إلى قادته عاريًا كما ولدته أمه ، عندئذ قبضوا على عرابي، وخرج الرجل من السجن وقد اعتزل الفتونة تمامًا، وأصبحت حياته كلها مقصورة على المقهى، لم أعرف عرابي إلا من خلال نجيب محفوظ، وعندما بدأت أتردد على المقهى لمقابلة نجيب محفوظ، كان عرابي قد مات منذ عدة سنوات، وكان بالمقهى آثار من العز القديم، وقد اختصرت مساحته الآن بحيث أصبح مستطيلًا ضيقًا يطل على شارع الجيش، في هذا المقهى عرفت أصدقاء نجيب محفوظ القدامى، ورأيت معهم شخصًا مختلفًا تمامًا عن الذي أعرفه في الندوة الأسبوعية التي كانت تعقد في مقهى «ريش» مساء كل جمعة.

في «ريش» كان نجيب يبدو مستمعًا أكثر منه متكلمًا، يشارك الحديث بقدر، ويبدو مهتمًّا بالتعرف على الشبان الجدد، يتحاور أحيانًا، ولكنه يستمع في معظم الوقت، وقد انتهت ندوة «ريش» نهاية غريبة عندما قام صاحب المقهى بتجديده، واختار يومًا للإجازة الأسبوعية هو يوم الجمعة، وهو اليوم الذي كانت تعقد فيه ندوة نجيب محفوظ، ويبدو أن الرجل آثر الراحة والبعد عن وجع الدماغ؛ فكثير من المناقشات التي كانت تدور في المقهى تتطرق إلى موضوعات سياسية، انتقلت ندوة محفوظ إلى أحد الكازينوهات المطلة على النيل.

– غير أن لقاء الخميس في مقهى عرابي كان يتميز بالحيوية، تعلو فيه ضحكات أديبنا الكبير، ويتبادل مع أصدقاء الطفولة الدعابات الساخرة والتعليقات اللاذعة. بسرعة أصبحت جزءًا من هذه الجلسة الحميمة، وكان نجيب محفوظ ينصرف في الثامنة والنصف مساءً، ويصر الأصدقاء القدامى على استبقائي والسهر معهم في المقهى أو في منزل أحدهم بالعباسية، ولم يكن عسيرًا عليَّ أن أتعرف على العديد من شخصيات الأديب الكبير التي قرأتها في رواياته..

مولد الكرنك: هنا...

رأيت مولد رواية الكرنك في مقهى عرابي بالعباسية.. ذات يوم، رأينا شخصًا أبيض البشرة، أبيض الشعر، متوسط القامة، عيناه غريبتان، كأنهما مقلوبتان إلى الخارج، وأصابع يده نحيلة مدببة المقدمة، كأنها مخالب الطيور، عندما دخل المقهى ساد

صمت غريب... وأسرع الجرسون بإحضار نرجيلة وضعها بجواره، وفرد أمامه الشطرنج، وبدأ أحد الجالسين يلاعبه.

وكان من الطبيعي أن يلفت الغريب نظرنا، مال عليَّ نجيب محفوظ وسألني:

– من هذا؟

لم أكن أعرفه، غير أني أشرت إلى الجرسون، همست...

– من هذا..؟

– إنه حمزة البسيوني مدير السجن الحربي سابقًا...

واتسعت عينا نجيب محفوظ، وراح يتأمل الرجل خفية، وما زلت أذكر هيئة حمزة البسيوني وطريقة إمساكه للنرجيلة وإنحناءه على رقعة الشطرنج، وهذا الجو الثقيل الذي أحدثه وجوده في المقهى، كان خارجًا من السجن لتوه بعد أن قضى مدة عقوبته عقب اعتقاله بعد 1967، وفي الأسبوع التالي لم يظهر، وحكى أصدقاء نجيب محفوظ قصصًا عديدة سمعوها عنه، وعن السجن الحربي، وبعد أيام قرأت في الصحف خبر مقتل حمزة البسيوني خلال حادث سيارة على طريق مصر – الإسكندرية الزراعي..

عصر هذا الخميس الذي رأى فيه نجيب محفوظ جلاد السجن الحربي ولدت رواية الكرنك التي ظهرت بعد ذلك بسنوات.

الذكــريات...

منذ حوالي سبع سنوات انقطع نجيب محفوظ عن مقهى عرابي، واندثر لقاء الخميس الأسبوعي، السبب هو صعوبة المواصلات فنجيب محفوظ لا يمتلك سيارة خاصة به، وهو يستخدم التاكسي، وأصبح من الصعب حصوله على تاكسي ينقله من شارع النيل إلى العباسية، كما أن والدته توفيت في مطلع السبعينيات، وأصدقاء العباسية أنفسهم لا يترددون على المقهى، منهم من رحل عن عالمنا، ومنهم من أقعده المرض. يقول كاتبنا الكبير في يأس:

– تصور أنني لا أستطيع القيام بواجبات العزاء بسبب المواصلات.. كثيرًا ما أضطر إلى إرسال برقية...

كان نجيب محفوظ –ولا يزال– وفيًّا لمعارف العمر. أصدقاؤه الأعزاء حتى الآن هم الذين عرفهم وعرفوه في مطلع صباه، كان أعز أصحابه مختار نويرة وفؤاد نويرة شقيقي الفنان عبد الحليم نويرة، وعبد الحي الألفي، والدكتور أدهم رجب، وكنت أراهم في مقهى عرابي. وعندما أذهب إلى مقهى ريش في الصباح الباكر أجد كاتبنا الكبير يقرأ صفحة الوفيات بدقة، ويخط علامات على أسماء بعض المتوفين، ثم يكتب برقيات العزاء.

في نجيب محفوظ تتجسد القيم المصرية الأصيلة، من الوفاء، والمجاملة، والحرص على العشرة القديمة، ولا شك أن انقطاعه عن لقاء الخميس الأسبوعي بأصدقاء العمر يؤلمه، ولكن العمل، والزمن قوة لا تقهر، ذلك الزمن الذي أعدم البطل الحقيقي الكامن وراء أعظم أعماله الأدبية وأخلدها!!

الحــرافيش....

.. قبل أن يسافر نجيب محفوظ إلى الإسكندرية في الخميس السابق على سفره اتصل بصديقه الفنان بهجت عثمان ، في مثل هذا اليوم من كل أسبوع، وفي تمام الساعة الثامنة يتجهان معًا إلى سهرة «الحرافيش» التي لم تنقطع جلساتها منذ أوائل الأربعينيات. وأذكر أن نجيب محفوظ كان يغادر مقهى عرابي بالعباسية بعد جلسة الخميس مع أصدقائه القدامى، يتجه إلى كبابجي قريب، يشتري منه كيلو كباب واحدًا، هو ما يحمله معه إلى أصدقائه الحرافيش في الهرم عندما كانت جلسات الجماعة تعقد في بيت الأديب الراحل محمد عفيفي، كيلو كباب شهير لم يتغير لمدة ثلاثين عامًا، ومن قبل كان يحضر معه كيلو بسبوسة، ولكنه منذ أن أصيب بالسكر في بداية الستينيات انقطع عن شراء كيلو البسبوسة فاحتج الحرافيش قائلين:

– وما ذنبنا نحن؟

ولكن نجيب محفوظ هجر عادة البسبوسة تمامًا، ومع صعوبة الذهاب إلى سهرة أصدقاء الطفولة في العباسية انقطعت عادة الكباب أيضًا، في نفس الوقت كان الزمن يداهم شلة «الحرافيش» إما أن يسافر أحدهم وإما أن يرحل رحيلًا أبديًّا، حتى كان رحيل محمد عفيفي، وهنا فقدت الحرافيش المكان القديم حيث كانت تعقد جلساتهم، انتقلت الجلسة إلى بيت الفنان أحمد مظهر عضو الحرافيش القديم، ولكن مظهر يسافر أحيانًا، في مساء هذا الخميس بدا نجيب محفوظ وبهجت حائرين، إلى أين؟ وكيف يمضيان السهرة معًا، وكانا في هذه الليلة هما الحرفوشين الوحيدين، والباقي إما في سفر وإما في عمل، فكر نجيب محفوظ قليلًا، ثم قال لبهجت:

– ما رأيك في الذهاب إلى حلوان ومفاجأة جمال الغيطاني في البيت.. يمكننا أن نصحبه ونجلس في حلوان.. فمنذ سنوات لم أذهب إليها...

تحمس بهجت عثمان صديقي، وأدار محرك سيارته، إلى طريق الكورنيش الطويل والهواء العليل، ولكن نجيب محفوظ قال بعد لحظات:

– ولكن ربما ضايقنا جمال بهذه المفاجأة، ربما كان غير متأهب لاستقبالنا..

وقال بهجت:

– هنا تكمن حلاوة الموقف...

بسط نجيب محفوظ شفتيه:

– لا.. أخشى أن نزعجه، تعال نذهب إلى المقطم...

واستجاب بهجت عثمان، لقد تغلب تحفظ كاتبنا الكبير على الموقف، واتجهت السيارة إلى المقطم، في الطريق قال محفوظ:

– منذ سنوات لم أذهب إلى حلوان أذكر أنني زرت المرحوم سيد قطب بعد خروجه من السجن سنة 1964 ، سيد قطب كان ناقدًا! لامعًا، وهو أول من كتب عني، وعندما ذهبت إليه في حلوان، وجدته يجلس في البيت ومعه عدد من أصحاب الذقون، كانوا يجلسون صامتين ويحملقون في الأمام فقط، والرهبة فوق المكان، ولم يكن سيد قطب يشبه صديقي القديم الذي عرفته فيه، وأردت أن أكسر حدة هذا

الصمت الثقيل، فقلت دعابة عابرة، وافترضت أن أساريرهم ستنفرج، سيضحكون، لكنهم نظروا إليَّ شذرًا، ولم يبتسم أحد حتى سيد نفسه، عندئذ غادرت البيت صامتًا، وشعرت بمدى التحول الذي طرأ على سيد قطب «رحمه الله»..

واصلت السيارة طريقها إلى ذروة المقطم، فكر كل منهما في المرحوم محمد عفيفي، الذي كانت تلتئم الجماعة في بيته، وقفا عند حافة الجبل، غرق نجيب محفوظ في التأمل وكانت السيارات حولهما واقفة في الظلام، وبداخلها العشاق...

يقول نجيب محفوظ:

– وبين الحين والحين يمر بعض الشبان المعاكسين، والذين يستهدفون إزعاج العشاق في خلواتهم، كانوا يقتربون من سيارتنا ويصيحون «بطلوا بقى».. ويضيئون الأنوار، وعندئذ يفاجئون أنهم أمام رجلين، فتصيبهم دهشة...

في هذه الليلة شعر نجيب محفوظ بالحزن، وشعر بمرور الزمن، ولا بد أنه فكر في أصدقاء العمر الراحلين..

ونحن نجلس في مواجهة بحر إسكندرية، في حديقة المنتزه، سألته:

– لكن ما هي حكاية الحرافيش؟

عمر طــويل

عام 1942، تكونت مجموعة من الأصدقاء الذين حصلوا على الجوائز الأدبية لمجمع اللغة العربية، كانت تضم الروائي القدير عادل كامل، صديق عمر نجيب محفوظ، والذي هجر الأدب بعد أن قدم أعمالًا أدبية ناجحة، مثل «مليم الأكبر» ورواية «ملك من شعاع» والمرحوم علي أحمد باكثير، ويوسف جوهر، وحسين عفيف، ونجيب محفوظ، وبحكم أنهم حصلوا على جائزة واحدة، وكانوا قد اجتمعوا لاستلامها، وارتبطوا بعلاقة صداقة وتعارف، عرف نجيب محفوظ عادل كامل لأول مرة، ويوسف جوهر ثم مرت الأيام، واستمرت علاقة نجيب محفوظ بزميله الروائي عادل كامل، أما الآخرون فقد ذهب كل منهم إلى حاله، واقترح عليه نجيب محفوظ أن يلتقيا في مقهى عرابي بالعباسية صباح كل جمعة، ورد عادل كامل قائلًا إنه يعرف جماعة منهم بعض معارف نجيب محفوظ، مثل أحمد زكي مخلوف وأمين الذهبي، واقترح عادل كامل أن يسهر نجيب محفوظ معهم كل يوم خميس، وبدأ بالفعل يتردد على هذه الجماعة للسهر ولكن لم يكن مواظبًا على كل خميس.

–في سنة 1943 تكونت ندوة مقهى الأوبرا، وكان يحضرها عادل كامل، وقد استمرت ندوة الأوبرا حتى عام 1962، وكنت أتردد عليها صباح كل جمعة، حيث نلتقي بالأديب الكبير، وأكرر أنها كانت ندوة حية. وربما كانت آخر الندوات الأدبية الكبيرة في القاهرة، هي وندوة المرحوم الشيخ أمين الخولي التي كنت أتردد عليها أيضًا مساء كل أحد، وكانت تعرف باسم ندوة الأمناء، في هاتين الندوتين عرفت العديد من الأدباء، وناقشنا العديد من القضايا، وارتبطت بعديد من العلاقات التي استمر بعضها حتى الآن، كان المناخ الأدبي حيًّا، يتسم بالحيوية، وقد اندثرت الندوات الأدبية من حياتنا، ولكم كانت مفيدة خاصة لمن يخطو أولى خطواته في عالم الأدب، كما أنها كانت تمثل التواصل بين الأجيال.

أذكر ذات يوم جمعة، أنني ذهبت مبكرًا، وجلست في مواجهة نجيب محفوظ، كنت أجلس دائمًا صامتًا، وكنت صغير السن، إلى درجة أنني لو تكلمت كنت أرفع أصبعي مستأذنًا وكأني في الفصل أمام أستاذ أرهبه، وفجأة سألني نجيب محفوظ:

– لماذا تكتب يا جمال؟

والحقيقة أنني لم أدر كيف أجيبه، ولو سألني أي إنسان نفس السؤال الآن فلن أجد الإجابة التي تعبر حقيقة عما أشعر به، كل ما يمكنني قوله إنني أكتب لأنني وجدت نفسي هكذا، ولأن هذا هو العمل الوحيد الذي أعيش من أجله، وأقنعته.

في سنة 1962 انتهت ندوة الأوبرا، عندما تدخل رجال الأمن، ووضعوا حدًّا لها..

بداية الحرافيش...

كانت جماعة عادل كامل التي تجتمع وتسهر مساء كل خميس، تضم أحمد زكي مخلوف، وأمين الذهبي، وأحمد مظهر، كان أحمد مظهر ضابطًا في الجيش وقتئذ، وكان صديقًا للروائي عادل كامل، وكان هناك أيضًا موظف اسمه محمود شبانه، كان في وزارة المالية...

وانتظم نجيب محفوظ في هذه السهرة.

يقول كاتبنا الكبير:

– سمينا هذه السهرة الحرافيش، انضم إليها البعض ومات البعض، من الذين انضموا في فترة مبكرة بعد أن تكونت، المرحوم محمد عفيفي، وأصبح بيته في الهرم مقرًّا للسهرة، ثم انضم إلينا توفيق صالح المخرج، ومعه صلاح جاهين، ومصطفى محمود، وكان أحمد بهاء الدين يزورنا من وقت إلى آخر، وطبعًا كان هناك بهجت عثمان الرسام، ازدهرت السهرة، وكان شعارنا الفن والضحك، مرت علينا حرب فلسطين ولم نتغير، علقنا على الحرب، وناقشناها، قامت ثورة 23 يوليو، ولم تتغير، استمرت السهرة أيضًا، واستمر شعارنا مرفوعًا، الفن والضحك، لم يتغير، كان التاريخ الذي نعيشه على أحاديثنا وتعليقاتنا، لم يتغير أي شيء، حتى جاء يوم الإثنين الخامس من يونيو.

الهزيمة كامـلة...

يذكر نجيب محفوظ أن يوم الخامس من يونيو كان يوافق يوم الإثنين، وكان الحرافيش كلهم مدعوين يوم الخميس التالي في حفل زفاف صلاح جاهين الذي دعاهم قائلًا «فرحي يوم الخميس القادم يا إخواني، وأنتم وحظكم بالنسبة للحرب، إذا قامت أو لم تقم» وحدث أن نشبت الحرب، ولم نذهب إلى فرح صلاح جاهين...

وتغيرت سهرة الحرافيش تمامًا...

يقول نجيب محفوظ:

– كان موضوع السهرة، الفن، والضحك، والسياسة، تغيرت وأصبحت السياسة هي المحور الأول والأخير، كنا أحيانًا نسهر ونضحك حتى تؤلمنا عظام صدورنا، بعد الخامس من يونيو لم نكن قادرين أبدًا على الضحك...

الإسكندرية...

.. في مقهى دليس بالإسكندرية حيث اعتاد نجيب محفوظ التردد يوميًّا لقراءة صحف الصباح، والتأمل في الضوء المقطر المغموس بمياه البحر المتمدد على مرمى النظر، أمسك الكاتب الكبير بعلبة دواء، الدواء اسمه «نيكوتيك أسيد».. قال:

– تصور أنني منذ أسبوع أبحث عن هذا الدواء في الصيدليات ولا أجده.. مع أنه دواء مهم جدًّا لمرضى السكر، يقيهم المضاعفات الجانبية.. الدواء رخيص، ثم العلبة سبعة عشر قرشًا وهذا هو سبب ندرته، بل واختفائه..

تمهل قليلًا ثم قال إن أحد الصيادلة أخبره بأن الشركة المنتجة للدواء طلبت رفع سعره ولكن وزير الصحة رفض؛ ومن ثم توقفت الشركة عن إنتاجه، لأن تكلفة العلبة تتجاوز الثمن الفعلي، اضطر إلى استخدام دواء أجنبي اسمه «أتروميدان»، برغم ما يقال عن آثاره الجانبية..

منذ حوالي خمسة وعشرين عامًا ونجيب محفوظ مريض بالسكر، اكتشفه مصادفة، عندما ذهب ليعد وثيقة تأمين على الحياة وكان من شروط إعداد الوثيقة أن يكشف كشفًا طبيًّا، وأثناء إجراء التحليلات تبين أنه مريض بالسكر، ومنذ ذلك الحين، يطبق على نفسه نظامًا صارمًا، في العمل، في الطعام الذي لا يتناوله إلا مسلوقًا وبكميات محدودة، والمشي اليومي، وعندما يأتي الصيف يسافر إلى الإسكندرية، ونجيب محفوظ يكره السفر، لأنه يخل بنظام حياته الذي اعتاد عليه، ويسبب له اضطرابًا، في حياته، لم يسافر إلى الخارج إلا مرتين فقط، المرة الأولى سافر إلى اليمن ضمن وفد أدباء مصريين توجهوا إلى البلد العربي أثناء الحرب التي خاضها الجيش المصري هناك، تجول نجيب محفوظ في اليمن، وبهر بطبيعة البلد العربي الجميلة التي لا نظير لها في أوربا، حيث الجبال المكسوة بالخضرة، والطبيعة بكر لم تعبث بها يد الإنسان، وكتب قصة عن تجربة جندي مصري حارب في اليمن، أما المرة الثانية فقد سافر ضمن وفد رسمي أثناء عمله في وزارة الثقافة إلى يوغوسلافيا، وهناك حدثوه عن مصيف دوبروفتك، وعن جماله، وعن روعته، وكيف أن برناردشو كتب عنه ما يشبه الغزل، ويعلق نجيب محفوظ قائلًا:

– تصور.. لم تبهرني دوبروفتك، لأن الإسكندرية أجمل منها، لا مثيل لجمال هذه المدينة..

فضـــلة الشقة...

يتردد نجيب محفوظ على الإسكندرية في شهور الصيف بانتظام، إنها المدينة الوحيدة التي يسافر إليها خارج القاهرة، وفي شهور الصيف يتوقف عن العمل نتيجة لإصابته بمرض الحساسية، ويخلو إلى البحر في الثغر، وإلى التأمل، عرف ندوة توفيق الحكيم منذ الأربعينيات، كان يتردد عليها في كازينو بترو الذي هدم في السنوات الأخيرة، كان الكازينو يحتل موقعًا جميلًا بجوار كابينة سيدي بشر، وفي ساحته الخارجية كان توفيق الحكيم يعقد جلساته التي يحضرها عدد من أدباء الإسكندرية، والأدباء القاهريين، ورجال السياسة.

يقول نجيب محفوظ:

– لم أعرف الباشوات إلا في ندوة توفيق الحكيم بعد ثورة يوليو، كنت أجلس عند

حافة القعدة، أنظر إليهم من بعيد، وكانوا ينظرون إليَّ بريبة أحيانًا، ويصمتون كأنما يظنونني واحدًا من جيل يوليو، وكلهم تعرضوا لتطبيق قانون الإصلاح الزراعي، أو فرضت عليهم الحراسة، ومنهم من اعتقل أو سجن.. وكان من رواد ندوة الحكيم في الإسكندرية إبراهيم باشا فرج أمده الله بالصحة..

وحتى بداية السبعينيات لم يكن لنجيب محفوظ شقة فى الإسكندرية بل كان ينزل بأحد البنسيونات، ثم اعتاد على استئجار شقة مفروشة في عمارة قريبة من سان استيفانو، كان إيجار الشقة ثلاثين جنيهًا فقط في الشهر، ثم حدث أن صاحب العمارة بنى طابقًا إضافيًّا، وتبقت مساحة من المكان بنى فوقها شقة صغيرة مكونة من حجرتين وصالة ضيقة، وأراد الرجل أن يؤجرها بشكل دائم لأنه رجل متدين، وأب لفتيات، فقد كره أن يؤجرها إلى أسر من بين أفرادها شبان، فكر في نجيب محفوظ باعتباره أبًا لفتاتين، يقول:

– فوجئت ذات يوم بالرجل يطلبني في وزارة الثقافة، كان يحدثني من الإسكندرية وحدثني عن الشقة، التي بناها فوق المساحة المتبقية، فوق (فضلة) المكان..
ويسألني عما إذا كنت راغبًا في استئجارها..؟ رحت نازل جري من المكتب، ومسافر إلى الإسكندرية، وعلى الفور وقعت عقد الإيجار.. بالطبع فلولا هذه الشقة لكان مجيئنا إلى الإسكندرية أمرًا صعبًا، فالإيجارات خلال شهور الصيف الآن خيالية ويكفي أن تعرف أن الشقة التي كنا نستأجرها بثلاثين جنيهًا، الآن تؤجر مثيلتها بأكثر من خمسمائة جنيه...

النظام الحديدي ودردشة صباحية...

اتفقنا أن نصحب نجيب محفوظ في رحلة سيره اليومي على شاطئ الإسكندرية، اتفقنا على أن نلتقي صباح اليوم التالي أمام كازينو سان استيفانو، قال إنه قد يتأخر دقيقة، أو دقيقتين، فانضباطه يختل في الإسكندرية، لأنه لا يرتبط بعمل محدد، وفي اليوم التالي انتظرنا، كان الموعد في السابعة والنصف، وفي السابعة والنصف تمامًا رأيناه قادمًا من الطريق المنحدر تجاه البحر، قلت ضاحكًا:

– فعلًا.. النظام يختل...

كان يرتدي قبعة من القش لتقيه الشمس، ويمسك بصحف الصباح، الجرائد الثلاث اليومية، والمجلات التي صدرت في نفس اليوم، إنه يؤجل قراءتها إلى المقهى، من هذه النقطة يبدأ مشيه اليومي على كورنيش الإسكندرية، أشار إلى كازينو سان استيفانو، قال ضاحكًا:

– زمان في العشرينيات كنا نأتي إلى هذا الكازينو، وكان يضم قسمين للسباحة، القسم الذي يقع إلى اليسار مخصص للرجال والشبان، أما القسم الذي يقع إلى اليمين فكان مخصصًا للنساء والأطفال، ولأنني كنت صغير السن، كنت أسبح مع السيدات، كانت المرأة في هذا الوقت في حجم الكازينو نفسه، حيث السمنة هي الموضة، وكانت المايوهات طويلة، مليئة بالكرانيش.. كان منظرًا عجيبًا..!

يمشي نجيب محفوظ لمدة نصف ساعة، المارة قلائل، والعربات تندفع بسرعة كبيرة، وزبد الموج الأبيض يتخلل البحر الأزرق في هيئة خطوط طويلة هنا وهناك، ثم

يبدأ البحث عن تاكسي، يتجه إلى مقهى ديليبس في ركن هادئ، ثمة رجل وامرأة يجلسان في ركن قصي، موعد غرامي مبكر، في نفس المقعد يجلس نجيب محفوظ، يبدأ قراءة الصحف بعمق، كذا المجلات، وفي التاسعة والنصف يغادر المقهى، نفس العادات الدقيقة والساعة الداخلية التي لا تخطئ التوقيت، بعد أن انتهينا من قراءة الصحف قال نجيب محفوظ:

– هل رأيت مسلسل عصر الحب؟

قلت:

– لم أستطع متابعته، لكنني رأيت منه ثلاث حلقات..

بدت عليه علامات الإعجاب:

– في الواقع أنني سررت جدًّا برؤيته، الإخراج متمكن، والتمثيل، خاصة سميحة أيوب التي قامت بدور السيدة «عين» وصلاح السعدني، وبقية الممثلين، غير أن ما أعجبني هو الاحتفاظ بروح النص الأدبي...

قلت:

– ولكن المسلسل ظلم بسبب مباريات كأس العالم..

وكأي حديث تلقائي، ينتقل من موضوع إلى آخر، قال:

– لقد شاهدت هذه المباريات، إنه مستوى رفيع من الكرة، لقد اندمجت في الفرجة لدرجة أنني كنت أصيح من الحماس، وأقوم مهللًا.. لقد حركت فيَّ هذه المباريات الشوق القديم للكرة..

وربما لا يعلم كثيرون أن نجيب محفوظ كان من لاعبي الكرة المعروفين في حي العباسية وكان مشهورًا في الجري، وكانت هذه ميزة كبيرة في وقت كان عقل اللاعب يكمن في قوة ساقيه وقدرتهما على الجري، ساد بيننا صمت.. ثم سألته:

– هل رأيت الترجمة العربية لرواية (يوليسيز)؟

تساءل:

– هل صدرت؟

قلت:

– منذ أسبوع في القاهرة، ترجمها الدكتور طه محمود طه، أنجز الترجمة في ثمانية عشر عامًا، إنه حدث ثقافي هام..

قال:

– بالفعل..

قلت:

– خاصة أن العصر فيه مغريات عديدة، تجعل إنجاز عمل جاد كهذا أمرًا يثير الإعجاب..

.. متى قرأت يوليسيز؟

قال:

– في أوائل الأربعينيات.. قرأتها في الإنجليزية.. كان الحصول على أي رواية أجنبية أمرًا سهلًا في القاهرة وقتئذ.. الآن لا أجد كتبًا جديدة في المكتبات عندما أمر بالمكتبات كل يوم جمعة..

قلت:

– ربما يرجع هذا إلى قوانين الاستيراد التي تعامل الكتاب كأي سلعة أخرى..

ضم شفتيه أسفًا، عندما استعد للانصراف، سألته عن رقم تليفونه في الإسكندرية..

قال:

– لقد كان هذا التليفون بمثابة الهم بالنسبة لي، تصور أنه متعطل طوال العام، ومنذ أسبوع عرفني أحد أقاربي بعامل في مصلحة التليفونات، جاء واتفقت معه أن يأخذ ما يريده في مقابل إعادة الحرارة، لكنه بعد المعاينة وجد أن الخط لا يقع في منطقة اختصاصه، فامتنع عن إصلاحه، يبدو أن العمال قسموا المناطق إلى اختصاصات، فلا يعتدي أحدهم على اختصاص الآخر.. وانصرف العامل بدون أن يدلني على زميله الذي يقع تليفوني في دائرة اختصاصه..

سهَّم قليلًا، ثم قال:

– شر البلية ما يضحك، لقد قرأت في الصحف أن الملك فهد اتصل بريجان وضغط عليه ليعيد المياه إلى بيروت الغربية المحاصرة، وقطع المياه هذا عمل وحشي وغير إنساني.. فكرت أن يتصل الملك فهد بريجان ليوسطه في إعادة الحرارة إلى تليفوني..

وننصرف من ديليبس إلى شوارع الإسكندرية المغموسة في الضوء حيث الحركة، والنهار يتصاعد مقتربًا من منتصفه..

في العاشرة والنصف يدخل نجيب محفوظ إلى ندوة توفيق الحكيم في كازينو الشانزليزيه، تدور مناقشات شتى، ثقافية، وسياسية، وفي الواحدة تمامًا ينصرف، لقد اعتاد أن يتناول غداءه في مطعم بسترونس القريب من جليم، هناك يعدون له وجبة خاصة، الخضار المسلوق، واللحم المسلوق طعام مرضى السكر، يقول:

– لاقيت عناية لم يحظ بها أي زبون، وفي أحد الأيام قال لي مدير المحل: إن فايق القصبجي يسلم عليك ويوصي بك خيرًا.. وعلى الفور تذكرت فايق القصبجي، لقد كان زميلي في مدرسة الحسينية الثانوية بالعباسية خلال العشرينيات، وهو الآن صاحب محلات بسترونس بعد أن تركها صاحبها الأجنبي...

يصمت نجيب محفوظ قليلًا، يحملق إلى بحر الإسكندرية المترامي إلى الأفق.. ثم يعلق بكلمة واحدة:

دنيــا!

مع مصطفى أمين لأول مرة...

تسببت ماسورة مياه في إحداث تحول هام في حياة نجيب محفوظ!.. لقد رشحت

ماسورة في بيته، وكان لا بد من تغييرها، وكان ذلك يعني مجيء العمال، وضجة الحفر، والخلع، والتبديل، مما يجعل البقاء في البيت أمرًا مزعجًا، بعد عودة كاتبنا الكبير من رحلته اليومية التي يخترق فيها القاهرة من شارع النيل عبر كوبري أكتوبر، ثم الجزيرة فكوبري قصر النيل، ثم ميدان التحرير، وفي الثامنة تمامًا يصل إلى مقهى بوسط المدينة، يمكنك أن تضبط الساعة عند دخول نجيب محفوظ المقهى، ويمكنك أن تضبطها أيضًا عندما يطلب فنجان القهوة، ولعلاقة نجيب محفوظ بالساعة حديث آخر، ولكن عرف عنه انضباطه الشديد، فكل شيء في حياته يتم بحساب زمني دقيق، بدءًا من الثامنة وحتى التاسعة صباحًا يتصفح الصحف والمجلات، ثم يدفع الحساب، ويفارق المقهى ليستقل عربة تاكسي عائدًا إلى البيت، هذا هو البرنامج الصباحي الذي لم يتغير منذ أن أحيل نجيب محفوظ إلى المعاش في عام 1972، منهيًا خدمته الحكومية وعلاقته بدنيا الوظيفة..

في هذا اليوم الحار جلست إلى كاتبنا الكبير في مقهى ريش ولاحظت أنه مضطرب قليلًا، ولما اقتربت الساعة من التاسعة تأهبت للقيام، ولكنه أخبرني أنه سيبقى قليلًا، ثم حكى لي بهم كبير ما جرى من تلف الماسورة، وكيف أن البيت مقلوب رأسًا على عقب الآن، ودار حديثنا حول ندرة الحرفيين، وارتفاع أجورهم، قال ضاحكًا:

– تصور أن هذه الماسورة كلفتني مبلغًا يفوق المبلغ الذي دفعه أبي ثمنًا لبيت العباسية، أي أكثر من ألف جنيه..

دارت عقارب الساعة، وتجاوزت التاسعة بنصف ساعة، عندئذ قلت مقترحًا:

– ما رأيك في أن نمشي معًا إلى مكتبي في أخبار اليوم؟

فكر قليلًا، وأزاح نظارته إلى أعلى، ثم قال:

– إنني لم أذهب إلى أخبار اليوم أبدًا..

قلت:

– وهذا أدعى.. تعال نقض وقتًا نزور خلاله الدار، ثم يصحبه أحد زملائي إلى البيت في سيارته..

أطرق لحظات ثم قال:

– والله فكرة..

وهكذا غادرنا مقهى ريش إلى دار أخبار اليوم..

صحافة زمـان...

نجيب محفوظ ابن نكتة، خفيف الظل، يجيد فن توليد النكتة من الحوار العادي، وعندما يطلق تعليقًا ساخرًا، تجلجل ضحكته مرتفعة صافية وكأنها لن تنتهي..

وفي الأربعينيات كان يسهر في الحسين إلى ساعة متأخرة مع أصحاب زمان، وكان باستطاعته أن يدخل «قافية» مع العديدين ويهزمهم، شخص واحد فقط كان بإمكانه أن يهزمه، إنه (عم إبراهيم) بائع الكتب المتجول، يعرفه أبناء حي الحسين القدامى، كان قصيرًا، بدينًا، يرتدي جلبابًا، ويمشي يهز رأسه باستمرار، حاملًا مجموعة من الكتب الدينية وكتب التراث الشعبي، وكان يرى في أوقات مختلفة من

الليل والنهار في مقاهي الحسين، خاصة الفيشاوي، كان (عم إبراهيم) يجلس في مواجهة نجيب محفوظ وصحبه، ويدخل معهم قافية، ويهزمهم جميعًا، يقول الدكتور أدهم رجب صديق عمر نجيب نحفوظ:

– كان نجيب محفوظ ابن نكتة!

كان في رمضان يصحبنا إلى الفيشاوي القديم في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات حيث كان هناك أولاد نكتة محترفون، يتصايحون بالنكتة الجنسية السافرة، ويا ويل من يستلمون قافيته، فكان نجيب محفوظ يتصدى لهم بمقدرة غريبة على توليد الأفكار وتخليقها بنكت تجعلهم أضحوكة الجميع، وكان صوته جهوريًّا، وخارقًا في سرعة ابتداع الفكرة، حتى إنه كان يتصدى لعشرين شخصًا دفعة واحدة بالنكتة تلو النكتة حتى يسكتهم جميعًا، وكذا نحن رفاق صباه ننقلب إلى (مطيباتية) له. كان رجلًا جبارًا في النكتة إلى حد أنه كان يضحك خصومه على أنفسهم..

ما لم يقله الدكتور أدهم رجب، أن عم إبراهيم بائع الكتب كان الوحيد الذي يمكنه أن يقهر نكتة نجيب محفوظ، وقد ظلا أصدقاء، كلما ذهب إلى الفيشاوي يجيء عم إبراهيم ويجلس إليه، حتى توفاه الله في الستينيات، إن هذا الجانب الخفي من شخصية نجيب محفوظ لا يعرفه الكثيرون، خاصة الذين جلسوا إليه في ندواته الأدبية، حيث يجيد إقامة حاجز وهمي بينه وبين الآخرين، ولكن هذا الجانب انعكس في أدبه، ويكفي أن ترجع إلى صفحات الثلاثية حيث سهرات أحمد عبد الجواد، ومجالسه..

في الطريق إلى أخبار اليوم تحدثنا عن الصحافة أيام زمان، وذكرت له صفحات من كتاب الصحفي الكبير مصطفى أمين «من عشرة إلى عشرين»، عن صحف العشرينيات، عندما كان الردح في مانشيتات الصحف، وكانت إحدى الصحف تكتب عن أحد كبار كُتاب حزب الوفد. كانت والدته فقيرة لم يكن لها مرتزق غير المعونة والعطف.. وكان يسكن في الفجالة، في حجرة مظلمة أجرتها في الشهر ستون قرشًا، وكانت هذه المعلومات كلها كاذبة، كذلك كان التحدث بوقاحة عن زوجات وأمهات، وأخوات وعمات زعماء الوفد، وذات يوم خرجت جريدة الكشكول، وهي إحدى صحف الحكومة، تنشر بعنوان «النحاس يطرطر»، ويضحك نجيب محفوظ:

– لقد ذكرتني بمجلة اسمها «المطرقة» كانت تطبع على ورق لحمة، وكان صاحبها يمتلك دكانًا صغيرًا في شارع الخليج، كان وفديًّا، وضد حزب الأحرار الدستوريين، كان ينشر خبرًا في الصفحة الأولى يقول: «ضبط فلان الحر الدستوري وهو يمشي في ميدان المحطة»..

يضحك نجيب محفوظ..

– وكأن انتماء الإنسان إلى الحزب تهمة، أو يكتب في صفحة الوفيات، الحمد لله.. مات فلان الفلاني وهو حر دستوري..

نضحك معًا، وأتذكر ما رواه لي صديقي الكبير عن عروض كثيرة قدمت إليه

للعمل في الصحافة، ولكنه رفضها، إخلاصًا منه للأدب...

ونصل إلى دار أخبار اليوم..

اللقـاء الأول...

... لأول مرة يدخل نجيب محفوظ دار أخبار اليوم، اقترحت على صديقي محمد عبد الرحمن أن ينتهز الفرصة ويلتقط مجموعة من الصور للكاتب الكبير، ولأن محمد عبد الرحمن يُعد أستاذًا في تصوير البورتريه، فقد دعا نجيب محفوظ بلباقة إلى الأستديو الخاص والملحق بقسم التصوير، همست في أذنه أن الرجل مصاب بحساسية ضد الضوء خاصة في الصيف، وبالفعل أنجز محمد عبد الرحمن عمله بسرعة، وفي مكتبه وضع أمامنا ستة أفلام تحتوي على حوالي مائة صورة لنجيب محفوظ، قلت له:

– لقد التقط لك أكثر من مائة صورة..

أبدى دهشته...

– إنه لم يستغرق إلا دقائق.. هو كان بيصور من ورايا؟ ولم يكن من المعقول أن يوجد نجيب محفوظ في الطابق الثاني، ومصطفى أمين في الطابق التاسع، ولا يلتقيان فكل منهما يمثل قمة الفن الذي يعمل في مجاله، كما أنهما ينتميان إلى جيل واحد، بل إنهما ولدا في سنة واحدة، وعاشا أحداثًا واحدة، من هنا كان اهتمام نجيب محفوظ بأن يتابع مذكرات مصطفى أمين التي تنشر تحت عنوان «من واحد إلى عشرة»، و«من عشرة إلى عشرين». ومعًا صعدنا إلى الطابق التاسع...

ثـورة 1919..

قال مصطفى أمين:

– كان يجب أن يتم هذا اللقاء منذ ثمانية وثلاثين سنة.. هل تذكر؟.. لقد أرسلت إليك مع صحفية كانت تعمل في أخبار اليوم لننشر لك قصتين في الشهر...

هز نجيب محفوظ رأسه وقال:

– لو أن ذلك حدث ربما كان تغير مسار حياتي...

لقد حدث عندما صدرت أخبار اليوم، أن التحق توفيق الحكيم كاتبًا بها، وقرأ مصطفى أمين إحدى روايات نجيب محفوظ، وأعجب بها، كان محفوظ وقتئذ شابًّا وكاتبًا مجهولًا، غير أن مصطفى أمين استشعر الموهبة الكامنة في كتاباته، واستفسر عنه، وعلم أنه يمت بصلة إلى إحدى المحررات العاملات بأخبار اليوم، وأرسل معها عرضًا إليه، أن يكتب قصتين قصيرتين في الشهر مقابل أربعين جنيهًا، كان مرتب نجيب محفوظ في هذه الفترة ثمانية جنيهات فقط من وظيفته بوزارة الأوقاف، وكان المبلغ يمثل إغراء كبيرًا، إنه يعادل الآن ما قيمته أكثر من أربعمائة جنيه شهريًّا، ولكن نجيب محفوظ لم يقبل...

– كنت مشغولًا في هذا الوقت بكتابة روايتي «زقاق المدق».. وكان معنى كتابة قصتين كل شهر أن أخرج من الجو العام للرواية..

ويقول مصطفى أمين:

– لقد فسرت الأمر وقتئذ على أنك رفضت لأن موقف أخبار اليوم كان ضد مصطفى النحاس وأنت معروف بوفديتك..

ويضحك نجيب محفوظ.

ويقول مصطفى أمين:

– على أية حال كان من الممكن نشر الرواية مسلسلة..

ويقول نجيب محفوظ:

– لو تم ذلك لتغير مجرى حياتي كما قلت..

ثم يسأل:

– متى ستنتهي من كتابة من عشرين إلى ثلاثين؟

يجيب مصطفى أمين:

– إنني أكتب في المذكرات الآن وآمل أن أنتهي منها إذا عشنا، وكان لنا أجل.. وبعدها أكتب من أربعين إلى خمسين، ثم من خمسين إلى ستين.. ولكن هل يسمح لنا العمر بذلك..

وألاحظ هذه النبرة المزعجة في حديث مصطفى أمين «إذا عشت» وإذا سمح لنا العمر..

قال نجيب محفوظ:

– لقد قرأت قصتك، الشيطان يعظ، ورأيت الفيلم، إنها قصة سياسية من الدرجة الأولى، لكنها لم تأخذ حقها من النقد..

ويصمت نجيب محفوظ شأنه عندما يسمع من يتحدث عن إحدى قصصه واقترح أن يرى مجموعة الصور النادرة التي يحتفظ بها الأستاذ مصطفى أمين عن ثورة 1919، وننتقل إلى نهاية الحجرة، حيث مجموعة الصور النادرة..

مظاهرات بالملاية اللف...

يمكنني القول إنه متحف حي ونادر لأحداث ثورة 1919، كنا واقفين، بينما الأستاذ مصطفى أمين يقدم إلينا الصور واحدة إثر الأخرى، واستغرق كاتبنا الكبير في الرؤية، صور المظاهرات، أصحاب الجلاليب، حفاة الأقدام.. مظاهرات النساء، نساء يرتدين الملاءات اللف، والحبرات، والرجال يحفون بهن.

يقول مصطفى أمين:

– انظر.. ما من رجل يعاكس سيدة، ما من تصرف خارج ويسأل نجيب محفوظ:

– هل رأيت مظاهرات النساء الشعبيات بالملاءات اللف؟

يومئ مصطفى أمين:

– نعم.. نعم..

وتتتابع الصور، مظاهرات أمام فندق شبرد القديم، بيت الأمة محاصر بالبوليس، جندي إنجليزي يحرس ترامًا، عربة تاكسي قديمة، شهيد فقير في أحد الأحياء البلدية

يرقد قتيلًا فوق أرض الشارع..

* * *

القاهرة القديمة بين الواقع والإبداع في عالم محفوظ

يقول الروائي العربي الكبير نجيب محفوظ..

.. حبي وارتباطي بالقاهرة القديمة لا مثيل لهما، أحيانًا يشكو الإنسان بعض جفاف في النفس، تعرف هذه اللحظات التي تمر بالمؤلفين، عندما أمر في المنطقة تنسال عليَّ الخيالات، وأغلب رواياتي كانت تدور في عقلي كخواطر حية أثناء جلوسي في هذه المنطقة، يخيل لي أنه لا بد من الارتباط بمكان معين، أو شيء معين يكون نقطة انطلاق للمشاعر والأحاسيس.. والجمالية بالنسبة لي هي تلك المنطقة.

.. إن المنطقة التي تعلق بها نجيب محفوظ هي القاهرة القديمة، التي تعتبر أساس المدينة قبل أن تتسع وتتشعب في القرون التالية على إنشائها (969م)، ولد نجيب محفوظ في ميدان بيت القاضي، في نفس منطقة بين القصرين التي أصبحت مسرحًا لأعظم أعماله الأدبية، الثلاثية، وعاش حتى سن الثانية عشرة، ثم انتقل إلى السكنى في حي العباسية القريب، ولم تنقطع صلته بالقاهرة القديمة حتى يومنا هذا، أعطى أسماء الشوارع والحواري لخمس من أهم رواياته، خان الخليلي، وروايته زقاق المدق، ثم الثلاثية التي تتكون من ثلاثة أجزاء: بين القصرين، وقصر الشوق، والسكرية، وتلك أسماء باقية حتى يومنا هذا، فيها دارت أحداث هذه الروايات، فإلى أي حد استطاع تجسيد القاهرة القديمة في أعماله، وهل تتطابق القاهرة الحقيقية في الواقع مع القاهرة كما تبدو في الروايات؟ سأركز على الثلاثية أكبر أعمال نجيب محفوظ وأهمها، وسوف أستند إلى خبرتي بالمكان، حيث إنني عشت في القاهرة القديمة لمدة تتجاوز الثلاثين عامًا، وعرفت نفس الشوارع والحواري التي عاش فيها نجيب محفوظ.

بين القص–رين

.. تطالعنا القاهرة القديمة في «بين القصرين» الجزء الأول من الثلاثية، في الصفحات الأولى، ومن خلال عيني أمينة زوجة أحمد عبد الجواد، أثناء وقوفها خلف النافذة تتطلع إلى الطريق في انتظار زوجها.

.. كانت المشربية تقع أمام سبيل بين القصرين، ويلتقي تحتها شارعا النحاسين الذي ينحدر إلى الجنوب وبين القصرين الذي يصعد إلى الشمال، فبدا الطريق إلى يسارها ضيقًا ملتويًا متلفعًا بظلمة تكثف في أعاليه حيث تطل نوافذ البيوت الدائمة وتحف في أسافله بما يلقى إليه من أضواء مصابيح عربات اليد وكلوبات المقاهي وبعض الحوانيت التي تواصل السهر حتى مطلع الفجر، وإلى يمينها التف الطريق بالظلام حيث يخلو من المقاهي، وحيث توجد المتاجر الكبيرة التي تغلق أبوابها مبكرًا، فلا يلفت النظر به إلا مآذن قلاوون وبرقوق لاحت كأطياف من المردة ساهرة تحت ضوء النجوم الزاهرة.

تلك صورة الطريق كما تبدو في أول مقطوعة وصفية للطريق، كيف يبدو المكان في الواقع؟ يمكن تحديد الموقع بسهولة من خلال وصف نجيب محفوظ، إنه هذا

الجزء من شارع بين القصرين (واسمه حاليًّا شارع المعز لدين الله نسبة إلى مؤسس القاهرة) حيث توجد مجموعة من الآثار الهامة. وإذا نظرنا إلى الطريق أثناء مشينا فيه من الشمال إلى الجنوب، فسوف نجد مجموعة الآثار الإسلامية التالية، والترتيب طبقًا لموقع كل منها..

إلى الناحية اليسرى، وفي المواجهة تمامًا.. سنجد:

والملاحظة الأولى التي تستوقفنا هنا أن المكان يخلو تمامًا من البيوت السكنية، وأقرب المباني السكنية تقع في الخرنفش إلى الشمال، وفي حارة الصالحية إلى الجنوب، لقد حدد نجيب محفوظ مكان البيت الذي ستدور فيه معظم أحداث الثلاثية، حدد مكانه في مواجهة سبيل بين القصرين، والسبيل موجود بالفعل، لكن في مواجهته يقوم مسجد برقوق الضخم، أي أن المنزل في الرواية يحتل مكان المسجد، ويقوم في مكان لا توجد به أي بيوت مسكونة، كما أنه يصف مآذن برقوق وقلاوون من خلال عيني أمينة، وحتى يمكن لها أن ترى المئذنتين فلا بد أن يكون موقع البيت على الناحية الأخرى، وإذا صح موقع البيت على الناحية الأخرى فإن النافذة لن تواجه أبدًا سبيل بين القصرين، في نفس الوقت نجد أن وصف المؤلف للطريق يطابق الواقع بالنسبة لازدحامه إلى جهة اليسار، وخلوه من الحركة في الجزء الجنوبي، ولكن يعود الوصف ليصبح بعيداً عن واقع المكان، عندما تنظر أمينة إلى سبيل بين القصرين، ثم إلى منعطف حارة الخرنفش، وإلى بوابة حمام السلطان، ثم إلى المآذن، إن من ينظر إلى هذه الأشياء لا بد أن يكون موقعه في منتصف الطريق تمامًا، وليس خلف نافذة تقع في مواجهة سبيل بين القصرين.

في الفصل السابع، يقول المؤلف:

عندما بلغ السيد أحمد عبد الجواد دكانه الذي يقع أمام جامع برقوق بالنحاسين..

وفي الواقع نجد سبيل بين القصرين أمام مسجد برقوق، وبجواره قصر الأمير بشتاك ولا توجد متاجر في هذا الجزء، بل إن الدكاكين تقع إلى الجنوب، على مسافة حوالي ثلاثمائة متر في النحاسين، في الفصل الثاني عشر يصف نجيب محفوظ حركة ياسين عبد الجواد:

.. ثم اتجه صوب الصاغة، ومنها إلى الغورية، ومال إلى قهوة سي علي على ناحية الصناديقية، وكانت شبه دكان متوسط الحجم يفتح بابها على الصناديقية وتطل بكوة ذات قضبان على الغورية وقد اصطفت بأركانها الأرائك..

في الواقع نجد أن ترتيب الشوارع التي تحرك فيها كالآتي:

(الصاغة – الغورية – الصناديقية)..

أما مقهى سي علي فلا يوجد على ناحية الصناديقية أي مقهى يحمل هذا الاسم حاليًّا أو خلال المائة سنة الأخيرة، وإذا أخذنا بالمقهى في الرواية فإن الجالس فيه لا يمكن أن يرى الغورية من حارة الصناديقية، إذ إنها بعيدة عن الغورية ويفصلها عنها شارع الأزهر الذي كان ممرًّا ضيقًا في وقت أحداث الرواية 1918، ثم اتسع منذ عام 1930.

وفي الفصل الحادي والعشرين يصف نجيب محفوظ منزل أم مريم..

.. النافذة التي تطل على حمام السلطان مباشرة.. وفي الواقع، نجد أن حمام السلطان لا يقوم أمامه أي بيت، بل ما نجده هو قبر الصالح نجم الدين أيوب، إن حمام السلطان يواجهنا مرة أخرى عندما تنظر إليه عائشة.

وهكذا وقفت ذاك الصباح فظل طرفها حائرًا ما بين حمام السلطان وسبيل بين القصرين وفؤادها الفتي يواصل خفقاته حتى تراءى عن بعد «المنتظر» وهو ينعطف قادمًا من الخرنفش..

وإذا اعتبرنا -كما في الرواية وليس كما في الواقع- المنزل في مواجهة سبيل بين القصرين، فمن الصعب للواقف فيه، الناظر من خلف النافذة أن يرى حمام السلطان والسبيل معًا، إن دائرة الرؤية لا تتسع لهما معًا.

نلاحظ من خلال رصد حركة الشخصيات في واقع الرواية المتخيلة، أن المؤلف لا يلتزم الدقة عند وصف التفاصيل، ولا يتقيد بمعالم المكان الواقعي، على العكس من ذلك، فإنه عندما يرسم الملامح العامة يصبح أكثر دقة ففي الفصل الثامن عشر، يمضي ياسين عبر شارع الجمالية، ثم يرى عطفة قصر الشوق، إن الوصف عام ودقيق إلى حد ما، لأن قصر الشوق اسم يطلق على شارع يتفرع من طريق الجمالية وهو الذي اعتبره المؤلف عطفة (أي منحنى) أما عطفة قصر الشوق في المكان الواقعي، فتقع عند نهاية شارع قصر الشوق، وتبدأ من مدرسة عبد الرحمن كتخدا الابتدائية، وعندما تذهب أمينة لتزور مسجد سيدنا الحسين مع كمال، فإن الوصف العام للمكان يبدو صحيحًا إذا قورن بالمكان الواقعي، إنهما يغادران البيت إلى درب قرمز، ثم ميدان بيت القاضي يتصدره مبنى قسم الجمالية ثم مدرسة خان جعفر الابتدائية، ثم طريق خان جعفر حيث يلوح جانب من مسجد الحسين، إن الوصف هنا دقيق والمكان المتخيل يطابق المكان الواقعي تمامًا، والمعالم التي ذكرها نجيب محفوظ موجودة حتى يومنا هذا، قسم البوليس ومدرسة خان جعفر، وميدان بيت القاضي، كذلك نجد أن الوصف العام يطابق الواقع في الفصل الأربعين عندما تنتقل الأسرة من بين القصرين إلى السكرية المجاورة لبوابة المتولي ونلاحظ أن نجيب محفوظ يستخدم الاسم الشعبي لهذه البوابة الضخمة التي لا تزال متبقية إلى يومنا هذا، وتعتبر واحدة من أربع بوابات قديمة وصلت إلى عصرنا من بوابات القاهرة القديمة والتي كان عددها ثماني بوابات، وعندما يذهب أحمد عبد الجواد مع أولاده لصلاة الجمعة في مسجد الحسين يسلكون نفس الطريق الذي مشت فيه أمينة وكمال من قبل، لا يذكر نجيب محفوظ التفاصيل، إنما يعبرون ميدان بيت القاضي ثم نراهم داخل المسجد، وفي نهاية «بين القصرين» تتحرك المظاهرة التي اشترك فيها فهمي من ميدان المحطة حيث محطة السكك الحديدية الرئيسية وتتجه إلى مدخل شارع نوبار، ثم تقترب من حديقة الأزبكية، ويلوح ميدان الأوبرا، وهنا ينطلق الرصاص، ويقتل فهمي، إن القارئ الذي لم يعاصر القاهرة خلال العشرينيات يدهش، إذ كيف تتحرك المظاهرة من ميدان المحطة إلى شارع نوبار؟ وهو شارع يقع حاليًّا في منطقة السيدة زينب إلى الجنوب، بينما يقع ميدان الأوبرا في وسط المدينة، سيتساءل القارئ، كيف تمر المظاهرة بشارع نوبار قبل أن تعبر ميدان الأوبرا؟ ويبدو نجيب محفوظ هنا كأنه لا يعرف ترتيب الشوارع في القاهرة، ولكن الحقيقة عكس

ذلك، إذ إن اسم نوبار كان يطلق على شارع إبراهيم باشا، (ثم شارع الجمهورية فيما بعد) وفي بداية عهد الملك فاروق أطلق اسم جده إبراهيم باشا على شارع نوبار، وأطلق اسم نوبار باشا على شارع آخر صغير يبدأ من ميدان لاظوغلي وينتهي في شارع المبتديان، وكان اسمه شارع الدواوين.

ونلاحظ في الجزء الأول من الثلاثية أن حركة الشخصيات تتم داخل منطقة القاهرة القديمة، تمتد الحركة مرة واحدة عندما يذهب ياسين مع زوجته إلى المسرح في الأزبكية، لا نرى أي وصف للمسرح، إنما نرى ياسين في البيت بعد عودته، ثم تمتد الحركة إلى ميدان بيت المحطة حيث تبدأ المظاهرة ويبلغ عدد فصول الرواية واحدًا وسبعين فصلًا، تدور الأحداث فيها كالآتي:

(40) فصلًا في منزل أحمد عبد الجواد.

(12) فصلًا في دكان أحمد عبد الجواد الذي يبعد نصف كيلو متر عن البيت.

(8) فصول في الطرق بمنطقة الجمالية، وأبعد نقطة تبعد عن المنزل وصلها أحد شخصيات الرواية 3 كيلو مترات. (فهمي في ميدان المحطة).

(3) فصول في بيت زبيدة العالمة، يبعد كيلو مترًا واحدًا عن بيت أحمد عبد الجواد

(3) فصول في بيت أم أمينة بالخرنفش، يبعد نصف كيلو عن بيت أحمد عبد الجواد.

(3) فصول في بيت السكرية ويبعد حوالي اثنين كيلو.

(1) فصل في بيت محمد رضوان المجاور لبيت أحمد عبد الجواد.

(1) فصل في مسجد الحسين الذي يبعد حوالي كيلو متر واحد فقط.

وفي الجزء الأول يسافر أحمد عبد الجواد إلى مدينة بور سعيد، وهي المرة الوحيدة التي سيسافر فيها خلال أحداث الثلاثية كلها. لكننا لا نرى الطريق إلى بور سعيد، ولا يذكر المؤلف أي تفاصيل فيما عدا خروج أحمد عبد الجواد من البيت ثم عودته.

قصــر الشــوق

.. تنتهي أحداث الجزء الأول في إبريل 1919. وتبدأ أحداث الجزء الثاني «قصر الشوق» في يوليو 1924، أي تمر ست سنوات، أصبح للشخصيات حركة مختلفة داخل مدينة القاهرة، تقدم بهم العمر، وأصبح لكل منهم علاقاته، لهذا ستشمل حركتهم مناطق من المدينة لم تذكر في الجزء الأول، في بداية الفصل السادس يمشي كمال الذي أصبح في سن المراهقة مع صديقه فؤاد. يمرون بقبو قرمز، وهذا القبو يتردد ذكره في الثلاثية عدة مرات والقبو حقيقي.

ويمتد أحد المساجد المملوكية القديمة، وتحيط به الأساطير، ولكن نجيب محفوظ يخلط بينه وبين قبو آخر يقع تحت قصر الأمير بشتاك، وهذا القبو يتكون من عدة منحنيات بعكس القبو الأول، وإذا أخذنا موقع بيت أحمد عبد الجواد في الاعتبار، فإن نجيب محفوظ يقصد القبو الثاني، لكنه يطلق عليه اسم القبو الأول البعيد عن مكان البيت.

يصل كمال وصديقه إلى مقهى أحمد عبده الذي يقع تحت الأرض، هذا المقهى كان

موجودًا حتى الثلاثينيات، ويبدو من وصف نجيب محفوظ له، ومن ذكريات الرجال المعمرين في المنطقة أنه وصف دقيق، أزيل هذا المقهى ومكانه الآن مجموعة مباني الأميرة شويكار القائمة حتى الآن.

في نفس الفصل يرد ذكر الكلوب المصري عندما يقول كمال لصديقه.. «سنذهب يوم الخميس القادم إلى الكلوب المصري لمشاهدة شارلي شابلن، فنلعب الآن عشرة دومينو..».

والكلوب المصري فندق قديم لا زال موجودًا حتى الآن بالقرب من مسجد الحسين، ويضم الفندق فناء مكشوفًا كانت تعرض به أفلام سينمائية في الثلث الأول من هذا القرن، وأول عرض سينمائي قدم في مصر شاهده المتفرجون في هذا الفندق عام 1910.

في الفصل السابع يتجه أحمد عبد الجواد إلى:

«عوامة في نهاية المثلث الأول من طريق إمبابة..»

وتوجد بالفعل عوامات في هذه المنطقة كان بعضها يستخدم للهو وقضاء أوقات المتعة، وسوف يتردد أحمد عبد الجواد على هذه العوامة عدة مرات، في الفصل الثامن يرى أحمد عبد الجواد في حارة الوطاويط زنوبة حبيبته العالمة، والحارة موجودة حتى اليوم بجوار مسجد الحسين وتؤدي إلى شارع الجمالية، وفي القرن الماضي كانت مسقوفة بأغصان الشجر، ولهذا استقرت بها بعض الوطاويط، ومن ثم سميت بحارة الوطاويط.

في الفصل الرابع عشر، يذهب كمال إلى العباسية، يصف نجيب محفوظ الطريق بشكل عام، شارع الحسينية، ثم شارع العباسية،ثم الوايلية، ثم شارع السرايات، وهذه الشوارع كلها موجودة بنفس الأسماء حتى الآن، ولكن المعالم التي وصفها المؤلف تغيرت، كانت العباسية في زمن الرواية ضاحية هادئة، مليئة بالحدائق والأشجار، والقصور الكبيرة كانت مقرًّا لسكن الأثرياء والطبقة الراقية، لقد تغير الوضع الآن،، فالعباسية حاليًّا منطقة شعبية، مزدحمة، أما القصور فقد زالت تمامًا، وقصر آل شداد الذي يصفه نجيب محفوظ كان قصرًا حقيقيًّا ولكن اسم الأسرة في الواقع يختلف عن الرواية، أزيل القصر ومكانه الآن عمارتان حديثتان، في الفصل السابع عشر يخرج كمال مع حسين شداد وشقيقته عايدة، ويتجهون إلى الهرم للنزهة، تنطلق السيارة من العباسية، إلى السكاكيني، ثم إلى شارع الملكة نازلي (أصبح اسمه الآن شارع رمسيس) إلى الزمالك، ثم طريق الجيزة، إلى سفح الهرم الأكبر، ثم أبو الهول، والطريق من العباسية إلى الهرم مطابق للواقع، ولا يصفه نجيب محفوظ بالتفصيل، إنما يذكر الملامح العامة فقط. ثم يذهب كمال إلى وجه البركة في الفصل الخامس والثلاثين، والمكان حقيقي كان اسمه بالعامية (وش البركة)، وكله مخصص للدعارة التي كانت مباحة في العشرينيات، حتى عام 1949، ويرتبط بوجه البركة شارع آخر اسمه درب طيب، والمكانان حقيقيان، ولا يظهران في الرواية إلا بعد مرور كمال بأزمة عاطفية حادة، تؤدي به إلى الخمر، والتعرف على المرأة كجسد في هذا المكان الذي يقع بالقرب من حديقة الأزبكية في وسط المدينة، يتكون الجزء الثاني «قصر الشوق» من (44) فصلًا.

(13) فصلًا في بيت أحمد عبد الجواد بين القصرين.
(8) فصول في ضاحية العباسية قصر آل شداد.
(4) فصول في دكان أحمد عبد الجواد بالنحاسين.
(7) فصول في العوامة أو الطريق المحاذي لنهرالنيل.
(2) فصلان في السكرية.
(2) فصلان في وجه البركة.
(3) فصول في بيت ياسين بقصر الشوق.
(1) في مقهى أحمد عبده.
(1) في بيت محمد رضوان.
(1) في الهرم.
(1) في مسجد الحسين.
(1) في بيت زبيدة العالمة.

ونلاحظ أن منطقة قصر الشوق التي يحمل الجزء الثاني اسمها لا تحتل من أحداث الرواية إلا ثلاثة فصول، ويرجع ذلك إلى سبب طريف، وهو أن الثلاثية كانت في الأصل رواية واحدة ضخمة عنوانها بين القصرين، وكان مستحيلًا من الناحية العملية أن تصدر في كتاب واحد، وطلب الناشر من المؤلف أن يقسمها إلى ثلاثة أجزاء، وبالفعل قسمها المؤلف إلى ثلاثة أجزاء وأعطى كل جزء اسمًا منفصلًا.

السـكرية

تبدأ أحداث الجزء الثالث في يناير 1935، وتنتهي في صيف 1944، يمر الزمن وتتقدم الشخصيات في العمر، وتتسع حركتهم في مدينة القاهرة، وتظهر أماكن لأول مرة.

في بداية الفصل الرابع، كمال يركب الترام، متجهًا إلى بيت الأمة، بيت سعد زغلول زعيم ثورة 1919، والبيت موجود حتى الآن، يغادر كمال سرادق الاحتفال، وإلى شارع القصر العيني، ويمر أمام مبنى الجامعة الأمريكية بميدان الإسماعيلية، (أصبح اسم الميدان الآن ميدان التحرير)، ويظهر مقهى أحمد عبده مرة أخرى في الفصل السادس حيث يجلس كمال مع صديقه إسماعيل لطيف، وفي الفصل السابع يجلس ياسين في مقهى..

«من هذا الموضوع الدافئ ترى الغادي والرائح من شارع فاروق وإليه، ومن الموسكي وإليه.. ومن العتبة وإليها..».

ويبدو أن موقع المقهى بميدان العتبة لم يذكره المؤلف بالاسم، أما شارع فاروق فلا زال موجودًا حتى الآن (أصبح اسمه شارع الجيش) وشارع الموسكي لن يتغير اسمه حتى الآن.

في الفصل الثامن يمشي رضوان بن ياسين في الغورية، يمر بالسكرية، يجتاز بوابة المتولي، ثم يميل إلى الدرب الأحمر، والمكان الأخير يذكر لأول مرة في الثلاثية آخرًا

مرتبطًا بحركة رضوان يذكر أيضًا لأول مرة، إنه ضاحية حلوان التي تقع جنوب القاهرة على بعد ثلاثين كيلو مترًا، حيث يتردد رضوان على بيت عبد الرحيم باشا، وقد بحثت طويلًا عن اسم هذا الشارع فلم أجده الآن، ولم يكن هناك شارع بهذا الاسم في زمن الرواية.

في الفصل الخامس عشر يذهب كمال إلى مجلة «الفكر» ويحدد نجيب محفوظ بدقة شديدة:

«كانت مجلة الفكر تشغل الدور الأرضي بالعمارة رقم 21 بشارع عبد العزيز..»

يتفرع شارع عبد العزيز من ميدان العتبة ولا زال يحمل نفس الاسم، لكن المبنى الذي حدده نجيب محفوظ –وتلك المرة الوحيدة التي يذكر فيها عنوانًا بهذه الدقة– لا توجد ولم توجد به أي مجلة.

إن كمال يذهب إلى بيت للدعارة في عطفة الجوهري المتفرعة من شارع الموسكي، وهذه العطفة لا وجود لها في الواقع، وفي الفصل العشرين نجد أحمد شوكت وشقيقه عبد المنعم في جامعة القاهرة بالجيزة، ثم نجد أحمد شوكت في مكتبه بالجامعة مرة أخرى في الفصل الخامس والعشرين، حيث يتعرف إلى زميلته علوية صبري، وسوف تؤدي علاقتهما إلى زيارة بيتها في ضاحية المعادي، والمعادي تقع إلى جنوب القاهرة بحوالي خمسة عشر كيلو مترًا، نجد كمال في جامعة القاهرة التي تذكر للمرة الثالثة والأخيرة في الثلاثية كلها، في الفصل الثلاثين يمشي كمال في شارع فؤاد المظلم بسبب الحرب، ويصف نجيب محفوظ الزحام، وجنود الاحتلال البريطاني، أصبح اسم شارع فؤاد الآن شارع 26 يوليو، ويضطر كمال أثناء مشيه للاختباء في مقهى رقص كان موجودًا في الواقع وأزيل في أواخر الخمسينيات، في الفصل السادس والثلاثين تلجأ الأسرة إلى قبو قرمز ويضطر كمال إلى حمل والده، وقد سبق أن أشرت إلى أن القبو الذي يذكره نجيب محفوظ في الرواية هو القبو آخر يقع تحت قصر الأمير بشتاك الأثري، ولجوء الأسرة إليه أثناء الغارة الجوية يؤكد هذه الملاحظة إذ إن منزل الأسرة كما يصفه المؤلف أقرب إلى القبو الثاني من قبو قرمز، في بداية الفصل الأربعين نجد كمال مع صديقه رياض في مقهى خان الخليلي، الذي شيد مكان مقهى أحمد عبده فوق سطح الأرض.

«كانت قهوة صغيرة بابها يفتح على حي الحسين، ثم تمتد طولًا في شبه ممر تصف على جانبيه الموائد، وينتهي بشرفة خشبية تطل على خان الخليلي الجديد..».

يرصد نجيب محفوظ أحد معالم التغيير التي حدثت بالمنطقة، والمقهى الذي يصفه مقهى حقيقي كان موجودًا بنفس الوصف الذي ذكره المؤلف حتى عام 1969، عندما هدم، وشيد بناء حديث، احتل فيه نفس المقهى مكانًا جديدًا، ولكن تصميمه اختلف بالطبع، غير أن نجيب محفوظ ذكر المقهى باسم «خان الخليلي» بينما كان اسمه في الواقع ولا يزال «مقهى درويش»، وهو قائم حتى الآن في مقره الجديد.

يذهب كمال إلى قاعة إيوارت الملحقة بالجامعة الأمريكية، وهناك يرى بدور شقيقة عايدة التي أحبها في صدر شبابه، تذكر القاعة مرة واحدة، وهي قاعة موجودة في الواقع ولا تزال، ومدخلها يطل على شارع الشيخ ريحان، ثمة مكان آخر يذكر مرة

واحدة هو حديقة الشاي بحديقة الحيوانات، حيث يلتقي أحمد شوكت بصديقته سوسن حماد، والجبلاية مكان حقيقي يوجد حتى الآن.

يلتقي كمال مرة أخرى ببدور في شارع ابن زيدون، ثم يمشي معها إلى شارع الجلال، ثم إلى شارع الملكة نازلي، الشارعان الأول والثاني لا وجود لهما في الواقع، أما شارع الملكة نازلي فاسمه الآن شارع رمسيس، عند تقاطع شارعي شريف وقصر النيل يلتقي كمال فجأة بصديقه حسين شداد، ثم يجلسان بمقهى ريتز، لا يزال الشارعان يحتفظان باسميهما حتى الآن، أما مقهى ريتز فكان مقهى حقيقيًّا يقع في مواجهة البنك الأهلي المصري، ثم أزيل في أواخر الأربعينيات.

وهكذا نلاحظ أن الأماكن التي تظهر من مدينة القاهرة في الجزء الثالث أكثر تعددًا، ويرجع ذلك إلى حركة الشخصيات داخل المدينة، ونلاحظ أن أسرة أحمد عبد الجواد محور الرواية عندما كانت متماسكة، كانت الأماكن في الجزء الأول محدودة لا تتجاوز منطقة القاهرة القديمة، ثم اتسعت الحركة في الجزء الثاني مع نمو الشخصيات وتقدمها في العمر، وفي الجزء الثالث يصبح إيقاع الزمن أسرع، وحركة الشخصيات، ويستتبع هذا العديد من التنقلات في المدينة، وبالتالي تظهر أماكن جديدة، تتكون السكرية من أربعة وخمسين فصلًا:

بيت بين القصرين 12 فصلًا

بيت السكرية 12 فصلًا

الطريق 8 فصول

المقاهي 4 فصول

الجامعة 3 فصول

حلوان 3 فصول

مجلة الفكر بشارع عبد العزيز فصلان

دكان أحمد عبد الجواد فصل واحد

مجلة الإنسان الجديد بغمرة فصل واحد

الوزارة حيث يعمل ياسين فصل واحد

ضاحية المعادي فصل واحد

بيت الدعارة فصل واحد

قبو قرمز فصل واحد

قاعة إيوارت فصل واحد

حديقة الشاي فصل واحد

حانة النجمة فصل واحد

قسم الجمالية فصل واحد

يتقدم الزمن داخل الرواية، وتتسع المساحة التي تظهر من المدينة ومن خلال

وصف نجيب محفوظ، تسجل الرواية ملامح القاهرة التي تغير الكثير منها الآن، بدءًا من بيت أسرة أحمد عبد الجواد، الذي كان يعد نموذجًا لسكن الأسر المتوسطة في القاهرة القديمة، اختفى ذلك تمامًا الآن، وحلت المباني ذات الطوابق المتعددة، وحتى المقاهي التي أزيل بعضها، وأسماء الشوارع التي تغيرت، ثم وصف وسائل مواصلات انقرضت مثل «سوارس» التي يتردد ذكرها عدة مرات، و«سوارس» كانت عربات تجرها الخيول يمتلكها يوناني وقد ظلت حتى بداية الخمسينيات، كما يذكر بعض معالم التطور بالمدينة، مثل إدخال مواسير المياه، لقد وصف نجيب محفوظ الخطوط العريضة لمدينة القاهرة بدقة، ولكنه لم يلتزم هذه الدقة عند التطرق إلى التفاصيل، ولكن الذي لا شك فيه أنه استطاع من خلال تركيزه على الحياة الداخلية للشخصيات أن يجسد أسلوب الحياة القاهري والذي ساد فترة طويلة، ولا تزال بقاياه في حياتنا.

أسماء الشوارع التي ورد ذكرها في الثلاثية وأسماؤها الآن:

(الاسم القديم) (الاسم الحالى)

* شارع بين القصرين. * شارع المعز لدين الله.

* ميدان المحطة. * ميدان رمسيس.

* شارع نوبار. * شارع الجمهورية.

* ميدان الإسماعيلية. * ميدان التحرير.

* شارع فؤاد الأول. * شارع 26 يوليو.

* شارع الملكة نازلي. * شارع رمسيس.

الجزء الثالث مجـالس متفـرقة

مجلس السيرة

الثلاثاء:

فرح بوت

أي إبداع جميل هذا؟

أي أدب رفيع؟

أي خلاصة، أي رحيق؟ أي شهد نقي، رائع، منعش، دافع، باعث لكافة نوازع الجمال؟

إعجاب، وانبهار، وإصغاء عميق إلى الدروس التي يقدمها إلينا نجيب محفوظ، بتواضع جم، يخفي أستاذية نادرة.

أسئلة عديدة تتوالى، وانطباعات شتى يثيرها هذا العمل الأدبي الرائع الذي فاجأ به محفوظ القراء والمحبين لأدبه وفنه. ولأول مرة منذ سنوات عديدة يصبح العمل الأدبي المنشور محورًا لأحاديث الناس، وتعليقاتهم، وانطباعاتهم. تعود إلى الذاكرة تلك الأيام الخصبة من الستينيات التى كانت تنشر فيها روايات محفوظ صباح الجمعة فتصبح كل حلقة محورًا للنقاش، وموضوعًا للإعجاب والتأملات. في «أصداء السيرة الذاتية» يتحول البناء العظيم إلى جواهرجي ماهر، يصوغ من الألفاظ والحروف وعلامات الترقيم قطعًا من النثر النادر وكأنها الياقوت والزمرد والمرجان، فيها الألق، فيها الشعر، فيها الموسيقى، بعض منها يحتوي على خبرة البشرية بأكملها، بعض منها يحوي مواجهة شجاعة إنسانية للأبدية، للحياة وللموت.

وهو في اللقاء الأسبوعي بالأديب العظيم، والذي يضم صفوة الأصدقاء المقربين، طرحنا عليه عددًا من الاستفسارات، لإضاءة الظروف التي أحاطت بهذا العمل الفريد في الأدب العربي الحديث. وهنا يجب الإشارة إلى أن أولئك الصحب عايشوا كتابة هذا العمل، وكان نجيب محفوظ الذي لا يتحدث عادة عما يكتبه، يلقي بعض الإشارات من أسبوع إلى آخر، يقول إنه يكتب بعض التأملات في قصاصات ورقية، لا يدري ماذا يطلق عليها؟، كانت إشاراته متواضعة، غامضة، واعتدنا ألا نلقي عليه المزيد من الأسئلة، فهو لا يقول إلا ما يريد أن يقوله، ولكن يختلف الأمر الآن بعد ظهور (أصداء السيرة الذاتية) وإثارتها هذا القدر كله من الإعجاب والأسئلة الثلاثاء الماضي، وفي المكان الذي اعتدنا اللقاء فيه، طرحت عليه مع الصديق الروائي يوسف القعيد كل ما يجول بالذهن، وكانت إجاباته صريحة تمامًا، ومفاجئة لنا في كثير من جوانبها.

* * *

من الطبيعي أن نسأل في البداية: متى بدأت فكرة كتابة أصداء السيرة الذاتية؟

لحيظات يحدق فيها إلى الأمام، إلى نقطة مجهولة من الزمان والمكان، ثم يتطلع إلينا، ونذكره بما قاله لنا يومًا عن تلك التأملات التي يكتبها.. هل هي ما ينشر الآن؟

بسرعة يجيب:

«بالضبط.. والحقيقة أنني لم أفكر في نشرها، لم يدر هذا بذهني، بعد إجراء العملية الجراحية في لندن عدت إلى القاهرة في حالة صحية سيئة، كانت عندي الرغبة في الكتابة ولم يكن هناك موضوع محدد، بدأت أدون بعض الخواطر، أي خواطر.. ثم فكرت في إعادة قراءتها بغرض تجويد كتابتها لعل شيئًا ما ينتج عنها، بدأت أمسك كل «تأملاية» وأعيد كتابتها بعناية، لكن من ناحية النشر كنت خائفًا جدًّا أن أخرج بها إلى القراء، حتى إن الصديق زكي سالم كان يطالبني بالاطلاع عليها لإبداء الرأي، وكذلك الأصدقاء في الإسكندرية، لكنني كنت عظيم الخشية.. ومن شدة خوفي دفعت بها إلى النشر...

(وهنا نذكره بما قاله لنا أكثر من مرة، حول رغبته في إطلاعنا على عمل كتبه ويحيره، ويعلو صوته درجة).

نعم.. نعم، أذكر ذلك جيدًا، إنه العمل الوحيد الذي كتبته وكنت أريد أن أطلعكما عليه قبل النشر، كنت أنوي عرضه على أكثر من صديق، العنوان نفسه لم يظهر إلا بعد الانتهاء منه، كنت قد وضعت عنوانًا مبدئيًّا «تأملات» ولكنني وجدت أن كثيرًا مما تحتويه مستوحى من حياتي، لكنني وجدت أيضًا أنها ليست سيرة تمامًا، هنا فكرت في كلمة «أصداء» على اعتبار أن الصدى يتيح قدرًا من الحرية، ولا يمكن محاسبة الكاتب على التفاصيل.. هكذا جاء عنوان «أصداء السيرة الذاتية..».

من المرايا إلى الأصداء

(ونذكره بحالة قريبة مرت به، خلال الستينيات، وأثناء لقائنا به في مقهى عرابي بميدان الجيش (أزيل الآن) حدثنا عن عدم وجود موضوع لرواية، وأنه فكر في استدعاء بعض الشخصيات التي عرضها في حياته والكتابة عنها.. هكذا جاءت المرايا.. هل هناك تشابه في الحالتين؟ ويجيب على الفور..).

لا.. المرايا موضوع مختلف، فكرت أن أكتب تاريخًا، محوره بعض الذين قابلتهم في حياتي، سيد قطب، منصور فهمي مثلًا، لكنني وجدت أن ما أعرفه عن هذه الشخصيات قليل جدًّا، يعني لا أقدر أن أكتب فصلًا عن سيد قطب أو منصور فهمي أو محمد مندور، لم أقدر على التاريخ..

(يعني هل كنت تنوي الكتابة عن الشخصيات الحقيقية بأسمائها؟

نعم، ولكن معرفتي بهم محدودة جدًّا، المعلومات المتوافرة قليلة للغاية، ولم أستطع أن أصبح مؤرخًا، فكتبت عنهم كأديب. كروائي، بعض سطور من الواقع تمثل النواة فقط ولكن باقي الحكي متخيل...

(لقد أحدث ذلك سوء تفاهم وقت نشر المرايا..

بالضبط. بما أني لم أكتب الاسم الأصلي، وكتبت بشكل روائي، فلا بد ينسى

الأصل. أن يكون التناول للعمل باعتباره عملًا إبداعيًّا متخيلًا، ولكنني أعرف أن البعض حاول استنتاج أشياء واقعية لا أساس لها في الواقع.

(ونعود إلى أصداء السيرة الذاتية، إذا كانت المرايا تعد ترجمة روائية لبعض شخصيات الحياة، فإن أصداء السيرة الذاتية تختلف.. لأن الكاتب والمكتوب عنه شخص واحد، إنه أنت نجيب محفوظ الذي يروي ويقص...).

نعم، الأصل في كل مقطوعة إما حادثة جدت في حياتي، أو لحظة، أو فكرة، «تأملاية».. كل هذا يمت إليَّ بلا شك.

(ألم تضع أي خطة للعمل؟ ألم تهندس لأصداء السيرة بحيث تجيء مقطوعة قبل الأخرى؟).

إطلاقًا، ولذلك تجد أن بعض المقطوعات حديثة جدًّا، ثم قديمة جدًّا، تمامًا كما وردت عليَّ. لا يوجد ترتيب تاريخي على الإطلاق.. يعني أذكر أنه المقطوعة الأولى عن الثورة وأنا في الطريق إلى المدرسة، الثانية عن موت جدتي وأنا كبير، كنت مراهقًا وقتئذ، يعني كنت رايح جاي في ذاكرتي بدون تخطيط، يعني أنا كنت مثل واحد لا يجد موضوعًا للكتابة ويحاول أن يسلي وقته، الحقيقة.. حالتي لم تكن على ما يرام أثناء كتابتها، كنت «مرضان»..

(لكن نذكر أنك كنت تقول لنا دائمًا إنه لو وجد موضوع فلن يكون رواية.. يعني عندك ما يشبه القرار الداخلي بعدم الدخول في رواية بالمفهوم السابق.

نعم – لو وجدت موضوعًا الآن لرواية، لن أقدر عليه، استمرارية الرواية، والربط بين أولها وآخرها، لن أستطيع، الرواية عاوزه قعدة، نعم.. عندي الرغبة في الكتابة، لم تخفت ولم تهمد كما حدث قبل أولاد حارتنا، في شهر يناير الماضي أنهيت كتابة اثنين وعشرين قصة قصيرة، لم أنشر إلا واحدة منها وهي «حديقة الورد».. ما تزال عندي الرغبة قوية، ولكن من ناحية أخرى لا يوجد موضوع رواية الآن.. ولا يبدو في الأفق...

(لماذا؟.. هل اختلفت علاقتك بالواقع؟).

أنا اعتدت أن أكتب عن المجتمع، لنأخذ مثلًا الانتهازي، كلما فكرت فيه رأيت صورة محجوب عبد الدايم، قلت لنفسي.. ما أنا كتبت عنه، المجتمع بالنسبة لي لم يقدم أشياء جديدة جوهرية، ما جد في المجتمع نوعية الانتهازية، أصبحت الرشوة بالملايين بدلًا من علاوة.

(إننا نعتبر محجوب بريئًا بالقياس إلى ما يجري الآن، لقد كان يسعى إلى الصعود في مجتمع شديد الطبقية.. ولكن السعي إلى الصعود الآن مختلف..).

من وجهة نظري الجوهر واحد، هو السعي إلى الصعود بالانحراف.

ويصمت نجيب محفوظ قليلًا، ونعود إلى الحديث عن أصداء السيرة الذاتية.

الحكمـة

(نقول لنجيب محفوظ إن العمل الجديد فيه قدر كبير من الحكمة، حكمة كونية، وخلاصة التجربة الإنسانية.. ويصغي إلينا متواضعًا كعادته عندما يصغي إلى الثناء

مرددًا آه.. آه، أو مومئًا برأسه.. ونسأل، هل كان ذلك مقصودًا أم هو نوع من الحديث مع الذات؟).

طبعًا أتكلم مع نفسي، واحد في سني عندما يكتب الآن، تكون وراءه تجربة هذا العمر الطويل، وما اكتسبه من خبرات، طبعًا الأمر يختلف عما أكتبه في العشرينيات...

(نلاحظ أن هناك همًّا طاغيًّا حول الموت..).

آه.. هذا صحيح...

(والجنس أيضًا...).

وإيه؟

(والجنس؟).

(نعم.. الجنس...).

(يمكن..).

(وتجلجل ضحكته الصافية، وهنا نذكره بما تحتويه مكتبته، رغم أن عدد الكتب التي يحتفظ بها قليل، ولكن نلاحظ أن الأدب الفارسي يحتل فيها موقعًا هامًّا، عندما دخلنا بيته يوم حصوله على جائزة نوبل كان ديوان حافظ الشيرازي مفتوحًا فوق مكتبه. هل يمكن القول إنه تأثر بالأدب الفارسي.. خاصة أنه يمكن رصد تعبيرات رمزية، صوفية تذكرنا بالشعر الفارسي...).

آه.. لا شك أن أحب شاعر إلى نفسي هو حافظ الشيرازي،وقد أوردت شعرًا له في ملحمة الحرافيش، ومن سعدي أيضًا.

(ونقول له إن القراء يقرءون لأول مرة عملًا أدبيًّا له على أنه هو بطله. يوافقنا نجيب محفوظ على ذلك، ونعود لنذكره بما قاله من قبل إنه لن يكتب سيرته الذاتية.. ويقول..).

فما يتعلق بالسيرة الذاتية أمليتها على جمال وصدرت في (نجيب محفوظ يتذكر)، أما الجانب الفكري والعقلي فأعطيته إلى رجاء النقاش، وعلى ما أعتقد سوف يصدر كتابه عن الأهرام في ديسمبر المقبل، هناك فتافيت ومناطق لا أسئلة جمال تناولتها، ولا أسئلة رجاء حامت حولها، إذن.. قلت أكتبها أنا، إذن فأصداء السيرة الذاتية مكملة للعملين، بمعنى أن من يريد أن يعرف عني.. فعليه قراءة هذه الأعمال الثلاثة. (نجيب محفوظ يتذكر) وكتاب رجاء.. والأصداء.

(ألست معنا أن العنوان ظلم العمل.. إن كلمة أصداء لا تدل عليه تمامًا..).

في الحقيقة سبب لي ذلك نوعًا من الحيرة، لقد وجدت أن كلمة (تأملات) كبيرة على العمل، هو أنا ديكارت يعني؟.. ثم إن هذه ليست سيرة ذاتية صريحة، لكن أصداء...

(نقول للأستاذ نجيب إنها السيرة الأولى ربما من نوعها في الأدب العالمي؟).

ويبتسم ابتسامة هادئة.

(هل كان لديك الوعي أنك تقف على ناحية الشعر والنثر وأنت تكتب أصداء السيرة؟).

ربما، لقد حيرني هذا العمل، أنظر إليه فلا أجده قصة، ولا رواية، ولا شعرًا، ما هذا؟ تلك الحيرة وراء خوفي من الإقدام على النشر.

(هل ما زلت تشعر بالخوف يا أستاذ نجيب؟).

نعم.. أصعب شيء بالنسبة لي مواجهة القارئ، لقد مرت عليَّ لحظات كدت أمزق فيها أصداء السيرة.

(لا نستطيع أن نتخيل ذلك.. أي خسارة للأدب العربي كانت ستحدث؟).

يهز رأسه صامتًا.

(قلت لنا إن الأدب يتجه إلى النصوص، يعني لا يمكن تحديده قصة، شعر، رواية.. هل ينطبق ذلك على أصداء السيرة؟).

إلى حد كبير..

(هل أنت مؤمن بدور اللاشعور في الإبداع الأدبي؟).

إنه أقوى عامل، بالطبع يلعب اللاشعور دورًا كبيرًا، وهناك من يحاولون الاستسلام الكامل له وإلغاء العقل، لكن اللاوعي لا يغيب عن المبدع.

(لدينا انطباع أن قراءاتك قلت جدًّا في الفترة الأخيرة.

ولكن أصداء السيرة الذاتية تؤكد أنك مطلع تمامًا على آخر ما يكتب من قصيدة النثر، والشعر الحديث وتجارب الأدباء الجدد..).

يقول نجيب محفوظ إنه توقف تقريبًا عن القراءة عام ثمانية وثمانين، لقد قرأت الأجيال كلها، يوسف إدريس، وأمل دنقل، والقعيد، والبساطي، والورداني، وأبو رية، لكنني لم أقرأ قصيدة النثر.. إذا وجد نوع من التشابه فلنقل إذن إنها حالة عامة.

(يا أستاذ نجيب.. لقد علمتنا الكثير.. الكثير جدًّا من أصداء السيرة الذاتية).

وتجلجل ضحكته الصافية التي تتلألأ فوق تموجات النيل، ثم يقول:

(يا جماعة.. قولوا حاجة غير كده..).

أغسطس 2001

فـرح بـوت

مجلس المليون

جرى ذلك مساء الثلاثاء قبل الماضي، عدت إلى البيت في الحادية عشرة مساء، بعد انتهاء جلستنا الأسبوعية مع أستاذنا نجيب محفوظ، ذلك الموعد لم نخلفه منذ صيف عام سبعة وستين من القرن الماضي، كنت مهمومًا بما سمعته وأفكر في أطراف عديدة، لي بها صلة وثيقة.

من نجيب محفوظ علمنا أنه يمر بحالة من التوتر، إذ جاءه الناشر إبراهيم المعلم منذ يومين وعرض عليه شراء أعماله كلها لنشرها بالطرق الحديثة، بالأسطوانات

المدمجة وعبر شبكة الاتصالات الدولية، وطرق أخرى لم أستوعبها جيدًا، قال إن إبراهيم المعلم عرض عليه مبلغًا ضخمًا يعد سابقة في تاريخ النشر والناشرين، مليون جنيه تدفع كاملة، ودفعة واحدة.

ارتفعت أصواتنا بالاستحسان، ثم انتبهت إلى ضيق الأستاذ وهمه البادي، استفسرنا عن السبب، قال إنه بعد أن وافق تذكر أنه وقع عقدًا عن طريق ناشره التاريخي صلاح السحار الذي صحب معه صديقًا له يعمل مع مؤسسة في أبو ظبي.

– أبو ظبي؟ من بالضبط في أبو ظبي يا أستاذ نجيب...

قال الأستاذ نجيب بعد تفكير قليل..

– مشروع في القرية الإلكترونية..

أدركت على الفور ماذا يقصد.

– لا يا أستاذ نجيب، المشروع نفسه اسمه القرية الإلكترونية، ومؤسسه واحد من خيرة المثقفين العرب، الشاعر محمد السويدي..

وافقني جميع الحضور، فكل منهم ملم، عليم، بجهود محمد السويدي في خدمة الثقافة العربية. بدءًا من النشاط الثقافي المتميز الذي يشهده المجمع الثقافي، والذي وصفه بجدارة على خريطة الثقافة العربية، إلى المشروعات الرائدة، مثل وضع الشعر العربي على شبكة الإنترنت، وإتاحته للقراء في العالم كله، وقد تجاوز عدد الأدبيات المتاحة حتى الآن مليوني بيت من الشعر، إضافة إلى مشروع إنشاء موقع لمؤلفات الأدب العربي القديم يتيح المصادر الأساسية للقراء والمتعاملين مع الشبكة، وبين هذه المصادر مؤلفات يتجاوز عدد صفحاتها العشرين ألف مثل الأغاني للأصبهاني، وسير أعلام النبلاء، وكتب التراجم والقواميس الضخمة، وكنت أعلم إقدام محمد السويدي في صمت وبدون ضجيج إعلامي على تمويل مشاريع ثقافية هامة، أحجمت عنها مؤسسات رسمية، منها على سبيل المثال طبع المجلدات الثلاثة الضخمة للدكتور ثروت عكاشة عن فنون عصر النهضة، لا يمكن لمثقف مثل محمد السويدي إلا أن يسعى لما فيه خير نجيب محفوظ، ولا بد أن التعاقد تم بعيدًا عنه، كان المبلغ الذي اتفق عليه الناشر محدودًا جدًّا بالنسبة لعرض إبراهيم المعلم، إذ يقضي بدفع ستة وسبعين ألف جنيه وخمسمائة جنيه عن مجمل الأعمال، وهذا رقم متواضع بالنسبة لإنتاج أديب في حجم نجيب محفوظ، سواء من حيث الكيف أو من حيث الكم.

شعرت أن العقد ظلم نجيب محفوظ من ناحية، ومن ناحية أخرى ذكر صديق لنا في الجلسة أن البعض بدأ يحاول إثارة الموضوع إعلاميًّا، وهنا نشأ عندي سبب آخر للضيق، إذ لو أثير هذا الموضوع إعلاميًّا، فسيجد الصديق الشاعر محمد السويدي نفسه في موقع لم يتخيله، ولم يتصوره، سيضطر هو أو مساعدوه إلى التوضيح، والحديث في وطننا العربي عن أمور الحقوق المالية للأدباء أمر محفوف بحساسيات عديدة، فما البال إذا كان هذا الأديب هو نجيب محفوظ؟

في ساعة متأخرة من الليل وبعد تردد، بدأت اتصالاتي لأحصل على رقم هاتف الشاعر محمد السويدي في لندن حيث يقضي إجازته، أخيرًا نجحت في الاتصال

بسكرتيره الخاص الأخ بدر في أبو ظبي، إنني أكره رنين الهواتف الليلية، سواء عندي أو لدى صحبي وأصدقائي، لا ألجأ إلى ذلك إلا لضرورة قصوى، لحسن الحظ لم يكن بدر قد استغرق في النوم بعد، طلبت منه إبلاغ الصديق محمد السويدي في لندن ضرورة الاتصال بي لأمر هام، طلب مني بدر أن ألمح له بشيء ما على الأقل.

– بخصوص نجيب محفوظ...

لا أدري كيف تمت الاتصالات بهذه السرعة، في أقل من دقيقة كان جرس الهاتف يرن، وصوت الصديق محمد السويدي يأتيني عبر المسافات القصية، قصصت عليه ما جرى، وذكرت له انطباعي ورأيي، جاءني صوته الهادئ وهو يقول على الفور، إنه أقدم على هذا المشروع من منطلق الحب في نجيب محفوظ، وإن الموقع الذي تم إنشاؤه بالفعل منذ سبعة شهور على شبكة الاتصالات الدولية يقدم الخدمة بالمجان على جميع مستوياتها من أجل نشر أعمال محفوظ على أوسع نطاق، وأضاف محمد السويدي...

– ومن منطلق المحبة لمحفوظ، إذا توافر الآن عرض آخر يحقق فائدة مادية أفضل للكاتب الكبير، فإنني أول من يرحب به، إنني سوف أتنازل فورًا عن العقد المبرم لحساب القرية الإلكترونية إذا توافر شرط الجدية عند أصحاب العرض الجديد.

– هل يمكنني أن أنشر تصريحك هذا في جريدة «أخبار الأدب»؟

– طبعًا.. وبكل سرور..

شكرته بحرارة، عندما ذكر اسم محمد السويدي، قال الشاعر عبد الرحمن الأبنودي، إنه يعرف الرجل مثل نفسه، وإنه أقدم على هذا المشروع من منطلق ثقافي نقي، ولن يكون عائقًا أمام وضع جديد يحقق مصلحة نجيب محفوظ. أكد على ذلك يوسف القعيد، ورحنا نتنافس في الحديث عن محمد السويدي، كما عرفه كل منا. وها هو يؤكد بموقفه الجديد نزاهة قصده في الماضي والمستقبل.

في اليوم التالي، في ساعة مبكرة، اتصلت بالمهندس إبراهيم المعلم مدير دار الشروق، قلت له إنني سأمر عليه في الواحدة ظهرًا بمكتبه، حاول أن يستفسر مني، لماذا وما سبب هذه العجلة، مع أننا نحاول أن ندبر لقاء يجمعنا منذ عدة شهور، لكن مشاغل كل منا جعلت علاقتنا عبر الهاتف، مثل علاقات أخرى حميمة، فالحركة الآن أقل، وعملي الصحفي يستغرق وقتًا ليس بالهين.

– هل أنت جاد في مسألة العقد الخاص بنجيب محفوظ؟

قال لي إبراهيم المعلم وهو يتطلع إليَّ عبر مكتبه:

– طبعًا.. لكن..

رفعت يدي مؤكدًا..

– إذا كنت تقصد العقد الذي سعى فيه البعض وهي القرية الإلكترونية فلن يمثل هذا عقبة...

أبدى دهشـة..

– كيف؟

رويت له ما جرى مع الصديق محمد السويدي، وقلت له إن الجميع الآن متفقون على مصلحة نجيب محفوظ: المهم، جدية العقد الجديد.

ضغط إبراهيم المعلم مفتاح الجرس، جاءت مديرة مكتبه، قال:

– من فضلك المظروف الذي يحتوي على العقد الخاص بالأستاذ نجيب محفوظ...

ثم أخرج من جيبه دفتر الشيكات، وعلى الآلة الكاتبة، كتب سطورًا قليلة.

ادفعوا لأمر السيد نجيب محفوظ عبد العزيز

مبلغًا وقدرة مليون جنيه فقط لا غير.

كان الشيك مسحوبًا على بنك الصادرات بالقاهرة، وهذا أول شيك بمليون جنيه أراه في حياتي، صحيح أن رقم المليون الآن أصبح عاديًّا، وقبل نصف قرن، قبل ثورة يوليو لم يكن هناك إلا شخص واحد في مصر كلها تقدر قيمة ثروته ..... جنيه، وهو أحمد عبود باشا، الآن تقدر ثروات البعض في مصر بالمليارات، ومن السهل أن أنطق لفظ مليار، لكن صعب جدًّا أن أتخيله، وبالنسبة لي المليون أيضًا، وإن كان المليون كما ذكرت أصبح مبلغًا عاديًّا جدًّا في عالم الأعمال بمصر...

قال إبراهيم المعلم:

– إنني جاهز للذهاب في أي وقت تحدده إلى الأستاذ نجيب بحيث يتم توقيع العقد وتسليمه الشيك بعد فسخ العقد الأول..

– اقترح أن يكون ذلك يوم الثلاثاء القادم، في موعدنا الأسبوعي..

– موافق...

صباح الخميس، اتصلت بالشاعر الرقيق والصديق النبيل محمد السويدي في لندن، أبلغته جدية إبراهيم المعلم واستعداده، في نفس الصباح اتصل بالصديق محمود خضر، المستشار القانوني له، كلفه أن يسافر إلى القاهرة، وأن يتخذ من الإجراءات كل ما يراه مناسبًا لتحقيق مصلحة نجيب محفوظ وبدون الرجوع إليه في أي تفاصيل.

الثلاثاء، موعد اللقاء الأسبوعي، أغادر مكتبي عادة في الخامسة والنصف، وصل الصديق محمود خضر، اتجهنا إلى العوامة (فرح بوت) الراسية في النيل عند الجيزة، كان إبراهيم المعلم قد سبقنا، تم كل شيء في مناخ يفيض بالمحبة لمحفوظ، وبمثالية رائعة، مصدرها ذلك النبل النادر لمحمد السويدي، وجدية وطموح ناشر مخضرم ضرب مثلًا يحتذى لكيفية العلاقة بين المبدعين والناشرين، وهكذا دخل مليون جنيه إلى حساب الأستاذ نجيب مقابل أعماله التي أنجزها في سبعين عامًا، وهذا أول مليون جنيه أسمع عنها وأراها، وأثق تمامًا أنها نتيجة جهد حلال تمامًا، إنه مليون محفوظ.

إصـدارات المـؤلـف

1 – أوراق شاب عاش منذ ألف عام.. مجموعة قصصية.
2 – أرض.. أرض.. مجموعة قصصية.
3 – الزويل.. رواية.
4 – الزيني بركات.. رواية.
5 – وقائع حارة الزعفراني.. رواية.
6 – الحصار من ثلاث جهات.. مجموعة قصصية.
7 – حكايات الغريب.. مجموعة قصصية.
8 – ذكر ما جرى.. مجموعة قصصية.
9 – الرفاعي.. رواية.
10 – خطط الغيطاني.. رواية.
11 – كتاب التجليات (السفر الأول).. رواية.
12 – كتاب التجليات (السفر الثاني).. رواية.
13 – كتاب التجليات (السفر الثالث).. رواية.
14 – إتحاف الزمان بحكاية جلبي السلطان.. مجموعة قصصية.
15 – رسالة في الصبابة والوجد.. رواية.
16 – رسالة البصائر في المصائر.. رواية.
17 – شطح المدينة.. رواية.
18 – هاتف المغيب.. رواية.
19 – ثمار الوقت.. مجموعة قصصية.
20 – أسفار المشتاق.. أدب رحلات.
21 – منتصف ليل الغربة.. مختارات قصصية.
22 – أحراش المدينة.. مختارات قصصية.
23 – المصريون والحرب من صدمة يونيو إلى يقظة أكتوبر.. دراسات ومشاهدات
24 –حراس البوابة الشرقية (الجيش العراقي في حرب أكتوبر).. دراسات ومشاهدات.
25 – نجيب محفوظ يتذكر.
26 – مصطفى أمين يتذكر.
27 – توفيق الحكيم يتذكر.

28 – ملامح القاهرة في ألف عام.
29 – أسبلة القاهرة.
30 – مقامات بديع الزمان الهمذاني (تحقيق الإمام الشيخ محمد عبده).
31 – شطف النار.. مجموعة قصصية.
32 – مختارات أبي حيان التوحيدي.
33 – مطربة الغروب.. مجموعة قصصية.
34 – سفر البُنيان.. رواية.
35 – حكايات المؤسسة.. رواية.
36 – الخطوط الفاصلة.. ترجمة ذاتية.
37 – خلسات الكرى (دفتر التدوين الأول).
38 – دنا فتدلى (دفتر التدوين الثاني).
39 – رشحات الحمراء (دفتر التدوين الثالث).
40 – نوافذ النوافذ (دفتر التدوين الرابع).
41 – نثار المحور (دفتر التدوين الخامس).
42 – «رنّ» (دفتر التدوين السادس).
43 – دفتر الإقامة (دفتر التدوين السابع).
44 – من دفتر العشق والغربة.
45 – متـون الأهرام.
46 – حكاية الخبيئـة.
47 – يومياتي المعلنة.
48 – المجالس المحفوظية.
49 – يوميات الحصر.
50 – آفاق الذاكرة.
51 – قوت العيون.
52 – حمام الحمى.. يوميات الحج.
53 – الطريق إلى الجهات الأصلية.
54 – مجرات الروح.
55 – مقاربة الأبد.
56 – ملامح القاهرة في ألف سنة.
57 – مقاصد الأسفار.
58 – مدينة الغرباء.

59 – تجليات مصرية «جولات في القاهرة القديمة» قصائد الحجر.
60 – ساعات «مجموعة قصصية» 2009.
61 – نزول النقطة – الاستمرارية والانقطاع في الثقافة المصرية.
62 – الأزرق والأبيض.
63 – يمام.

جوائز

- جائزة الدولة التشجيعية للرواية عام 1980.
- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى.
- وسام الاستحقاق الفرنسي من طبقة فارس 1987.
- جائزة الصداقة العربية - الفرنسية للرواية 1992.
- جائزة لوربتايون لأفضل عمل روائي مُترجم إلى الفرنسية 2002.
- جائزة جرازياني كافور - إيطاليا 2004.
- جائزة سلطان العويس للرواية 1997.
- جائزة الدولة التقديرية للرواية 2008.
- جائزة الرواية العربية - فرنسا 2005.
- جائزة الشيخ زايد للرواية - 2010.
- وسام العلوم والآداب من درجة ضابط 2014.

حاشية

[1] (1) بدءًا من هذا الوقت وحتى الآن تتم لقاءاتنا في نفس العوامة.

لأول مرة نجلس في الطابق الأسفل بالعوامة، غرفة على الطراز الإنجليزي، أصدر «العمدة» المهندس عماد العبودي -هكذا سماه الأستاذ- تعليماته إلى الإدارة لإعدادها لاستقبالنا، المقاعد جلدية وثيرة، الجدران مغطاة بالخشب.

بدأ الحديث حول الإرهاب، وما يثار عن حل حزب العمل، وإغلاق جريدة الشعب.

قال: رأيي أن المزيد من الديمقراطية فيه علاج للموقف، من يحمل السلاح في المناخ الديمقراطي يجب أن يقف الجميع ضده، لكن الإغلاق والمصادرة سيزيدان الوضع سوءًا.

تحدثنا عن العدالة الاجتماعية، عن ضرورة توافر الأمل في المجتمع، عن البطالة، عن هيبة الدولة، تحدثنا عن أمور أخرى...

ذات ثلاثاء- 1995

قال: رأيت محمد عبد الوهاب مرتين، الأولى في الثلاثينيات، كنت عائدًا من مدينة الملاهي الضخمة التي أقيمت مكان ميدان سفنكس الآن بالمهندسين، كانت مدينة فسيحة جدًّا، متنوعة، ولا أذكر أنني رأيت أضخم منها. في الترامواي أثناء عودتي ركب محمد عبد الوهاب من الزمالك، قلت له:

«مساء الخير يا أستاذ...»

قال باختصار:

«أهلًا...»

جلس في الركن مرتديًا طربوشه، وكنت مسرورًا برؤيته لأنني أعشق صوته «الطِّعِم»، لكننا لم نتبادل كلمة واحدة. في الستينيات دعيت إلى بيت الدكتور مصطفى محمود، قابلته على الغداء، ولم نتبادل أيضًا إلا كلمات محدودة.

ذات ثلاثاء- 1997

قال: لو أن الجبهة الإسلامية حكمت في الجزائر نتيجة الانتخابات التي تمت، لو أنها وصلت إلى الحكم نتيجة هذه الانتخابات لما جرى ما جرى في الجزائر، لكن التدخل ضد الانتخابات التي شهد الغرب بنزاهتها أدى إلى المآسي التي حدثت.

قال القعيد: لكنهم لو وصلوا إلى الحكم لن يسمحوا بالديمقراطية..

قال: لا أجد أي تبرير لإلغاء نتائج الانتخابات بالقوة.. النتائج أفظع كما ترى..

ذات مساء- صيف1993

عند عودتنا إلى الجلسة بعد ذهابنا إلى قضاء الحاجة بدورة المياه توقف فجأة ليسألني:

«هوّ القعيد ما جاش ليه الليلة؟».

قلت: «لازم عنده مشاغل..».

ضحك قائلًا:

«ولاّ يكون راح لنجيب محفوظ!...».

وانفجرت ضاحكًا بالطبع.

الثلاثاء- صيف 1998

قال: رغم كراهيتنا العميقة للاستعمار الإنجليزي ومقاومتنا له، فقد كنا نجد منهم بعض المواقف التي تثير الإعجاب. حدث في قضية مقتل السير لي ستاك السردار، أن قام صحفي مصري بمهاجمة المتهمين المصريين، القاضي الإنجليزي أبدى استياءه لذلك، تساءل مستنكرًا: كيف يتم مهاجمة متهم لا يستطيع الدفاع عن نفسه؟

الثلاثاء- صيف 1998

من الأخبار التي يصغى إليها باهتمام: اختلاسات المال العام، وهروب بعض رجال الأعمال بالمليارات التي اقترضوها من البنوك. قال بعد فترة صمت من حديث اتصل حول هذه الاختلاسات: إن الواقع تغير كثيرًا. قال: إن موظفًا في الجامعة اختلس خمسة جنيهات عام ثمانية وثلاثين من القرن الماضي عندما كنت أعمل موظفًا في الجامعة، هذا الموظف لحقه العار حتى إحالته إلى المعاش، وما زلت أذكر اسمه باعتباره عمل عملة «منيلة»، كل ده علشان.. خمسة جنيه سرقهم!

قلت ضاحكًا: دا كان زمان.. زمان قوي.

أبدى تعجبًا...

تحقيق

أغسطس1991

كنت موظفًا بالأوقاف عندما نُشر مقال يتضمن عرضًا لرواية «فضيحة في القاهرة» بمجلة آخر ساعة، سرد الكاتب أحداث الرواية ولم يفصح عن كونها رواية إلا في آخر سطر. فوجئت باستدعائي لمقابلة وكيل الوزارة، كان الشيخ أحمد حسين شقيق الدكتور طه حسين، سألني عن الأحداث التي أشار الكاتب في آخر ساعة، قلت له إنها رواية، وإنها وقائع خيالية لا تقصد أشخاصًا معينين. ثم سألني:

«هل أنت تلميذ الشيخ طه حسين؟»

أجبته أنني درست الفلسفة في كلية الآداب، وأنني أعتبر نفسي تلميذًا له، عندئذ بدا الشيخ أحمد رقيقًا معي، قال:

«لماذا تكتب عن فضائح الباشوات وتعرّض نفسك للمشاكل.. اكتب عن الحب أفضل وأكثر أمنًا..»

تطلعت إليه ولم أجب، ثم حفظ التحقيق.

تيمور والبلاميطي سبتمبر 1992

عندما صدرت روايتي «رادوبيس» سنة ثلاثة وأربعين عن لجنة النشر للجامعيين، أهديتها لكثيرين، مَن ردوا عليّ شاكرين كانوا أربعة فقط: محمود تيمور، أحمد باكثير، زكي طليمات، وعادل كامل أمد الله في عمره، ودعاني محمود تيمور إلى

غداء في مطعم علي حسن القريب من ميدان الأوبرا، وكان معنا زكي طليمات، كان صديقًا لتيمور، وكان ذا شهية مفتوحة مكَّنَتْه من أكل مطعم علي حسن بما فيه.

كان تيمور نبيلًا، والده أحمد تيمور باشا العالم المعروف والباحث الكبير، ولكنه كان يميل إلى معايشة أبناء البلد، عرف عنه حبه لمطربة جديدة وقتئذ اسمها ملك، وكانت خنفاء قليلًا، تدخل إلى المسرح تحمل معزة، وكنا نتساءل: من يغني فيهما؟ هي أم المعزة؟

«نضحك من قلوبنا، ويضحك معنا ثم يكمل...».

كانت قصصه رائدة، تمهد الطريق. كان يحب الكتابة عن الشوارع وأبناء الطريق، غير أن رؤيته كانت نظرة سائح عابر. في صباح أحد الأيام ذهبت إلى مقهى الفيشاوي مبكرًا، كان المقهى في ساعات الصباح جميلًا، هادئًا، وجدت محمود تيمور يجلس إلى مكوجي رجل اسمه البلاميطي، وكان البلاميطي ضخمًا، خشن الصوت، حافيًا، وكانا يفطران معًا فولًا وبصلًا أخضر، ويتحدثان كأنهما صديقان منذ أول العمر. لفت نظري نهم محمود تيمور في التهام البصل، اقتربت منه وسألته:

«مافيش مقابلات مع الملك النهار ده؟».

العقــاد

سبتمبر 1992

سألنا الأستاذ:

«هل عرفت العقاد؟».

يقول:

شخصيًّا لا.. في منتصف الأربعينيات كتبت مقالًا أرد فيه عليه ونشر في مجلة الرسالة، كان حول الفن الروائي الذي قلل العقاد من شأنه لحساب الشعر، لكننا لم نلتق قط. مرة واحدة رأيته، كنت أتردد على مكتبة الأنجلو أسبوعيًّا لشراء الكتب الجديدة الواردة من لندن. أثناء دخولي همس صبحي مديرها في أذني: العقاد هناك، هل ترغب في الحديث إليه؟

لكنني شكرت صبحي ومضيت أتأمل الكتب، لمحته يجلس إلى الكتب يقلب المجلدات أمامه، لم أحرص على الحديث إليه، أو حضور ندوته، لا أدري لماذا؟ كنت في حالي، وكان يعرفني إذ إنني كنت أنشر قصصًا في الصفحة الأدبية لجريدة الجهاد التي كان يشرف عليها، وكان صاحبها محمد توفيق دياب، وبلغني أنه قال عني «نجيب محفوظ ده كويس». وعرض أحد الأصدقاء أن يصحبني إلى ندوته لكنني لم أقبل، لكن حدث بعد أن تركت منصبي كرقيب للسينما أن اتصل بي في البيت وكان غاضبًا جدًّا، إذ بلغه أن مخرجًا وكاتبًا للسيناريو قدما قصة فيلم تتناول شخصه بالسخرية، وقلت له إنني لم أعد مسئولًا عن الرقابة وإننى تركت هذا الموقع لكنه استمرغاضبًا متسائلًا عن كيفية السماح بهذا الفيلم، وعندما وجدت أنه لا يستطيع الاقتناع بأنني تركت الرقابة، قلت له إنني سوف أتحدث إلى الرقيب الذي خلفني، وتحدثت بالفعل، وعلمت أن الفيلم لم ينفذ.

الرافـع-ي

أكتوبر 1992

أسأله: هل قرأت لمصطفى صادق الرافعي؟

يهز رأسه: لا..

ثم يسألني: هل قرأته أنت؟

أجيب: نعم..

يسألني: كيف وجدته؟

أقول إنه حالة فريدة في النثر العربي، وإن لغته أصيلة ذات حداثة خاصة، ورصانة.

يقول: أذكر أن طه حسين كان معجبًا به، خاصة بكتابه إعجاز القرآن. ثم يقول: إذا كان نثره كما تقول فخسارة أنني لم أقرأه..

أسأله من جديد عن السبب، يقول إن الصحف التي اعتاد قراءتها كانت تهاجم الرافعي دائمًا.

يصمت قليلًا ثم يقول:

كان الرافعي يعيش في طنطا، كان عصاميًّا، كاتبًا في محكمة، وكان سليط اللسان.

أحدثه عن كتابه في هجاء العقاد «على السفود»، قرأ المرحوم الشيخ أمين الخولي بعضًا من فصوله علينا في ندوة الأمناء، كان ذلك عام ثلاثة وستين بعد معركة حادة نشبت بينه وبين العقاد على صفحات جريدة «الأخبار»، ومن باب النكاية فيما يبدو قرأ علينا الشيخ الخولي فصولًا أعتبرها من أفظع ما عرفت في الهجاء. يسأل الأستاذ:

«لا يا شيخ؟».

أقول :

«نعم..».

طـه حسين

ديسمبر 1992

نسأله: هل عرفت طه حسين؟

يقول إنه قرأ له قبل دخوله الجامعة، والتقى به شخصيًّا مرتين، الأولى عند التحاقه بكلية الآداب، وأثناء الاختبار الذي يجرى للمتقدمين فوجئ أن الممتحن هو طه حسين شخصيًّا. يقول الأستاذ:

سألني: لماذا اخترت قسم الفلسفة؟

بدأت الإجابة برغبتي في معرفة سر الكون وأسرار الوجود، أصغى إليّ جيدًا ثم قال ساخرًا: أنت جدير بالفلسفة فعلًا لأنك تقول كلامًا غير مفهوم.

أما المرة الثانية فكانت خلال الستينيات عندما تم تسجيل حلقة تليفزيونية معه، وأظنها الحلقة الوحيدة.

يصمت قليلًا ثم يقول:

«لم يكن طه حسين مفكرًا وأديبًا عظيمًا فقط، لكنه كان صاحب دور».

أول جنيه

ديسمبر 1992

يقول الأستاذ خلال حوار عن العائد المادي القليل للأبد:

«لم أرسل قصة للنشر وتوقعت مقابلها عائدًا ماديًّا قط، إلى أن اتصل بي أحد العاملين عند أحمد حسن الزيات وكان مشرفًا على الحسابات، قال إنني تسببت في تعطيل الميزانية، لماذا؟ لأنني لم أحضر لاستلام المكافأة، أي مكافأة؟ قال: الجنيه.. مقابل القصة المنشورة في مجلة الرواية.

كان هذا أول جنيه يدخل جيبي من الأدب، طرت فرحًا، وفي هذه الليلة دعوت شلة العباسية كلها إلى الكباب والكفتة وهصنا..».

أين المسودات

سألنا الأستاذ عن مخطوطة «أصداء السيرة الذاتية»، أجاب:

«أرسلتها إلى الأهرام..»

أبدينا انزعاجًا، كانت الأصداء قد نشرت مضطربة في الأهرام، حيث اختل ترتيبها وسقطت مقاطع عديدة لم تنشر، وظهرت فكرة إعادة النشر في «أخبار الأدب». قال:

«توجد صورة من المخطوطة..»

عدنا نسأل:

«لكن الأصل..؟».

قال إنه أرسله إلى الأهرام ولا يعرف مصيره.

في أمسية أخرى قال لنا إنه لم يعتد الاحتفاظ بمسوداته، كانت لديه أصول خطية لرواية عن لاعب كرة قدم، لا يعرف أين هي الآن، ورواية عن الريف لم تنشر، لكنه يذكر أن المخرج السينمائي خيري بشارة حصل عليها، ربما تكون المخطوطة عنده الآن، ربما.

في أمسية أخرى حدثنا عن الأصل الخطي للثلاثية، لم تكن الثلاثية إلا رواية واحدة عنوانها «بين القصرين»، وكانت تقع في حوالي ألف وثلاثمائة صفحة من قطع فولسكاب بخط نجيب محفوظ، وكانت نسخة وأحدة فقط. لم تكن آلات التصوير معروفة وقتئذ، وكان محفوظ يدفع إلى المطبعة عادة بأصول أعماله الخطية، ذهب إلى السحار بها، فوجئ بالناشر يقول له: ما هذه الداهية؟ كيف أنشرها؟

وخرج محفوظ إلى الشارع حزينًا، يكلم نفسه، تاركًا المخطوطة عند الناشر. بعد حوالي عام اتصل به يوسف السباعي، قال إنه سيصدر مجلة أدبية بعنوان «الرسالة الجديدة» وأنه يعرض على محفوظ إمكانية نشره رواية مسلسلة، عندئذ سارع محفوظ إلى السحار، ولحسن الحظ كان الرجل محتفظًا بالأصل الوحيد، استرده محفوظ وبدأ نشر بين القصرين مسلسلة، عندئذ اتصل به السحار وعرض عليه نشر الرواية

على ثلاثة أجزاء منفصلة. هكذا خرجت الثلاثية إلى الناس. غير أننا جميعًا تأخذنا رعدة عندما نتذكر، فقط مجرد تذكر، أن هذا العمل العظيم كان يمكن أن يضيع أو يفقد لسبب ما، أما الأصل الخطي لأصداء السيرة الذاتية فيعلم الله وحده أين استقر تمامًا مثل كافة الأصول التي لم يحتفظ بها.

الحرافيش أفضل

نسأل: أيهما أفضل أو أقرب إلى قلبك، الحرافيش أم رواية حديث الصباح والمساء؟

يجيب بعد لحيظات: الحرافيش.

ثم يقول بعد لحيظات أخرى:

«نعم الحرافيش.. ربما كانت حديث الصباح والمساء أهم، لكن أحيانًا الواحد يتأثر برأي الآخرين..».

حضـــــور!

بعد تعرضه للحادث الأليم لم يكتب، أصيبت اليد التي خطت للأدب العربي أروع القصص والروايات، نتيجة طعنة مطواة في العنق سددها إليه شاب مضلل غشيم لم يقرأ له حرفًا. يتلقى علاجًا طبيعيًّا بانتظام، يمكنه أن يوقع الآن باسمه، حروف غليظة غير منتظمة.

تنشر مجلة «نصف الدنيا» بانتظام له بعض القصص القصيرة.

كلما أعلنت المجلة عن قصة جديدة، سألناه مستبشرين:

«أهي مكتوبة حديثًا..؟».

يقول بحسرة:

«لا...».

«لا» ممدودة، حزينة، ثم يتابع:

«إنها من الرصيد... بين الحين والآخر أرسل قصة حتى يستمر الحضور..».

أتساءل: «هل يشغلك الحضور يا عم نجيب..؟».

يتطلع ثم يقول: يعني.

أعرف أنه لا يريد أن نواصل، حفظت ردود أفعاله، غير أنني أتساءل بيني وبين نفسي، أحقًّا هو مشغول بالحضور عند القراء بعد أن صار هو نفسه حضورًا مستمرًّا؟

المقالات الأولى

نوفمبر 1992

قلت له إنني عثرت على مقال مبكر كتبه قارئ من قراء مجلة الرسالة عن رواية «عبث الأقدار» بعد صدورها.

رفع رأسه محلقًا في الفراغ، هز رأسه.

«لا أذكره.. لكنني أتذكر أول مقال كتبه عني سيد قطب، وكان عن رواية كفاح

طيبة. هذا مقال ممتاز، تلته سنوات صمت حتى كتب أنور المعداوي مقالًا آخر، وأعقب ذلك سنوات من الصمت أيضًا. كان سيد قطب ناقدًا موهوبًا، ولولا اتجاهه المتطرف لأصبح أهم ناقد في مصر..».

أسأله عما إذا كان كُتب عنه فعلًا في «المرايا»؟

يقول على الفور:

«نعم.. بعض الأصدقاء اكتشفوا الأصول الحقيقية لشخصيات المرايا، لكنهم خلطوا للأسف بين عناصر الحقيقة والعناصر الروائية التي أضفتها من عندي. وأخذني هذا كثيرًا..».

أذكّره بأيام جلوسنا في مقهى عرابي بالعباسية في الستينيات، عندما حدثني عن نيته في استدعاء بعض الشخصيات التي عرفها في حياته والكتابة عنها، قال إنه ليس لديه موضوع محدد لكتابة رواية في هذا العام، إنها إحدى المرات القليلة جدًّا، النادرة، التي تحدث فيها عن عمل أدبي ينوي كتابته.

يتطلع إليّ، يهز رأسه، يطرق، نحترم صمته، ثم يقول:

«بعد خروج سيد قطب من السجن أول مرة، كان ذلك سنة أربع وستين، مضيت إلى بيته في حلوان لزيارته، دخلت إلى غرفة الاستقبال، وجدته جالسًا بين عدد من الذين لا أعرفهم، لحاهم طويلة، متجهمين، جاءني إحساس أنني في مأتم، أردت أن أخفف من الجو فأطلقت نكتة هادئة ومهذبة، تطلعوا إليَّ متجهمين، عندئذ أدركت أن سيد قطب الذي كنت أعرفه زمان، ليس هو الماثل أمامي، خرجت وغابت عني أخباره، حتى أعلن عن اعتقاله ومحاكمته وإعدامه..».

الديمقراطية

نوفمبر 1992

دار الحوار حول تصاعد الإرهاب، عن موقف حزب العمل، إشاعات تتردد حول إغلاق جريدة الشعب التي تؤازر الإرهاب. يقول محفوظ محتدًّا:

«مزيد من الديمقراطية فيه علاج للموقف، يجب أن نقف ضد إغلاق أي جريدة، أو حل أي حزب، لا تزال تجربتنا في بدايتها، وإذا تعمقت الديمقراطية فإن من يحمل السلاح يجب على الجميع أن يقفوا ضده..».

تحدثنا عن المجتمع، عن العدالة الاجتماعية، عن الشباب الذي يعاني البطالة، عن المناخ الذي يؤازر الإرهاب ويسانده بشكل غير مباشر، عن هيبة الدولة، مقارنة بين المجتمع المصري قبل ثورة يوليو 1952 وما بعدها. قال:

«الدولة قبل ثورة يوليو كان دورها مقصورًا على الأمن والدفاع، لكن بعد الثورة دخلت الدولة في كافة المجالات، في شتى أنحاء الحياة، وهذا وضع مغاير...».

أكثر من حوار، في مناسبات عديدة يبدو إيمانه بالديمقراطية مطلقًا لا يتزعزع.

حمـــام

ديسمبر 1992

يسألنا فجأة بعد صمت: تعرفوا مصطفى حمام الشاعر؟

يقول ضاحكًا:

«كان يكتب مقالات في جريدة وفدية صباحًا، وأخرى في المساء في جريدة ضد الوفد، كان يرد على نفسه تحت اسم مستعار، الطريف أن الطرفين كانا يعلمان بذلك..».

نضحك، أجمل الذكريات ما يطفو فجأة، ما يرويه باختصار وقدرة مدهشة على الحكي الذي ينتهي غالبًا بابتسامة.

نقـــد

ديسمبر 1993

قال الأستاذ:

«بعد صدور خان الخليلي، كتب أحدهم مقالًا من وجهة نظر دينية، مضمونه: كيف يصاب البطل بالسل بعد التجاء أحمد عاكف إلى سيدنا الحسين ابن بنت الرسول..»!

بطرس غالي

نوفمبر 1996

رغم هدوئه، فإن انفعاله يكون عاصفًا. بعد أن استمع إلى أخبار اعتراض أمريكا التي حملها يوسف القعيد على انتخاب بطرس غالي، قال على الفور:

«هذا تحدّ للعالم كله، وكشف لزيف الديمقراطية الأمريكية، إذا كان القوي يتصرف هكذا تجاه فَرد واحد، فكيف يكون العدل إذن؟! أقول لكم إن مصر انتصرت في المعركة. يكفي وقوف أربع عشرة دولة ضد الولايات المتحدة، إنه انتصار أكيد».

الثلاثاء، 20 نوفمبر 2001

قلت: ألا تفكر معي في الوضع الإنساني لبن لادن؟

أصغى جيدًا، من علامات اهتمامه، اقترابه من محدثه، وحلول علامات الاهتمام بملامحه. قلت: لا أظن أن إنسانًا في تاريخ البشرية طورد كما يطارد بن لادن الآن، إنها مطاردة كونية بأحدث وسائل العلم، وبكل القوى التي نتخيلها ضد فرد. إنني أفكر في أحواله، كيف يتحرك مع أسرته، مع زوجاته؟ كيف ينامون؟ كيف يختبئون في الجبل؟ نعم إنه إرهابي، ويطرح مفاهيم مغلوطة مثل تقسيمه المجنون للعالم إلى كفار ومؤمنين، لكن.. أنا أفكر فيه كإنسان لم يسبق أن طورد إنسان مثله...

بعد لحيظات صمت قال:

طبعًا معك حق، إن الضجة المثارة حاليًّا لا تسمح بهذه التأملات، لقد أساء الطالبان إلى الإسلام كما لم تفعل قوة من قبل، قدموا أسوأ نموذج لأسوأ حكم يمكن أن يعرفه العالم، ومع ذلك أرى أن احتمالهم هذا القصف المهول أمر يدعو إلى الإشفاق، كما أن إصرارهم على عدم تسليم بن لادن رغم كافة الإغراءات المادية والتهديدات الرهيبة إذا نظرت إليه مجددًا فستجد أنه موقف أخلاقي.

الثلاثاء، 28 نوفمبر2001

سألت: لماذ اخترت محور «الأحلام»؟ هل تشكل عملًا فسيفسائيًّا كبيرًا؟

قال: الحقيقة أنني منذ أن وهنت حواسي كأن ستارًا سميكًا ضرب حولي، حجز العالم عني، البصر لم يعد قادرًا على القراءة، السمع أصبح ثقيلًا، لا حديث في الهاتف، الثابت أو المحمول، لا فرجة على التليفزيون، متعة المشي لم أعد أمارسها، لم أعد أذهب إلى الحسين وألتقي بالناس وأجوس في أماكن الذكريات، عندما ينقطع الإنسان عن العالم ينظر إلى داخله، ويستعيد ما عايشه، يصبح الحلم بديلًا للواقع، أحلم بأحداث وقعت وأحداث لم تقع، أحلام بكتب قرأتها، وأشعار حفظتها، أما الأحلام التي أتذكرها فقد أصبحت زادًا ومعينًا.

أحيانًا أستيقظ فأجد أحلامًا رأيتها واضحة جدًّا، أدونها في نفس اليوم، إن مادة الحلم هشة جدًّا، أحيانًا يتذكرها الإنسان وسرعان ما ينساها، ما أكتبه تحت عنوان «أحلام فترة النقاهة» عبارة عن نصوص أحلام كما رأيتها، وشذرات من أحلام رأيتها وأضفت إليها، وأحلام متخيلة.

قلت: تذكرني اللغة في الأحلام بأصداء السيرة الذاتية، لغة أقرب إلى الشعر.

قال ضاحكًا: الأحلام نفسها شعر.

قلت: هل نشرت جميع ما لديك؟

قال: لا أنشر جميع ما أكتبه دفعة واحدة، إنما على فترات، حتى أظل موجودًا بالنسبة للناس، ما عندي من أحلام الآن يغطيني لعدة شهور.

أصمت متسائلًا مرة أخرى، هل ما زال الحضور يشغله، أعني الحضور بالجديد؟ إنه موجود بإبداعه وحضوره.

الثلاثاء: 27 أغسطس 2002

زلزال السبت الماضي يفرض وجوده على الأحاديث المتبادلة، أتذكر زلزال عام اثنين وتسعين، ما تركه من اكتئاب على جلستنا فيما عدا النكات التي تناقلناها وقتئذ، في مثل هذه الأحوال يحكي كل منا أين كان، وكيف شعر، وكيف تصرف، مجرد الحكي يعني مرور الحديث الخطير بسلام، ما دمنا نحكيه فقد نجونا، تحدثنا عن تكرار الزلزال في السنوات الأخيرة، قلت ضاحكًا:

«حتى الطبيعة غير راضية عن أوضاعنا..».

مركز الزلزال الأخير جديد علينا، كان تحت القاهرة تقريبًا، في أبو زعبل وقليوب، لذلك سمع القوم هدير انفجارات كونية صاحبت الزلزلة التي لم تستمر إلا خمسًا وعشرين ثانية، قال زكي سالم:

«قال البيان إن الهزة قوتها أربعة ونصف على مقياس ريختر، لكن أظن أنها أكثر..».

اتفقنا على أنها أكثر، حتى بيانات مرصد حلوان أصبح مشكوكًا فيها، غير أن الأستاذ فاجأنا بدعابته بعد طول إصغاء:

«عندما وقع الزلزال، كنت أجلس في الصالة، شعرت به بقوة، تطلعت إلى السقف منتظرًا سقوطه، وظهور الفنانة برلنتي عبد الحميد نازلة من فوق..».

برلنتي تسكن في نفس العمارة، في الطابق العلوي، ويسكن الأستاذ في الطابق الأسفل..».

الثلاثاء: سبتمبر2002

تحدثنا عن العمليات الجراحية وما يتعلق بها، قال:

«بعد أن أجريت العملية في لندن، سألني الطبيب الإنجليزي:

«نفسك في أكلة معينة؟».

قال:

«ما أشتهيه غير موجود هنا..».

سألني:

«ما هو؟..»

قال:

«الفول طبعًا..».

قال الطبيب باسمًا:

«الفول موجود بالقرب من المستشفى، وفي مطعم اسمه علي بابا».

وبالفعل أرسل الأستاذ وجاء الفول، وكانت أكلة ممتعة جدًّا.

قلت إن إدارة المستشفى بكليفلاند لاحظت أن معظم المصريين يشتاقون إلى أكل الفول بعد نجاح عمليات القلب التي يمرون بها، ولذلك أضافوا طبق الفول إلى المطعم الرئيسي في المستشفى في وجبة الإفطار، فول أصلي وبزيوت مختلفة، الزيت الحار، وزيت الزيتون، وزيت بذرة القطن، والكتان.

قلت إن الإنسان بعد مروره بالخطر يتعلق بالذاكرة، خاصة الطعام الذي اعتاد عليه، أو أحبه.

«الفول وجدته، لكن ما لم أجده في الولايات المتحدة العسل الأسود بطحينة..».

العسل الأسود بطحينة من الأكلات التي تفتق عنها ذهن الفقراء في مصر، وتعطي سعرات حرارية عالية، وتعد أشهى وجبة في السجون، خاصة مع الخبز البلدي عندما يكون ساخنًا.

الثلاثاء 3 سبتمبر 2002

أعود إلى علاقة الأستاذ بالعقاد، أرغب في استيضاحها أكثر، لماذا لم يذهب إلى ندوة العقاد الأسبوعية؟

يقول إنني لا أدري سببًا محددًا، لكنني كنت أعتبره قريبًا مني، فعلى يديه تعلمت المفاهيم المتقدمة عن الديمقراطية والليبرالية من خلال مقالاته التي كان يكتبها في «الجريدة»، وكنت أقرؤها في صدر شبابي. لفترة طويلة ظننت أنه كاتب سياسي فقط، ودهشت عندما قرأت له في الأدب.

وأسأله: لكنك رأيته في مكتبة الأنجلو ولم تفكر حتى في مصافحته.

قال: هذا حقيقي، ربما لأنني سمعت أن شخصيته كانت منفرة.

قلت: ولكن الأمر اختلف بالنسبة لطه حسين.

قال: التقيت به مرات عديدة، كان ذلك في الجامعة عندما حضرت دروسه في كلية الآداب، ثم زرته في بيته، أحيانًا بمفردي وأحيانًا مع المرحوم ثروت أباظة.

سألته عما إذا كان التقى بالشيخ أمين الخولي.

قال: درّس لي في الجامعة، لكن لم ألتق به شخصيًّا.

قلت إن الندوات التي عقدها منذ عام خمسة وأربعين كانت محورًا للحياة الأدبية والثقافية، ندوة الأوبرا بدأت عام خمسة وأربعين، واستمرت في مراحل مختلفة، وأماكن مختلفة حتى الآن، دائمًا نجيب محفوظ هو المركز، كثيرون يحيطون به، بعضهم يتحدث، بعضهم صامت، بعضهم ثابت، بعضهم يتغير، مجرد عابر، ولكن دائمًا نجيب محفوظ هو المحور، كيف بدأت العلاقة بالندوات خاصة ندوة الأوبرا؟

قال: قبل ندوة الأوبرا، لم تكن الحياة الأدبية تعرف الندوات الأدبية في المقاهي، كانت هناك الصالونات الأدبية، طبعًا صالون مي زيادة كان أشهرها، لكنني لم أعاصره، قرأت عنه فقط، أذكر أنني ذهبت إلى صالون كانت تديره سيدة من الأسر الثرية لكنني لم أتردد عليه مرة أخرى -حاول أن يتذكر اسمها لكن الذاكرة لم تستدع الاسم- لم أشعر بالراحة في أجواء الصالونات.

قلت: إذن.. كيف بدأت ندوة الأوبرا؟

ق.ال: حدث أن حصل خمسة أدباء على جوائز أدبية.

قلت: أي جوائز؟

ق.ال: إما مجمع اللغة العربية وإما وزارة المعارف العمومية.

قلت: أول جائزة حصلت عليها كانت جائزة «قوت القلوب الدمرداشية»، ثم جائزة مجمع اللغة العربية..

قال: بالنسبة لجائزة المجمع فقد حصلت عليها مع أربعة آخرين، عبد الحميد جودة السحار، علي أحمد باكثير، يوسف جوهر، وشاعر كان يكتب مثل طاغور وكان مستشارًا...

قلت: لعله حسين عفيف.

ق.ال: ربما.

ق.ال: اقترح عبد الحميد السحار إنشاء لجنة النشر للجامعيين وتبدأ بنشر الأعمال الفائزة، قبلنا جميعًا ما عدا يوسف جوهر الذي رفض فكرة النشر بدون مقابل، بدأنا نجتمع في مقهى عرابي، ولكن أصحاب المقهى قالوا لي إن الأدباء أصحابك مزعجون ويتحدثون كثيرًا وبصوت مرتفع، شوفوا لكم مكان تاني، هكذا ذهبنا إلى كازينو الأوبرا، وهناك بدأت لقاءاتنا الأسبوعية كل يوم جمعة منذ عام خمسة وأربعين واستمرت في نفس المكان إلى أن انتهت كما تعرف «يقصد وقف الأمن للندوة عام واحد وستين».

قلت إن الندوة كان لها فضل كبير على الحياة الثقافية بانتظامها وتردد مختلف الأجيال عليها، وبالنسبة لجيلنا فقد اختصرت المسافات بيننا، كان ممكنًا أن يتأخر لقائي بمحمد البساطي أو إبراهيم أصلان أو القعيد وغيرهم مسافات زمنية لا أعرف مداها لولا ندوة نجيب محفوظ التي سعت إليها أجيال مختلفة ولا تزال. كان للراحل توفيق الحكيم ندوة في فندق شبرد، وأخرى في الإسكندرية، لكن رواد الحكيم كانوا من الباشوات، وشخصيات المجتمع البارزة، وقلة من أدباء شباب تجرءوا على التردد، بالنسبة لي عندما قصدت مقهى بترو المطل على البحر المتوسط في صيف ستيني، كنت ماضيًا للقاء نجيب محفوظ الذي كان يجلس صامتًا معظم الوقت، بينما توفيق الحكيم يتدفق بالحديث، وكان حكواتيًّا عظيمًا، يتحدث كأنه يمثل، وتعبر يداه عما يقوله. سألت نجيب محفوظ عن كيفية تعرفه بالحكيم؟

قال: بعد ظهور رواية «زقاق المدق» طلب أن ألتقي به، وعندما انتظمت في ندوته الأسبوعية بالقاهرة واليومية بالإسكندرية خلال شهور الصيف، انزعج الباشوات السابقون من حضوري، كان منهم شمس الدين عبد الغفار، وبرهان نور، وطبعًا إبراهيم باشا فرج، وإبراهيم طلعت، قالوا للحكيم إنهم يخشون مني لأنني أكتب في الأهرام التي يرأسها محمد حسنين هيكل المقرب من جمال عبد الناصر زعيم الثورة، لكن الحكيم قال لهم: على ضمانتي! أذكر أن أحدهم سأل شمس الدين عبد الغفار، بعد طول صمته في القعدة: إنت بتفكر في إيه؟ قال مفزوعًا: أنا مش بافكر.. مش بافكر في أي حاجة!

يضحك الأستاذ ضحكته الصافية المجلجلة، بعد لحظات من الصمت يعود إلى الحديث.

قال: كان الحكيم يتحدث لفترات طويلة، لكن معظم أحاديثه شخصية، أي كنا نبدأ الحديث عن قضية أدبية، لكنه يتطرق منها إلى الشخص، يحدثنا عن والده، عن ذكرياته في شارع محمد علي، مرة سألته، قال إن آراءه النظرية موجودة في الكتب، من يرغب في معرفتها فليقرأها.

يكن الأستاذ لتوفيق الحكيم محبة خاصة. كان مكتب الحكيم في الطابق السادس مفتوحًا، لم أره مغلقًا قط، وفي سنواته الأخيرة كان يجلس بمفرده، حزينًا لفقد ابنه الوحيد إسماعيل. ويوم الخميس ينتقل نجيب محفوظ من مكتبه المجاور ليقعد أمام مكتب الحكيم، أحيانًا يظهر المرحوم ثروت أباظة، أو الدكتور زكي نجيب محمود، أو إحسان عبد القدوس، أو يوسف إدريس. بعد رحيل الحكيم خصصت إدارة الأهرام الحجرة لنجيب محفوظ، لكنه لم يجلس مكان الحكيم قط، دائمًا يقعد في نفس المكان الذي لزمه أمام المكتب، وظل كرسي توفيق الحكيم شاغرًا، وكأنه يتوقع وصوله.

في بيت الأستاذ صوان صغير للأوسمة والهدايا التذكارية العزيزة عليه لمنزلة من أهدوها إليه، رأيت قلم حبر أسود، قالت لي زوجته إنه يعتز به، لذلك وضعه بين الأوسمة التي حصل عليها. هذا القلم هدية من توفيق الحكيم. دائمًا يصف الأستاذ «عودة الروح» بأنها كانت فتحًا أدبيًّا بالنسبة للرواية العربية.

سأل الأديب زكي سالم عن صحة امتحان عُقد بترتيب من الأهرام لعدد من الأدباء وأشرف عليه العقاد، لكن جميعهم رسبوا فيه، كان الامتحان مخصصًا للغة العربية.

قطب الأستاذ جبينه وقال: لا أذكر مثل هذا الامتحان، الامتحان الذي أذكره أعلن عنه وأجراه أحد كبار الدبلوماسيين الإنجليز في السفارة البريطانية، كانت وظيفته تسمى السكرتير الشرقي على ما أظن، لا أذكر موضوع الامتحان، لكنني أذكر الجائزة، كانت قضاء شهر إجازة في بيت السكرتير الشرقي بالإسكندرية، أظن كان اسمه مستر سمارت، ومن نجح كان نائبًا عامًّا، وكان ينشر كتابات بأسلوب عربي رصين مثل الجاحظ، للأسف نسيت اسمه.

ويبدو أن الحديث عن وكيل النائب العام تداعى بحوارنا إلى القضاء المصري، قال:

«الحقيقة أن القضاء المصري كان مشرفًا جدًّا، أذكر شخصًا قتل مأمور مركز شرطة بالرصاص، والسبب أن المأمور أهان رجولته عندما وضع يد مقشة في مؤخرته أمام الناس، حكم على هذا الشخص بالإعدام، وعندما وصل الأمر إلى النقض حكم القاضي عليه بالسجن مدى الحياة بدلًا من الإعدام، لأن القتل كان نتيجة إهانة جسيمة.

سألت: هل تذكر اسم القاضي؟

قال: كان عبد العزيز فهمي، أحد أعظم قضاة مصر..

سأل يوسف القعيد: كيف تتلقى أخبار الفساد المعلن عنه الآن، القضية المضبوطة في وزارة الزراعة الآن، والذين هربوا بمليارات البنوك، ما موقعهم بالنسبة لما جرى من فساد في «فضيحة في القاهرة»؟

قال الأستاذ بهدوء: الفاسدون في الثلاثينيات والأربعينيات يبدون كقديسين بالنسبة للفاسدين الآن..

ثم قال: أذكر موظفًا في إدارة الجامعة اتُّهم باختلاس ثلاثة جنيهات، كنا ننظر إليه مثل مرتكب الكبيرة، وبعد الثورة خرج في التطهير..

بعد صمت، قال الأستاذ:

«يا سلام.. زمن..».

الثلاثاء: 10 سبتمبر 2002

يعشق الأستاذ نهر النيل، يفضل المشي إلى جواره، والجلوس إليه، النهر العتيق فيه خاصية فريدة، كأنه شخص يدرك ويستوعب ويجاوب، ربما لا يعرف كثيرون أنه أقام في النيل عندما كانت سكنى العوامات معروفة وقتئذ في القاهرة. عندما تزوج استأجر عوامة قرب كوبري الجلاء وأقام فيها أكثر من سنة، حدث أن أسرة تسكن العوامة المجاورة غرق طفلها، فأصرت زوجة الأستاذ التي أنجبت طفلتها الأولى أم كلثوم على الانتقال إلى مكان غير العوامة، وتم استئجار الشقة التي ما زالت الأسرة تقيم فيها حتى الآن بشارع النيل، منطقة العجوزة. سألت عن العلاقة بالنيل، قال:

«بدأت بصحبة الوالدة، كما كانت تصحبني لزيارة الآثار، كانت تصحبني للمشي بجوار النيل أو فوق الكباري، كوبري قصر النيل، كوبري أبو العلا. عندما كبرت كنت أحب المشي أو الجلوس إلى النيل، كنت أصحب معي وسادة صغيرة، أذهب

إلى حديقة دائرية أمام المنزل الذي سكنه أنور السادات عندما أصبح رئيسًا للجمهورية «الحديقة تحولت إلى مهبط لطائرة هيلوكبتر». كنت أجلس على حافة النيل بمفردي لعدة ساعات حتى منتصف الليل، أتأمل وأفكر، ثم أعود إلى العباسية بعد انتصاف الليل. في هذه الحديقة اجتمع الحرافيش القدامى لأول مرة، أطلقت عليها اسم الدائرة المشئومة.

أسأل: لماذا؟

يقول: لأننا كنا متشائمين تجاه مستقبل الأدب والقراءة. كنا نتناقش ونضحك، وفي إحدى الليالي جاء جندي شرطة يطلب منا خفض أصواتنا لأن يوسف رشاد طبيب الملك فاروق كان يسكن بالقرب من الحديقة الدائرية.

قال لي محفوظ:

المكان الذى يوحي إليّ بالتأمل، الذي اكتملت فيه مشاهد روايات عديدة، القرب من النيل، يكفي أن أشعر أنني إلى جواره حتى وإن لم أتطلع إليه.

قلت: كما نحن الآن.

قال: بالضبط!

الثلاثاء: 17 سبتمبر 2002

يتحفظ كثيرًا عندما نذكر أدباء آخرين، أو نسأله رأيه في أحدهم، يصغي حذرًا، ويجيب بجمل قصيرة، سألته عن الأدباء المجايلين له، خاصة الذين بدءوا مع لجنة النشر للجامعيين، مثل المرحوم محمد عبدالحليم عبد الله، يوسف السباعي، علي أحمد باكثير، عبد الحميد جودة السحار، إحسان عبد القدوس، كان سؤالي عن الفرق بين كاتب يحكي فقط، وكاتب آخر لديه رؤية شاملة للكون وللإنسان.

قال:

لا توجد علاقة حتمية بين ثقافة الأديب وأدبه، يعني من الممكن أن يكون موهوبًا وليس مثقفًا، شكسبير مثلًا لم يتعلم تعليمًا منتظمًا، لكنه قرأ ما أتيح له في عصره، وألمَّ بالحكايات الشائعة، لا بد أنه عرف المسرح الإغريقي، كثير من موضوعات مسرحياته كانت موجودة من قبل، لكن موهبته الخارقة جعلته يقدمها بشكل مغاير.

قلت:

بالتأكيد كانت لديه رؤية، لكن معظم الكتاب الذين كانوا مجايلين لك كانوا مجرد رواة لحكايات وقعت، مثلًا يوسف السباعي ومحمد عبد الحليم عبد الله وإحسان عبد القدوس وسعد مكاوي، كانوا فقط مجرد رواة لحكايات، ومثل هؤلاء قد تذيع أعمالهم لفترة محدودة، لكنها تتوارى بعد ذلك.

قال:

لماذا تقول إنها تتوارى، هل عندك فكرة عن أرقام التوزيع؟

قلت:

من خلال المعلومات المتوافرة لي، الوحيد الذي ما زالت كتبه تلقى رواجًا هو

إحسان عبد القدوس، ولكن الأسماء الأخرى ليست بالمثل.

قال:

أحقًّا؟

قلت:

نعم.

ولم يعلق، عاد إلى صمته.

الثلاثاء: 17 سبتمبر 2002

سألت:

– ذكرت في رواية «حديث الصباح والمساء» أسرة البنان، هل عرفت أحدًا من أفرادها؟

قال:

– طبعًا، كانوا من سكان درب قرمز، لكن خذ بالك، البنان جارنا غير البنان بتاع الحسينية، بنان درب قرمز كانوا أسرة قديمة تتاجر في البن.

قلت:

– إذن، البنان الذي أقصده منهم، عرفت اسم البنان من خلال قهوة فسيحة، مشهورة تقع على ناصيتي شارع حبس الرحبة وقصر الشوق، كانت تتكون من مستويين، الداخلي مرتفع قليلًا ورأيت فيه منضدة للبلياردو، لأول مرة في حياتي كنت أرى هذا النوع من المناضد، ولكنني لم أر أي شخص يلعب البلياردو، طبعًا عرفت اللعبة فيما بعد، ولم تكن منتشرة حتى الثمانينيات، كان هناك ناد للبلياردو فوق سينما ريفولي، ثم ظهرت اللعبة في العديد من المقاهي، ولكن معنى وجود هذه المنضدة في مقهى البنان أنه كان في الجمالية من يلعبها يومًا ما.

ظهرت على وجهه علامات الدهشة، بعد لحيظات سألت:

– ماذا عن بنان الحسينية؟

قال:

– كان البنان من شلة العباسية، لم يكمل تعليمه معنا، أبوه خلع عنه ملابس المدرسة ولبّسه جلابية وعمة. خلاه يقف في مصنع البن بتاعهم. كنا نمشي قدام المصنع نشوفه ونضحك، الطريف أن أباه نجح ضد والد كمال سليم المخرج فيما بعد وكان وفديًّا، والسبب عرابي الفتوة، البنان الأب أيضًا كان على مبادئ الوفد، لكن قيادة الوفد كانت تميل إلى والد كمال سليم وفي أحد الأيام قرر سعد باشا زغلول أن يذهب لتأييد والد كمال سليم في الحسينية، وعندما ظهرت عربة سعد باشا أحاط بها رجال عرابي الفتوة، حملوها على الأعناق واتجهوا بها إلى سرادق البنان بدلًا من سرادق والد كمال سليم، وهكذا نجح البنان ودخل البرلمان ممثلًا للوفد.

نضحك طبعًا، وينتقل الحديث إلى عرابي الفتوة، هذه الشخصية الأسطورية، يقول:

– في أحد الأيام احتل عرابي ورجاله حي الظاهر والسكاكيني، أحضروا عربات

نقل وشحنوها بالحجارة والزجاجات واتجهوا إلى السكاكيني، ما حدث هو أن شابًّا من أصحابنا اسمه البري بصبص لبنت من الحسينية، واستنفر عرابي قواته وشن حملة تأديبية ضد رجال البري وكل من يمت إلى السكاكيني، احتل أيضًا قسم الظاهر وجرد الكونستابل الإنجليزي من هدومه، الكونستابل دخل إلى وزارة الداخلية عاريًا، اتجه إلى هارفي باشا حكمدار القاهرة، قال له: شوف الفتوات عملوا فيَّ إيه؟ يمكن اعتبار هذا الحادث نهاية عصر الفتوات، شن البوليس حملة شرسة ضد عرابي، حبسوه لمدة سنة، خرج بعدها شخصًا آخر، يمشي جنب الحيط، لو شكاه أي إنسان يسحبونه إلى السجن، ما اعرفش عملوا فيه إيه!

سألته:

هل قصة فيلم «فتوات الحسينية» مكتوبة خصيصًا للفيلم أم أنها مكتوبة كأدب وأخذ عنها الفيلم؟

قال:

لا.. مكتوبة للسينما، أذكر أنني قابلت المخرج نيازي مصطفى وقال لي: أنا عاوز حاجة بلدي. كتبت القصة خصيصًا للسينما، ونجح الفيلم نجاحًا كبيرًا.

قلت:

رأيت هذا الفيلم في الخمسينيات، أذكر مشاهد منه، كان تمثيل محمود المليجي وهدى سلطان وفريد شوقي بارعًا، لكنني لم أره بعد هذه المرة قط، ولم يذعه التليفزيون إلا مرة واحدة منذ عشرين سنة.

قال بعد لحظات:

الفتوات ضاق بهم الحال في الحسينية بعد حادثة عرابي، البوليس ضايقهم جدًّا، هاجروا من الحسينية إلى المذبح، هناك بقوا جزارين، نزلوا ضرب وذبح في البقر والخرفان، أما قهوة عرابي فانتهت، أولاده باعوها..

بدا متأثرًا، تذكرت مروري بميدان الجيش، اختفاء المقهى في السبعينيات وتحوله إلى مجموعة دكاكين متنافرة، كان المقهى من أجمل الأماكن التى ارتبطتُ بها. يعني بالنسبة إليه الشباب ورفقة العمر الجميل.

الثلاثاء: 24 سبتمبر

جرى حديث حول كتاب «تيري ميسان» المؤلف الفرنسي الذي يشكك في اصطدام طائرة بالبنتاجون، وكذلك في طائرة بنسلفانيا، امتد الحديث أيضًا إلى مقال السفير الأمريكي المنشور الجمعة الماضي في الأهرام ويطالب فيه رؤساء تحرير الصحف المصرية بتدقيق ومراجعة مقالات الكُتاب عندما يتعرضون لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، عن الضجة التي أحدثها المقال، وبيان المثقفين العنيف الذي صدر في نفس اليوم، وبيان نقابة الصحفيين الهادئ إلى حد ما، بعد لحظات من الصمت قال:

– ما كتبه السفير لا يليق ولا يتفق مع روح الولايات المتحدة، لكنني لا أصدق أن الأمريكان ضربوا برجي التجارة والبنتاجون لتحقيق أهداف سياسية.

تحدثت عن رواية شاهد عيان لي أثناء زيارتي إلى واشنطن، إنه يقيم في فرجينيا ويعمل في مدينة واشنطن العاصمة، كثيرون مثله لرخص الإيجارات في ولاية فرجينيا، كان على الطريق الطويل الذي يمر بالبنتاجون، وكانت حركة مرور العربات كثيفة والمرور بطيئًا، عندما لمح طائرة تطير على ارتفاع منخفض باتجاه المبنى، إن الطائرات تتجه عادة إلى المطار الموجود في قلب واشنطن والذي يقع على مسافة قريبة من الكونجرس والبيت الأبيض والمؤسسات الفيدرالية، قال صديقي إن ما لفت نظره في هذه الطائرة ارتفاعها المنخفض، بعد رؤيته لها بثوان دوى انفجار هائل شعر معه أن العربة ارتفعت واصطدمت بالأرض، نزل منها، فوجئ بالجميع يتطلعون باتجاه البنتاجون وكرة هائلة من الدخان القاتم تتصاعد إلى السماء. أصغى صامتًا، ثم سألته عما إذا كان قد عاش فترة مشابهة لما نمر به الآن، بعد تفكير قليل قال:

– لا...

سألت: ولا الأزمة الاقتصادية عام تسعة وعشرين؟

بعد تفكير استغرق قليلًا، قال:

– لا. أزمة سنة تسعة وعشرين كانت آثارها قاصرة على تجار القطن الكبار وبعض المشروعات الاقتصادية الخاصة، لكننا لم نشعر بها كشعب. كان الجنيه المصري قويًّا، راسخًا، أقوى من الاسترليني، ولم يخطر ببالي قط أن قيمته سوف تهتز، كانت فكرة أن قيمته ستقل غير مطروحة بل غير متصورة، إلى أن بدأت الحرب العالمية الثانية، وبدأت أشعر أن المرتب لم يعد يكفي احتياجات الحياة، طيب.. ما العمل؟ بدأنا كموظفين نحاول التوفير من هذا الجانب وذاك، لكن الظروف كانت تزداد صعوبة، إلى أن تولى مصطفى النحاس باشا الحكومة بعد حادث أربعة فبراير الشهير، فأتى بما سمي غلاء المعيشة، أي علاوة مالية تضاف إلى المرتب تعادل نسبة التضخم، إضافة إلى ذلك بدأ ما عرف بالإنصاف، أي إنصاف الموظفين الذين تأخرت ترقياتهم من درجة إلى درجة، لقد تمت ترقيتي نتيجة لذلك من الدرجة السابعة إلى الخامسة دفعة واحدة، وكان ذلك بالإضافة إلى غلاء المعيشة يعني زيادة محترمة للمرتب، وهذا رواج لم نعرف له مثيلًا، أذكر أنه يوم إعلان العلاوة والإنصاف أن السعاة والفراشين قفزوا فوق المكاتب وراحوا يرقصون فرحًا.

– كم كان مرتبك بعد العلاوة والإنصاف؟

– حوالي خمسة وعشرين جنيهًا.

هنا بدأ مجدي سعد المحامي والمهندس حسن ناصر في حساب قيمة المبلغ بالقياس إلى قوة الجنيه المصري، الآن في سبتمبر عام اثنين وألفين. وانتهيا إلى النتيجة...

– المبلغ يوازي ثمانية عشر ألف جنيه الآن...

وعندما أبلغه بالرقم يضحك ضحكته الصافية، يقول:

– دا أنا كنت بآخذ مرتب ولا بتاع المبيدات...

يشير بذكاء وسخرية إلى موظف عام اتهم مؤخرًا بالسماح بإدخال مبيدات حشرية تسبب السرطان، ومما نشر عنه أن مجموع مرتباته ومكافآته أربعمائة ألف جنيه شهريًّا. عدت إلى النحاس باشا، سألته عما إذا كان قد رآه.

– كثيرًا...

عادةً يجيب بكلمة واحدة عندما يكون الأمر بالإيجاب، ثم يصمت قليلًا ويعود إلى التفصيل. قال:

– كنت أصغي إليه في الاجتماعات العامة، وكان خطيبًا مقتدرًا، وكانت شعبيته جارفة، كنت أذهب إلى السرادق، وكان بعض شباب الحزب يقومون بتنظيم الاجتماعات، يقفون عند المداخل ويتحققون من شخصية بعض القادمين، لم يكن الوفدي في حاجة إلى تحرير استمارة تقول إنه منتم إلى الوفد، أو حمل بطاقة. كان يكفي للإنسان أن يعلن وفديته، بالطبع كان هناك أثرياء يتبرعون للحزب، وكان هناك بعض من يتفرغ لمهام الحزب، ولكن كثيرين كانوا يعتبرون شراء صحف الحزب إشهارًا بالانتماء.

يصمت قليلًا،يعود إلى النحاس باشا..

– عندما أعلن الإنصاف وعلاوة غلاء المعيشة أعلن معهما أيضًا مجانية التعليم حتى المرحلة الثانوية. في مجلس الوزراء طالب طه حسين بمجانية التعليم الجامعي، النحاس باشا قال له: يوم ما تخبرني أنه عندك مكان لكل طالب، وأدوات بحث وأساتذة بعدد كاف، سوف أقرر مجانية التعليم فورًا.

سألته عما إذا كان مشى في جنازة النحاس؟

– نعم، لكنني لم أستمر حتى ضريح سيدنا الحسين الذي صلوا عليه هناك، طبعًا أنت تعرف ما حصل.

ضحكت. قلت له إنني رأيت في معتقل مزرعة طرة عام ستة وستين أكثر من ثلاثين وفديًّا اعتقلوا بعد انتهاء الجنازة على الفور، جريمتهم التي اعتقلوا بسببها دون محاكمة أنهم هتفوا في المظاهرة: «لا زعيم بعدك يا نحاس»، بعض الذين قابلتهم في المعتقل هتفوا بالفعل كما أخبروني، ومنهم مصطفى ناجي، رحمه الله. كان طويلًا، أسمر اللون، قال لي إنه هتف بالفعل، وكان بعضهم يمشي إلى جواره ويسألونه عن اسمه وعنوانه ولم يخف، كذلك حافظ شيحا.

هنا قال:

– حافظ شيحا كان معهم أيضًا؟

قلت: نعم.

ق.ال: حافظ شيحا كان زعيمًا للطلبة الوفديين، كنت أعرفه، أخبرني أنه نظَّم إضرابًا في كلية الحقوق، استدعاه رئيس الجامعة وقتئذ، أحمد لطفي السيد باشا. كان طويلًا، صعيديًّا، عندما دخل المكتب رآه فسيحًا، مشى إلى أحمد لطفي السيد وكأنه يقطع شارعًا، وعندما وصل إليه، قال له: تفضل، قهوتك سادة ولَّا بسكر؟ طلب قهوة بسكر، وبعد أن شربها وقف أحمد لطفي السيد ليقول له:

– أنت مفصول من الجامعة فصلًا نهائيًّا..

في سنة أربع وخمسين، محمد نجيب دخل في أزمة مارس، حافظ شيحا كان مع نجيب. قبض رجال جمال عبد الناصر عليه، دفعوا به إلى السجن الحربي، دخل إلى حجرة فسيحة واسعة، كان يجلس في آخرها ضابط، فوجئ بمن يضربه بالشلوت فاندفع إلى الأمام، قطع الحجرة، وصل إلى المكتب بدون مشي.. كان محاميًّا كبيرًا ومحترمًا، طبعًا عاد إلى الجامعة بعد فصله وأتم الحقوق...

قلت: لقد رأيته وكان متماسكًا في المعتقل، وكان معهم أيضًا ياسين سراج الدين وكان أنيقًا في ملابس المعتقل البيضاء، وباستمرار يجلس معنا، كانت عنابر الوفديين في مواجهتنا، وكان بها حوالي ستة وثلاثين هم ضحايا جنازة النحاس، طبعًا مسألة عبثية ولم يكن لها أي ضرورة. أذكر معتقلًا وفديًّا اسمه حسن حصان، كان رجلًا ضخم الجسم، طيبًا، وكان يشغله أمر ولديه. يبكي خوفًا عليهما من الانحراف وهو بعيد عنهما، انحراف هذا الزمان كان يعني شربهما السجائر أو البيرة في أسوأ الأحوال. عندما رأيت صورتيهما رأيت شابين مكتملي الرجولة. كان في المعتقل عنبر مخصوص لمن يطلق عليهم «النشاط المعادي» وهؤلاء خليط، منهم من روى نكتة، أو من تحدث بصوت مرتفع وكتب فيه أحدهم تقريرًا، هؤلاء لم يكن انتماؤهم السياسي واضحًا، ولكل منهم سبب أدى به إلى المعتقل، ومعظمها أسباب تافهة، بعضهم أمضى عدة سنوات، أما أغلبية المعتقل فكانت من الإخوان المسلمين، كان تعدادهم حوالي ألفين وخمسمائة، وكان النشاط المعادي حوالي خمسين، وكنا نحن الشيوعيين سبعة وخمسين، وكانت العنابر متساوية المساحة، في عنابر الإخوان المسلمين ضم كل عنبر مائة وخمسين أو أكثر، كانوا ينادون بالدور، النصف يقف أول الليل والنصف يرقد ثم يتبادلان المواقع، طبعًا كانت ظروفًا غير إنسانية، ومع فظاعة ظروف المعيشة فإن معتقل طرة كان جنة بالنسبة لمعتقلات أبو زعبل والسجن الحربي ومعتقل القلعة، كانت هذه الأماكن مخصصة للتعذيب. أي التحقيق بأسلوب ذلك الزمن...

المحتويات

صفحة عنوان الكتاب	2
صفحة حقوق الطبع والنشر	3
حق النشر	4
مقدمة	5
الجــزء الأول	15
مجلس العام الثالث والتسعين (9 ديسمبر 2003)	21
الجزء الثاني	39
ذكريات.. الذكريات المحفوظية	40
...الطفـــولة	43
بداية التكوين والصراع بين الأدب والفلسفة	52
التكوين.. والكتابات الأولى	56
..الخروج من الظل.. إلى دائرة الضوء	61
..الروايات الكبرى... الثلاثية	64
..الأدب العظيم.. ينبع من الذات	68
..السياسة.. والثورة.. لست معاديًا لثورة يوليو	71
..السينما.. أثمرت في سنوات اليأس الأدبي	85
...الحب الأول.. والكبير	91
..الزواج.. والأسرة ..	95
الأماكن الحميمة بين القاهرة والإسكندرية	98
..المكـــان	99
القاهرة القديمة بين الواقع والإبداع في عالم محفوظ	122
الجزء الثالث مجـــالس متفـــرقة	131
إصــدارات المـــؤلـف	139
جوائز	142